الاستيطان اليهودي في الأدب الصهيوني

عبد الوهاب محمود وهب الله

الكلمة
دار الكلمة للنشر

الاستيطان اليهودي
في الأدب الصهيوني

تصميم الغلاف : سعد عبد الوهاب

دار الكلمة للنشر

شارع ليون - بناية سلام . الحمراء
بيروت . لبنان
ص . ب ١٣/٥٢٨٨
تليفون ٨٠٣٧٤٠

الطبعة الثانية ١٩٨٣

مقدمة

شموئيل يوسف عجنون (١٨٨٨ ـ ١٩٧٠) أديب ذو أهمية أدبية وسياسية بين الادباء العبريين المحدثين . ذلك لأنه اتخذ من الشعب اليهودي ومشاكله اطارا يقدم من خلاله نماذجه وأنماطه الأدبية ، التي يعكس بها الحياة اليهودية وعاداتها في كل عصر .

ويتميز أدب عجنون بالمزج بين التراث اليهودي القديم وحياة اليهود الحديثة ، والتحليل الدقيق لخبايا النفس اليهودية ، وأحاسيس الفرد اليهودي ، ومركباته النفسية . كما أن لغته الادبية هي حصيلة للقديم والحديث ، وان كان القديم يطغي على الحديث في كتاباته ، حيث يتأثر عجنون بالاساليب والتركيبات اللغوية القديمة ، التي طوعها وجعلها تستخدم للتعبير عن الموضوعات المعاصرة التي يعالجها الأدب الاسرائيلي .

وتصور أعمال عجنون الأدبية جوانب الحياة اليهودية . ويرى بعض النقاد ان عجنون قد ركز في كتاباته على ابراز التراث اليهودي ، كما أن الجانب البارز في كل كتاباته هو استخدامه للاساطير ، والمأثورات ، والرموز ، والأمثال اليهودية القديمة ، والعبارات والالفاظ الموحية .

وقد حصل عجنون على جائزة نوبل في الآداب عام ١٩٦٦ وجاء في تقرير اللجنة التي منحته الجائزة « أن كتاباته تمثل رسالة اسرائيل الى عصرنا » ، وان من أسباب منحه هذه الجائزة « فنه القصصي المتميز بعمق استيحاء موضوعات من حياة الشعب اليهودي ، وكونه اول كاتب في اللغة العبرية اخترقت قدرته الحواجز اللغوية » .

ولا بد لنا أن نؤكد هنا ان منح عجنون جائزة نوبل كان وراء اهتمامنا بدراسة اعماله الادبية . يضاف الى ذلك رغبتنا في أن نطلع القارىء العربي على أدب يمثل ، الى حد ما ،

الأدب اليهودي الصهيوني . فالذي لا شك فيه ان مكتبتنا العربية تفتقر الى مثل هدا الأدب . وحري بنا أن نطلع على الفكر اليهودي الصهيوني في كافة ميادينه ومنها الأدب .

كما ان ندرة الترجمات التي تنقل الينا نماذج من هذا الأدب تجعل اطلاعنا عليه معدوماً الى حد ما . ولا نعني بذلك أن المسؤولية تقع على عاتق الباحثين العرب على وجه التحديد ، فالامر مرهون ـ وهذا أمر طبيعي ـ بدرجة الادب اليهودي الصهيوني بين الآداب العالمية ، وهذا شرط اساسي لانتقال أي أدب إلى آداب الشعوب على اختلافها . واذا نظرنا الى أدب عجنون نفسه ، وجدنا ان هذا الأدب ، بطبيعته الأدبية الخاصة ، ورمزيته، واعتماده شبه الكلي على نصوص توراتية قديمة ، يساهم بدوره في عدم انتقال اعماله الى لغات العالم ، ومنها لغتنا العربية .

وتقدم لنا رواية « الأمس الأول ـ تيمول شلشوم » ، وهي أهم روايات عجنون وأطولها ، نماذج وانماطا من المجتمع اليهودي في فلسطين خلال فترة الهجرة الثانية (١٩٠٤ ـ ١٩١٤) ، والنشاط الاستيطاني التي كانت تلك الفترة أهم واخطر مراحله .

ودراسة هذا النموذج من كتابات عجنون يتيح لنا تكوين خلفية تاريخية وأدبية عن وضع الاستيطان اليهودي في فلسطين ، في فترة الهجرة الثانية ، وهي فترة عاشها عجنون وتأثر بها وانعكست احداثها ومشاكلها عليه فعبر عنها في هذا النموذج أصدق تعبير .

وبعد ، فان البحث التالي ، ينطوي على دراسة لأهم اعمال عجنون الأدبية ، ونعني رواية « الامس الأول » ، وفيها عرض لمراحل الاستيطان اليهودي في فلسطين في فترة تعد من اخطر الفترات ، والتي أفرزت معطيات بعيدة المدى على الصعيد الاستيطاني ، وشكلت نواة لكل المؤسسات التي قامت عليها دولة اسرائيل في سنة ١٩٤٨ . كل ذلك عرضناه في ثلاثة أبواب :

يعالج الباب الأول مراحل الاستيطان اليهودي في فلسطين من خلال مقدمة تاريخية تعرض لبدايات النشاط الاستيطاني ، وتحديدا منذ فترة الهجرة الاولى (١٨٨٢ ـ ١٩٠٣) ، وتحول الهجرة اليهودية الى فلسطين الى فكرة سياسية استيطانية ، الى جانب احصاءات عن عدد المهاجرين اليهود الذين جاؤوا في اطار الهجرات المختلفة ، وبدء الاستيطان اليهودي المنظم عن طريق اقامة المستوطنات . ويركز هذا الباب على فترة الهجرة الثانية (١٩٠٤ ـ

١٩١٤) التي تعالجها راوية « الامس الاول » موضوع البحث ، من خلال تتبع الاصول الاجتماعية والاتجاهات العقائدية لجماعات الهجرة الثانية ، والتطورات التنظيمية ابان هذه الفترة ، ثم النشاط الاستيطاني والمستوطنات الجديدة ، والمشاكل التي واجهت المستوطنين ، وما استتبعه ذلك من ظهور الدعوة الى « العمل العبري » و « احتلال العمل » ، والتي ادت الى بروز المعارضة العربية في فلسطين للاستيطان اليهودي ، وهي المعارضة التي دفعت المستوطنين الصهيونيين الى تأسيس منظمات شبه عسكرية وأبرزها منظمة « هاشومير » (١٩٠٩) والتي كانت نواة لما أعقبها من منظمات شبيهة ، مرورا بالهاجاناة وانتهاء بالجيش الاسرائيلي الحالي . ويحتوي هذا الباب ايضا على قائمة بأهم شخصيات الهجرة الثانية ، والتي كان لها تأثير على مجريات الاحداث بعد ذلك .

ويتناول الباب الثاني حياة شموئيل يوسف عجنون وأدبه. نشأته ومراحل حياته، ومحيطه الاجتماعي ، والعوامل التي أثرت في تكوين شخصيته الأدبية ، والمصادر التي استمد منها خلفيته الأدبية ، والأدباء الذين تأثر بأعمالهم ، ودراسة اسلوبه الأدبي من خلال بعض اعماله الأدبية . ثم عرض لمؤلفات عجنون بطبعاتها المختلفة وقائمة بكل أعماله الأدبية التي صدرت حتى الآن .

أما الباب الثالث ، فيحتوي على عرض تحليلي لرواية « الامس الأول » من خلال سرد أهم أحداثها والتعليق عليها من ناحية توضيح ما اراد عجنون التعبير عنه ، بالرموز والعبارات والالفاظ الموحية . كما حاولنا ايضا استخلاص السمات الأدبية لاسلوب عجنون في الرواية ، بالاضافة الى محاولة التعرف على تصنيف الشخصيات اليهودية في أدب عجنون ، حيث يعالج في معظم اعماله الادبية ، ان لم نقل فيها كلها ، الواقع اليهودي وما يحمله هذا الواقع في طياته من مفارقات طبقا للظروف المعاشة وانعكاساتها على حياة اليهود انفسهم . ويعرض هذا الباب ايضا لمشاكل الاستيطان في فترة الهجرة الثانية ، كما تعبر عنها رواية « الامس الأول » والتي اهمها المنحى الديني ومشاكل الاستيطان ، ثم مشاكل الاستيطان بين المثال والواقع في حياة يتسحاق كومر ، بطل الرواية ، مشكلة الصراع بين القديم والجديد ، مشكلة العمل العبري ، ثم نظرة نقدية الى الصهيونية السياسية وزعمائها ومؤسساتها لمحاولتها افراغ الاستيطان من مضمونه الديني اليهودي حسبما يراه عجنون ، ومشكلة تعدد اللغات ومحاولة احياء اللغة العبرية ، المشكلة العربية ونظرة عجنون الى العرب ، كما تعبر عنها الرواية ،

وتعارضها مع النظرة الانسانية . وقد أوردت امثلة تعبر عن هذه المشاكل مع تعريب النصوص العبرية المأخوذة من الرواية موضوع البحث .

وبقي أن نضيف أن هذا البحث هو محاولة متواضعة ، نريد بها ان تكون مقدمة ، تمهيداً للطريق نحو فهم أعمق لكنْه الأدب الاسرائيلي ، ان حلد الهدف وانفسح الأمل وصدقت العزيمة . والله ولي التوفيق .

الباب الأول

الاستيطان اليهودي في فلسطين

الفصل الأول

مقدمة تاريخية

الهجرة وبداية حركة الاستيطان

يؤرخ الاستيطان اليهودي في فلسطين ببدء الهجرة الصهيونية اليها في مطلع الثمانينات في القرن التاسع عشر ، رغم أن له جذوراً وبدايات في « اليشوف القديم » (*)، وهي التعبير المستعمل للمجتمع اليهودي التقليدي في فلسطين . ذلك ان اليهود كانوا يشكلون اقلية ضئيلة بين سكانها العرب قبيل بدء تدفق المهاجرين ، خصوصاً من دول شرق اوروبا ، وبالذات من روسيا ورومانيا . ويعود اليشوف من الوجهة التاريخية الى نهاية القرن الخامس عشر مع وصول قسم من يهود اسبانيا بعد طردهم من هناك عام ١٤٩٢ . وكان الاعتقاد السائد آنذاك ان الطائفة اليهودية في فلسطين نخبة ممتازة من الشعب اليهودي في المنفى ، وان يهود الأرض المقدسة اقرب الى الله بفضل صلواتهم وأعمالهم الدينية ، ولهذه الافكار قوة دفع خاصة في القرن السادس عشر ، خاصة وان اليهود في فلسطين كانوا يقطنون في المدن الاربع المقدسة بالنسبة اليهم : القدس وصفد وطبريا والخليل وحتى عام ١٨٧٢ كان اليهود «السفاراديم»(**) يشكلون اكثرية اليشوف اليهودي في فلسطين ،الا ان نسبة«الاشكناز»(***)

(*) اليشوف: اليشوف كلمة عبرية تعني مستوطنة او استيطان ، وكانت تطلق مجازا قبل قيام اسرائيل ، على المستوطنين اليهود في فلسطين ومنظماتهم ومؤسساتهم .

(**) السفاراديم : لقب يطلق على اليهود الذين هاجروا من اسبانيا والبرتغال وأقاموا في جنوب اوروبا وشمال افريقيا وفلسطين وغيرها ، وهو لقب مشتق من كلمة سفاراد في العبرية التي تعنى اسبانيا . وتطلق كلمة السفاراديم على اليهود الشرقيين عامة.

(***) الاشكناز : لقب يطلق على اليهود الذين هاجروا من وسط اوروبا وخاصة من المانيا وانتشروا ايضا في شرق اوروبا . وقد وردت هذه الكلمة في سفر التكوين (١٠ : ٣) « وبنو جومر أشكناز وريفات وتوجرمة » . وفي سفر اخبار الايام الأول (٥١ : ٢٧) « نادوا عليها ممالك اراراط ومنى واشكناز » وفي سفر ارميا (١ : ٦) « وبنو جومر اشكناز وريفات وتوجرمة » .

أخذت ترتفع حتى أصبحت ٥٠٪ من السكان اليهود في عام ١٨٧٥ ثم ٦٠٪ في عام ١٨٧٧ ، وأدت الهجرة ، بسبب الاضطرابات في روسيا في عام ١٨٨١ - ١٨٨٢ ، إلى استمرار نسبة زيادة الاشكناز خصوصاً في أوساط يهود القدس التي كانت تضم أكبر تجمع يهودي في فلسطين في منتصف الثلاثينيات من القرن التاسع عشر، بعد الزلزال والكوارث الطبيعية التي حلت بصفد سنة (١٨٣٧) وانتقال معظم اليهود الى القدس ، بعد أن اشتهرت صفد كمركز للتوراة والدراسات الدينية .

ولا توجد احصاءات دقيقة عن عدد السكان اليهود في فلسطين قبل بدء الهجرة الصهيونية اليها في مطلع الثمانينات من القرن التاسع عشر ويستفاد من الاحصاء الذي أمر باجرائه « موشيه مونتفيوري » ، اليهودي البريطاني الثري وأول من أبدى اهتماما بأوضاع اليهود في فلسطين في عام ١٨٣٩ ، أن عددهم قد بلغ آنذاك نحو ٦٥٠٠ نسمة ، نصفهم تقريبا في القدس . بينما تشير مصادر أخرى الى أن عددهم بلغ في السنة التالية ١٠,٥٠٠ . غير أن هذا الاختلاف في التقديرات يتقلص عندما نقترب من الستينات ثم الثمانينات، بحيث يصل عدد اليهود بحسب التقديرات الى ١٤,٤٠٠ نسمة تقريبا خلال ١٨٥٦ - ١٨٦٠ ، ليرتفع الى ٢٣,٣٥٠ نسمة خلال ١٨٧٦ - ١٨٨١ . وكان أكثر من نصف اولئك السكان يعيش في القدس ، بينما كانت البقية موزعة في سبعة بلدان اخرى : صفد ، طبريا ، عكا ، حيفا ، نابلس والخليل ، وفي قريتين في الجليل : شفا عمرو والبقيعة . ونعرض في الاحصاء التالي تقديرات للسكان اليهود وأماكن اقامتهم . (انظر الجدول في الصفحة المقابلة)

وقد تمتع اليهود في فلسطين ، التي كانت خاضعة للحكم العثماني منذ ١٥١٧ ، بقسط وافر من الحرية الدينية . واذا كانت اوضاعهم في الامبراطورية العثمانية عامة غير مرضية ، فانها لم تكن تختلف كثيراً عن أوضاع بقية السكان . وقد أدت المعاهدة التي وقعت بعد حرب القرم عام ١٨٥٦ الى تعزيز مركز الطوائف غير الاسلامية بما في ذلك اليهود ، حيث تعهدت السلطات العثمانية بالمحافظة على الحقوق الدينية لليهود والمسيحيين .

لكن على الرغم من الأوضاع السياسية المريحة التي تمتع بها اليهود في النصف الثاني من القرن التاسع عشر ، عبر الحرية الدينية وامتيازات الحماية القنصلية التي اتاحت لهم امكان وجود يشوف يهودي متطور ، لم تتغير اوضاعهم الاقتصادية نحو الافضل . ذلك أن معظم

المكان	السنة		
	١٨٣٩/ ١٨٤٠	١٨٥٦/ ١٨٦٠	١٨٧٦/ ١٨٨١
القدس	٧,٠٠٠	٨,٠٠٠	١٣,٠٠٠
صفد	١,٤٠٠	٤,٠٠٠	٥,٠٠٠
طبريا	٦٠٠	٩٠٠	٢,٠٠٠
الخليل	٧٠٠	٨٠٠	٨٠٠
يافا	٦٠	٤٠٠	٦٠٠
حيفا	١٥٠	١٠٠	٨٠٠
نابلس	٢٠٠	١٠٠	٦٠
عكا	٢٠٠	١٢٠	٧٥
شفا عمرو	٦٠	-	١٥
البقيعة	٥٠		
المجموع	٢٠,٤٢٠	١٤,٤٢٠	٢٢,٣٥٠

اليهود قدموا الى فلسطين بدوافع دينية بحتة بهدف تكريس حياتهم لدراسة التوراة واقامة الشعائر الدينية والصلوات والعيش بالقرب من الأماكن اليهودية المقدسة . وقد أدى انصرافهم إلى هذه الأمور إلى عدم قيام معظم اليهود بعمل يعتاشون منه ، وكانوا يعتمدون اعتماداً تاماً على أموال الصدقات التي تصلهم من اليهود في المهجر ، بحيث كان يعتاش منها نحو ٨٥٪ وكانت الطائفة اليهودية في البندقية هي أول طائفة تفرض ضريبة سنوية ثابتة على ابنائها لمساعدة اليشوف اليهودي في فلسطين بعد أن هاجر حاخام البندقية موشيه الشيخ الى فلسطين وأقام في صفد . ثم تطورت الأمور في هذا الصدد وبدأ يهود فلسطين يوفدون رسلا من قبلهم الى البلدان التي هاجروا منها لجمع التبرعات والعودة بها الى فلسطين وتقسيمها بين اليهود . ومن هنا جاء اسم نظام « الحلوكا » ، ولم تكن هذه الاموال توزع طبقا لاحتياجات العائلات

بقدر ما كانت وفق المكانة الدينية لرب الاسرة . واستمر هذا الاسلوب في الواقع حتى القرن العشرين على الرغم من ادخال تعديلات داخلية مهمة في اواخر القرن الثامن عشر . ومع بداية القرن التاسع عشر أصبحت الطوائف اليهودية من الخارج هي التي تقوم بجمع تبرعات منتظمة بواسطة مؤسسات خاصة ثم ترسلها الى فلسطين .

وتطلق كلمة « حلوكا » على اسلوب الاعانة المالية من جانب يهود المهجر لليشوف اليهودي في فلسطين ، او طريقة جمع الأموال وتوزيعها . وبمعنى أوسع تطلق على اسلوب الحياة والبنية الاجتماعية لليشوف اليهودي الذي كان يعتاش من هذه الاعانة .

وقد بدأ نظام الحلوكا في القرن الخامس عشر خصوصا في أيام طرد اليهود من اسبانيا ، وكان يتم توزيع الاموال التي يتم جمعها في الخارج على المدن الاربع المقدسة : القدس ، صفد ، الخليل ، وطبريا . حيث كانت تنفرد بالاماكن المقدسة الموجودة فيها ، وكان يطلق على كل طائفة من الطوائف التي تقيم في هذه المدن الموجودة فيها اسم كوليل(*) . وبمرور الزمن أصبحت المساعدة المالية ليهود فلسطين امراً دائماً لدى الطوائف اليهودية خارج فلسطين ، وتم تعيين جباة لهذا الغرض في كل مكان لتحصيل التبرعات ليهود فلسطين ثم تحويلها الى الجباة الرئيسيين ، حيث يقوم هؤلاء بدورهم بتحويلها الى الاشخاص المسؤولين عن ذلك في فلسطين ، وهناك توزع على المدن الأربع طبقا لاهميتها التي تغيرت عدة مرات بمرور الزمن . وفي اوائل القرن التاسع عشر تحدد تقسيمها الى ٢٨ حصة متساوية منها ١١ حصة للقدس ، ٧ لصفد ، ٦ للخليل ، و٤ لطبريا .

الاستيطان الزراعي

لقد تدهورت أوضاع اليهود الاجتماعية في فلسطين ، مما حدا ببعض اليهود من خارج البلاد الى القيام بمحاولات لتحسينها بواسطة توجيههم للعمل في الزراعة وتعليمهم حرفا مفيدة . وكان « السير موشيه مونتفيوري » أول من أبدى اهتماما بهذا الموضوع وحاول العمل على تحسين اوضاع يهود فلسطين بناء على طلبهم ، مما دفعه الى زيارة فلسطين سبع مرات

(*) لقب كان مألوفا في فلسطين يطلق على كل طائفة من اليهود خاصة من رجال اليشوف القديم ، من مهاجري نفس المدينة او نفس البلد الذين استقروا او تجمعوا معا في مكان واحد.

(١٨٢٧ - ١٨٧٥) .

وقد حاول مونتفيوري دفع اليهود الى العمل في الزراعة ، الى جانب المساعدات المالية التي قدمها اليهم واقامة المدارس والعيادات والورش وغيرها . وهنا تبدأ فكرة الاستيطان الزراعي التي تعود الى ثلاثينات القرن التاسع عشر . فعندما زار « مونتفيوري » فلسطين للمرة الثانية (١٨٣٩) وجد اليشوف اليهودي يعيش في ضائقة وفقر، وبذل محاولات لدفع بعض الاسر اليهودية التي كانت تعيش في فلسطين في المدن المقدسة بالنسبة لهم الى الاستيطان الزراعي . وبدأ بالفعل مفاوضات مع محمد علي ، حاكم البلاد حينذاك ، للحصول على امتياز لاستيطان يهودي في فلسطين مقابل قرض كبير لمصر ، ولكن هذه المفاوضات فشلت بسبب هزيمة محمد علي وعودة الحكم العثماني في فلسطين . كما فشلت معها محاولات مونتفيوري لتحويل يهود فلسطين الى حرف منتجة .

لكن مونتفيوري قرر في عام ١٨٥٧ انشاء اول حي خارج اسوار مدينة القدس وهو « مشكانوت شئنانيم » وعرف فيما بعد باسم « يمين موسى » . وفي عام ١٨٦٠ تم بناء أول عشرين مسكنا لم تُشغل الا في عام ١٨٦٢ . وقد منح مونتفيوري سكانها مرتبات جيدة طوال ايام حياتهم وعين لهم حراساً من العرب . ويعتبر هذا الحي اول حي سكني يهودي في فلسطين . ثم تبع ذلك انشاء احياء اخرى مثل « معسكر اسرائيل » عام ١٨٦٧ ، وحي ناحلات شيفعا عام ١٨٦٩ والذي قام ببنائه يوسف ريفلين ويوئيل موشيه سلومون وزملاؤهما ، وقد وضع يوسف ريفلين ، باعتباره اول ساكن في الحي ، نظماً للحراسة فيه وبقي الساكن الوحيد حتى عام ١٨٧٣ .

ونشطت في هذا المجال ايضا « جمعية الاليانس الفرنسية » ، Israelite Universelle Alliance - الاتحاد اليهودي العالمي ،(*) حيث أوفدت في عام ١٨٦٨ مبعوثاً هو « كارل نيطر » لدراسة اوضاع اليهود . وبعد التقرير الذي قدمه نيطر تقرر اقامة مدرسة زراعية لتعليم ابناء اليهود اصول الزراعة الحديثة . وفي عام ١٨٧٠ افتتحت المدرسة الزراعية « مكفيه يسرائيل » التي اقيمت على أرض مساحتها ٢٦٠٠ دونم كان يفلحها ابناء قرية يازور

(*) سعى الاليانس الى تقديم المساعدة السياسية والثقافية لليهود اينما كانوا . وقد أسسه بعض اليهود في فرنسا وكان من بينهم (ادولف كراميه عضو مجلس النواب والوزير في الحكومة الفرنسية) .

العربية بعد أن تمكنت جمعية الاليانس من استئجارها من السلطات العثمانية إثر اتصالات اجرتها في هذا الصدد . وتعتبر « مكفيه يسرائيل - رجاء اسرائيل» أول مدرسة زراعية يهودية في فلسطين ويعود اسم المدرسة الى التوراة حيث ورد في سفر (ارميا - (١٧ : ١٣) : « ايها الرب رجاء اسرائيل كل الذين يتركونك يخزون » . وأصبحت هذه المدرسة مع بداية الاستيطان مصدرا لتشجيع وتدعيم اليشوف اليهودي ، ومن العوامل الرئيسية التي خلقت الفلاح اليهودي .

ونشط في هذا المجال أيضا يهود فلسطين ، فقد دعا يوئيل موشيه سلومون على صفحات جريدته « يهودا والقدس » (١٨٧٧) اليهود الى الاتجاه للاستيطان الزراعي وان يحذوا حذو الالمان الذين اقاموا المستعمرات في فلسطين والمستعمرات التي اقيمت في ضواحي حيفا ، الناصرة ، يافا والقدس وانضم اليه يهوشوع لين الذي اشترى قطعة أرض بجوار القرية العربية قالونيا بالقرب من القدس وقد بنيت على هذه الارض بعد ذلك مستعمرة « موتسا » ، وجرت محاولات لشراء أراض في اريحا ولكنها اصطدمت بمعارضة السلطات . وفي عام ١٨٧٨ وضع أساس اول مستعمرة يهودية في فلسطين « بيتح تكفا » (باب الرجاء) ويعود هذا الاسم الى ما ورد في التوراة سفر هوشع ٢ : ١٧ : « واعطيها كرومها من هناك ووادي عكور بابا للرجاء » وكانت هذه المحاولة الاستيطانية هي الحلقة التي تربط بين اليشوف اليهودي القديم والاستيطان الجديد .

الفصل الثاني

الهجرة الأولى (١٨٨٢-١٩٠٣)

من المألوف تصنيف موجات الهجرة اليهودية التي وصلت الى فلسطين منذ مطلع ثمانينات القرن التاسع عشر الى سبع فترات وتسميتها بالارقام حسب ترتيبها التاريخي الى الهجرة الاولى من ١٨٨٢ - ١٩٠٣ ، الهجرة الثانية من ١٩٠٤ - ١٩١٤ ، الهجرة الثالثة من ١٩١٩ - ١٩٢٣ ، الهجرة الرابعة من ١٩٢٤ - ١٩٣١ ، الهجرة الخامسة من ١٩٣٢ - ١٩٣٩ ، الهجرة السادسة منذ بداية الحرب العالمية الثانية حتى اقامة دولة اسرائيل (١٩٤٨) ، الهجرة السابعة منذ اقامة اسرائيل فصاعدا . ان ما يحدد طابع كل موجة من الهجرة وانجازاتها ، الى حد كبير ، هو نوع المهاجرين الذين وصلوا فيها وقدرتهم على التأقلم في فلسطين .

وتعتبر الهجرة الاولى بداية الاستيطان اليهودي العملي والمنظم في فلسطين ذلك ان اليشوف اليهودي القديم كان ولا يزال ، مع بداية هذه الهجرة ، يسير الهوينا وراء التيار الاصلي للهجرة اليهودية ذات الصبغة الدينية ، وبالتالي أصبحت الشقة واضحة بين اليشوف القديم واليشوف الجديد الذي نحن بصدده رغم أنه يعتبر امتدادا له ولكن بمفاهيم واهداف جديدة .

بدأت الهجرة الاولى سنة ١٨٨٢ بوصول اول موجة من المهاجرين اليهود من روسيا ورومانيا الى فلسطين . فبعد اغتيال القيصر اسكندر الثاني في روسيا في مارس ١٨٨١ واشتراك احدى اليهوديات في اغتياله قامت موجة من الاضطهادات ضد اليهود في روسيا ، ونتج عن ذلك هجرة كبيرة من اليهود في روسيا ، واتجهت الاغلبية الساحقة منهم الى غرب اوروبا واميركا ، بينما هاجرت القلة منهم إلى فلسطين . ونشأت في روسيا في تلك الفترة جمعيات

يهودية دعت الى الهجرة الى فلسطين بعد المذابح والاعتداءات التي نظمت ضد اليهود في روسيا خلال ١٨٨١ ـ ١٨٨٢ ، ومن بين هذه الجمعيات جمعية « أحباء صهيون » . وظهر في تلك الفترة ايضا المفكرين اليهود خصوصا من رجال الهسكلاه(*) الذين نادوا من قبل بدمج اليهود في حياة المجتمع الروسي ، وبدأوا يعيدون النظر في مواقفهم السابقة بعد الاجراءات المناهضة لليهود في روسيافانضموا الى التيار الداعي الى هجرة اليهود الى فلسطين ، ومن هؤلاء بيرتس سمولينكسين (١٨٤٢ ـ ١٨٨٥) الذي أيد بشدة هجرة اليهود الى فلسطين وسار في ركب « احباء صهيون » . وموشيه ليلينبلوم (١٨٤٣ ـ ١٩١٠) الذي انضم ايضا الى حركة احباء صهيون وانتخب بعد ذلك عضوا في لجنتها التنفيذية وعمل من أجل دعم المستوطنات التي اقامتها الحركة في فلسطين .

استغل احباء صهيون المضايقات والاضطهادات التي لقيها اليهود على ايدي السلطات القيصرية في روسيا واخذوا يدعون الى الهجرة الى فلسطين وساعدهم في ذلك ايضا الحماس الذي دب في نفوس بعض المتعصبين والطلاب اليهود الروس الذين تركوا مقاعد الدراسة وانضموا الى الدعوة للهجرة الى فلسطين بدوافع شتى جعلوا في طليعتها حب صهيون ، وهؤلاء هم الذين يطلق عليهم البيلوييم(*) وخلاصة آرائهم هي « ان استيطان ارض اسرائيل [فلسطين] هو الخطوة الأولى لبعث امتنا » . وأقام البيلوييم فروعا لتنظيمهم في اماكن مختلفة في روسيا رغم ان عددهم لم يزد عن ٥٠٠ شخص هاجر منهم نحو خمسين الى فلسطين، وبقي فيها عشرون شخصا فقط . ولكنهم سرعان ما تحولوا هناك الى عنصر ثائر ومهيج لباقي المستوطنين نظرا لتشديدهم على فكرة «البعث القومي والهجرة» وحياة العمل المنتج في ارض اسرائيل. والبيلوييم اول تنظيم يشكل حركة قطرية في روسيا نادت بفكرة هجرة جماعية منظمة وسعت الى تشكيل حركة قومية واسعة وفرضت على اعضائها واجب الهجرة الى فلسطين، كما كانت أول حركة عملت على هجرة مجموعة منظمة بغرض الاستيطان الزراعي.

غير أن الهجرة الاولى تقترن بحركة « احباء صهيون » تلك الحركة التي تأسست في

(*) الهسكلاة : كلمة عبرية تعني « ثقافة » واستنارة وتطلق على حركة فكرية اجتماعية رائدها موشيه مندلسون (١٧٢٩ ـ ١٧٨٦) . وقد عينت الحركة بنشر الثقافة بين اليهود وازالة الحواجز بينهم وبين الشعوب الاخرى وقد أدت هذه الحركة الى تجدد الأدب العبري وتطور اللغة العبرية .

(*) جمع كلمة بيلو وهي الاحرف الاولى من الكلمات العبرية «هلموا يا بيت يعقوب لنسلك في نور الرب » (سفر اشعيا ٢ : ٥) ومصدرها من العهد القديم .

روسيا في عام ١٨٨٢ بعد الاحداث التي وقعت في روسيا في تلك الفترة من اليهود المؤيدين لمن هاجر منهم الى فلسطين . وكانوا يرمون من تأسيسها الى تنظيم انفسهم والاستعداد للهجرة الى فلسطين ومساعدة الاستيطان اليهودي هناك . وانتشرت الدعوة الى تأسيس الجمعيات وجمع الاموال بقصد شراء الاراضي في فلسطين وتوطين اعضاء الحركة فيها . فقامت جمعيات على غرار جمعية « زروبابل » التي أسسها بينسكر وليلينبلوم في أوديسة عام ١٨٨٣ .

ولما استمر تدفق المهاجرين اليهود الى فلسطين وتنبهت السلطات العثمانية اليه ، فرضت في ابريل سنة ١٨٨٢ حظرا على الاستيطان اليهودي في فلسطين ، غير أن حركة احباء صهيون حاولت تفادي هذا الحظر واستطاعت ايجاد سبل ملتوية لاقامة المستعمرات اليهودية في فلسطين . وانشأ طلائع « احباء صهيون » في اغسطس ١٨٨٢ مستعمرة « الأول لصهيون »(*) ثم أنشأ مهاجرو رومانيا بمساعدة احباء صهيون رومانيا مستعمرة روش بينا بالقرب من مدينة صفد بعد عدة اسابيع من تأسيس ريشون لتسيون . ثم تلتها في نفس العام مستعمرة زمارين التي اطلق عليها فيما بعد زخرون يعقوب تخليدا لوالد البارون روتشيلد الفرنسي بعد ان نعهد بتقديم المعونة المالية للمستوطنة .

ولا بد لنا ان نشير هنا الى الدور الكبير الذي لعبه القناصل الاجانب ونظام الامتيازات والحماية في تسهيل عمليات الاستيطان اليهودي في فلسطين ، حيث تدخلوا لدى السلطات التركية مرارا للسماح بهجرة اليهود ودخولهم الى فلسطين ، وكان الاحساس لدى غالبية اليشوف اليهودي انه « لولا القناصل الاجانب لما استطاع اليهود ان يتواجدوا هنا [في فلسطين] يوما واحداً » .

في تلك الاثناء التي واجه فيها المستوطنون اليهود مشاكل لا حصر لها خصوصا من الناحية المالية الاقتصادية ظهر البارون ادمون روتشيلد بعد ان اقنعه مبعوثو « احباء صهيون » بالاشتراك في عبء استيطان فلسطين كما بذل كارل نيطر وهو من رجال الاليانس ومدير المدرسة الزراعية « مكفيه يسرائيل » مساعي لدى البارون روتشيلد لكي يساعد المستوطنين اليهود للتغلب على الصعوبات المالية التي جابهتهم. وعلى اثر ذلك قام مبعوثو البارون

(*) ورد في التوراة سفر اشعيا ٤١ : ٢٧ : « انا اول جاعل لصهيون من ينادي تلك هي تلك هي وأول معط لاورشليم بشيراً» .

روتشيلد بزيارة المستعمرات اليهودية في فلسطين وسددوا ما عليها من ديون وخصصوا للمستوطنين اعانة شهرية حتى يحصلوا على مصدر رزق من الاراضي التي يزرعونها ، وتم نقل ملكية الاراضي باسم البارون وبسط نفوذه على بعض المستوطنات وعين موظفين لادارة مشروع الاستيطان ، كما قام الحاخام شموئيل موهيليفر احد زعماء حركة « احباء صهيون » في روسيا بزيارة البارون روتشيلد وأقنعه بالمساهمة في اقامة مستوطنة في فلسطين وتم بالفعل في اواخر عام ١٨٨٣ اقامة مستوطنة عكرون (وتغير اسمها فيما بعد الى « مزكيرت باتية » تخليدا لذكرى والدة روتشيلد) وتم في نفس العام تجديد بيتح تكفا بعد ان تركها المستوطنون اليهود في عام ١٨٨١ بسبب تفشي الامراض والفياضانات . وفي عام ١٨٨٤ اسس مهاجرون من بولونيا مستعمرة « يسود هامعلا - أساس الصعود » بالقرب من بحيرة الحولة في شمال فلسطين ، واقيمت في نفس العام أيضا مستوطنة « ناحلات رؤوبين » وعرفت فيما بعد باسم نيس تسيونا « راية صهيون » ، كما أسس بقايا حركة البيلوييم بمساعدة « أحباء صهيون » في روسيا مستوطنة جديرا .

وبذلك وصل عدد المستوطنات التي أسستها طلائع الهجرة الاولى في فلسطين خلال السنوات ١٨٨٢ - ١٨٨٤ الى سبع مستوطنات بالاضافة الى اعادة بناء بيتح تكفا كما اسلفنا . لقد حملت الهجرة الاولى تيارا من المهاجرين كان دافعهم اقامة يشوف يهودي في فلسطين وتحويلها الى دولة لليهود ، ولم « يعبروا عن هذا صراحة لاسباب سياسية ، وكان كل من يلمح الى ذلك علنا ، كان زعماء الحركة يسكتونه » ، لتغطية التسلل اليهودي الى فلسطين .

غير أنه كان من الصعب جدا على كثيرين من المستوطنين التكيف مع حياة العمل ، كما أدى الحظر الذي فرضته السلطات التركية على اعمال البناء الى اضطرار المستوطنين الى السكن في الأكواخ والخيام مما تسبب في تفشي الامراض بينهم وجعلهم مضطرين الى طلب المساعدة وقد تعهد البارون روتشيلد بتقديم المعونة المالية وسرعان ما أصبحت غالبية المستوطنات اليهودية تحت اشراف روتشيلد وموظفيه . ومنذ نهاية عام ١٨٨٢ وحتى مطلع ١٩٠٠ أصبح يلعب الدور الرئيسي في الاستيطان اليهودي في فلسطين . ولم يبق تحت اشراف حركة « احباء صهيون » سوى ثلاث مستوطنات هي بيتح تكفا ويسود هامعلاه وجديرا . وفي تلك الاثناء بدأ زعماء حركة « احباء صهيون » في روسيا يحاولون تجديد نشاطهم لمساعدة المستوطنين للتغلب على الصعوبات التي واجهتهم والعمل على دفع عجلة الهجرة الى فلسطين، وتوحيد

صفوفهم ، وعقد بمبادرة بينسكر مؤتمر في كاتوفيتش في نوفمبر سنة ١٨٨٤ وكان اهم ما تمخض عنه هذا المؤتمر البحث عن السبل الكفيلة بتقوية المستوطنات اليهودية التي اقيمت في فلسطين وتوفير الدعم المالي لها وتوحيد صفوف الحركة واقامة علاقات حسنة مع السلطات التركية . ومن ضمن القرارات التي اتخذها المؤتمر ارسال وفد الى فلسطين لدراسة اوضاع المستوطنات وبحث سبل دعمها وبذل مساع لدى الحكومة التركية لالغاء القيود التي فرضتها على دخول المهاجرين اليهود الى فلسطين . غير أن الخلافات سرعان ما نشبت بين المتدينين والعلمانيين داخل الحركة مما أدى الى اضعاف الحركة وازدياد تأثير روتشيلد ونفوذه على النشاط الاستيطاني في فلسطين ،ولكن الاساليب الاستيطانية التي انتهجها موظفوه ادت الى تدهور اوضاع المستوطنات والمستوطنين ، مع ان البارون روتشيلد كان يريد الوصول الى هدفه « بأساليب سرية » فهو مثل « احباء صهيون » كان يعتقد ان « الاعلان عن نواياه وأهدافه قد يثير معارضة السلطات التركية للهجرة والاستيطان اليهودي . واعتقد من ناحية اخرى انه عن طريق الأعمال الحذرة : تسلل المهاجرين ، شراء الأراضي ، والاستيطان البطيء والمساعي السياسية ، يمكن اقامة اساس قوي ليشوف يهودي كبير . ولذلك اتخذت اعماله طابع السرية والاعمال الخيرية وكان يحث موظفيه على شراء أكبر مساحات من الاراضي » .

بيد أن الوضع المتردي في المستوطنات التي كان يشرف عليها موظفو البارون روتشيلد ادى الى نشوب الخلافات بين المستوطنين وهؤلاء الموظفين المشرفين على ادارة مستوطناتهم ، وحدث صدام بين مستوطني ريشون ليتسيون ومدير مستوطنتهم وتطور الى تمرد تزعمته منظمة صغيرة اطلقت على نفسها اسم «اجودات بوعاليم - رابطة العمال »تأسست في المستوطنة سنة ١٨٨٥ وهي اول تنظيم عمالي يعرف في تاريخ الاستيطان اليهودي في فلسطين .

ولما استمر تردي الاوضاع في المستوطنات حاول بعض زعماء حركة « احباء صهيون » العمل على اصلاحها وبرز على هذا الصعيد أشر تسفي جينزبرج (١٨٥٦ - ١٩٢٧) المعروف باسم احاد هعام ، وهو الاسم الذي كان يوقع به مقالاته وقد نشر احاد هعام عام ١٨٨٩ اولى مقالاته تحت عنوان « ليست هذه هي الطريق » في مجلة « هامليتس » وانتقد فيه نظرة زعماء « أحباء صهيون » الى اوضاع المستوطنات اليهودية ، في فلسطين ، وهي في رأيه نظرة غير واقعية ، ودعا الى تقوية الايمان والاهتمام بما اسماه نجاح الامة باسرها في بلاد اجدادها ، دون الاهتمام بسعادة الفرد . وضرورة اصلاح اليهود في المهجر كشرط مسبق لانقاذهم . وقد اثارت

آراؤه تلك جدلا شديدا بين زعماء ومفكري حركة « احباء صهيون » لمعارضتها لنظريات الحركة . ولكن احاد هعام اتجه الى العمل ايضا وترأس جمعية « ابناء موسى »، التي تأسست في مارس ١٨٨٩ بهدف تقوية الروح القومية بين اليهود ، وشدد احاد هعام على اسبقية العمل الثقافي بين اليهود في العالم . غير أن هذه الجمعية لم تنجح في تحقيق ما كانت تصبو اليه وجرى حلها في عام ١٨٩٧ .

وفي ١٨٩٠ رفعت السلطات التركية الحظر على الاستيطان اليهودي في فلسطين ، ورخصت الحكومة الروسية لحركة « احباء صهيون » للعمل بصورة رسمية ، فانعقد المؤتمر الرابع للحركة في اوديسا التي كانت الجهاز الرئيسي لتنظيم موجة الهجرة الاولى وقدمت المساعدات المالية للمهاجرين وساهمت في شراء الاراضي ، كما انشىء مكتب في يافا للاشراف على عمليات الشراء والهجرة والاستيطان . ولما تزايدت المضاربات باسعار الاراضي ، فرضت السلطات التركية بعد احتجاج عرب فلسطين حظر الهجرة اليهودية من جديد فجرى اغلاق المكتب التنفيذي في يافا ، وأصبح النشاط العملي بعد ذلك محصورا بتقديم المساعدات للمستوطنات والمدارس العبرية .

وبرزت ثلاث تيارات في حركة « احباء صهيون » : تيار يتزعمه ليلينبلوم جدد الدعوة لانشاء مستوطنات في فلسطين ، وتيار فكري روحي يتزعمه احاد هعام اصر على اسبقية العمل الثقافي بين اليهود في العالم . اما التيار الثالث وهو تيار الصهيونيين المتدينين فبقي على « حبه لصهيون » .

واوفدت حركة « احباء صهيون » مبعوثا الى فلسطين هو زئيف طيومكين في عام ١٨٩٠ وقد نشط في العمل خاصة في مجال شراء الاراضي وتنظيمه على أن تقوم بذلك اللجنة التنفيذية لاحباء صهيون في يافا . في حين يتكفل المستوطنون بسائر الامور الاخرى بمبادرتهم الخاصة .

وقد اقيمت في نفس العام وفق هذا الاسلوب الاستيطاني الجديد ثلاث مستوطنات يهودية كبيرة في فلسطين اولها رحوفوت الى الجنوب من يافا التي انشأتها شركة « منوحافينحلا » المنبثقة عن « احباء صهيون » في وارسو ، وقد حصلت رحوفوت على مساعدة كبيرة وقروض مريحة من البارون روتشيلد وموظفيه ، بطريق مباشر ام غير مباشر . اما المستوطنة الثانية فهي مستوطنة الخضيرة التي تقع في منتصف الطريق بين يافا وحيفا والتي اسسها « احباء

صهيون » ، الذين قاموا ايضا بمساعدة المستوطنة الثالثة التي اقامها بعض المستوطنين وهي مستوطنة مشمار هايردن .

ولم تكن رحوفوت والخضيرة سوى جزء صغير فقط من مشروعات زئيف طيومكين ومساعديه ، ولكن جهوده لم تثمر كثيرا لرفض المستوطنين التعاون معه وقرار حظر بيع الأراضي في فلسطين الذي اصدرته السلطات التركية في صيف ١٨٩١ .

وفي عام ١٨٩١ جاءت موجة هجرة جديدة الى فلسطين بسبب الاضطرابات التي حدثت في روسيا والتي وصلت الى ذروتها بطرد يهود موسكو في شتاء ١٨٩١ في الوقت الذي حصل فيه احباء صهيون على ترخيص لنشاطهم داخل حدود روسيا واضطرت حكومة تركيا بضغط القناصل الاجانب الى تخفيف قيود الهجرة الى فلسطين ، مما أدى الى ارتفاع اسعار الأراضي بشكل جنوني واضطرت السلطات التركية الى حظر بيع الاراضي ، وانتهى عام ١٨٩١ بأزمة اقتصادية وسياسية . ولكن اسلوب المساعي والتسلل الذي اتبعه البارون روتشيلد اتى ثماره في هذا الصدد . فقد اسس وكلاؤه في عام ١٨٩٦ مستوطنة المطلة في شمال فلسطين ، وفي نفس العام أسس احباء صهيون مستوطنة بئر طوبيا في جنوب فلسطين ، وقد واجهت كلتا المستوطنتين مشاكل شديدة بسبب النزاعات حول الاراضي مع الجيران . وفي نفس العام اسس بعض المستوطنين المتدينين مستوطنة صغيرة هي جان شموئيل تكريما للحاخام شموئيل موهيليفر وهو احد زعماء حركة « احباء صهيون » ومن اوائل الحاخامين الذين ساهموا في عقد المؤتمر الصهيوني الاول سنة ١٨٩٧ .

ولكن رغم هذا النشاط الاستيطاني لم تتحسن احوال المستوطنين اليهود في فلسطين كما أن السلطات التركية شددت الاجراءات لمنع دخول المهاجرين الى فلسطين ،كما بدأت في نفس الوقت موجة من النزوح من فلسطين بسبب تردي الاوضاع في المستوطنات .

وفي عام ١٨٩٧ عقد المؤتمر الصهيوني واقيمت المنظمة الصهيونية العالمية ولكن هذا لم يؤد الى تأثير يذكر على أوضاع المستوطنين اليهود في فلسطين . ذلك لأن المنظمة الصهيونية عارضت في البداية اي استيطان يتم بغير موافقة السلطات ، وكانت خطة هيرتسل ترمي الى الحصول على موافقة الدول الكبرى ـ وأولا وقبل كل شيء موافقة تركيا ـ على الاستيطان الصهيوني في فلسطين على أن تنشأ المؤسسات المالية التي تخدم الاستيطان عندما يحين الوقت .

وكان المؤتمر قد حدد اهداف الصهيونية في هذا الشأن في « برنامج بازل » على النحو التالي :

« تسعى الصهيونية الى اقامة وطن لليهود في ارض اسرائيل(*) [فلسطين] معترف به وفقا للقانون العام . . .

ولتحقيق هذا الهدف يتخذ المؤتمر الاجراءات التالية :

(أ) تطوير أرض اسرائيل بشكل منظم بواسطة توطينها باليهود والمزارعين والحرفيين والمهنيين .

(ب) تنظيم اليهود بأسرهم وتجميعهم ، بواسطة مشاريع مفيدة محلية وعامة ، بحسب قوانين كل بلد .

(جـ) تقوية الشعور القومي اليهودي والهوية القومية اليهودية .

(د) القيام باعمال تحضيرية للحصول على موافقة الحكومات ، حيث ينبغي الحصول عليها لتحقيق هدف الصهيونية .

وفي تلك الفترة ادى نظام الوصاية في مستوطنات البارون روتشيلد الى تعود معظم المستوطنين على حياة الاعانة وانتشر الكسل والخمول بينهم فيما انعكس بالتالي على تردي الاوضاع الاقتصادية والاجتماعية في المستوطنات ، هذا بالاضافة الى طبيعة المستوطنين الذين كانت تنقصهم الخبرة الزراعية وعدم تكيفهم مع البيئة المحيطة بهم . وعندما قام احاد هعام بزيارتين الى فلسطين عامي ١٨٩١ و١٨٩٣ ، كتب في نهاية كل منها مقالا بعنوان « الحقيقة من ارض اسرائيل » تحدث فيهما عن اوضاع المستوطنين وانتقد فيهما احباء صهيون والبارون روتشيلد وموظفيه وحملهم مسؤولية الأوضاع المتدهورة كما حذر احاد هعام من نظرة الاستعلاء والاحتقار السائد لدى المستوطنين تجاه السكان العرب ومؤكدا انهم يفهمون نوايا المستوطنين ولن يكون من السهل زحزحتهم من اماكنهم .

وقد حدثت فعلا مصادمات بين الفلاحين العرب والمستوطنين الصهيونيين بسبب الاراضي وكثيرا ما تطورت النزاعات بينهم الى مهاجمة الفلاحين للمستوطنات الصهيونية .

(*) « ارض اسرائيل » هو الاسم الذي يطلقه اليهود على فلسطين .

وقد استمرت هذه النزاعات حتى نهاية الهجرة الاولى وبعدها ايضا ـ كما عطلت هذه النزاعات لفترة طويلة تطور المستوطنات الجديدة خاصة مع ازدياد اعتماد هذه المستوطنات على العمال العرب ، سواء لخبرتهم الزراعية ام للاجور القليلة التي يتقاضونها .

وفي أوج هذا الجو من التفسخ والركود في المستوطنات الصهيونية قام البارون روتشيلد بزيارته الثالثة لفلسطين عام ۱۸۹۷ لاستيضاح اسباب فشل المستوطنات التي يشرف عليها وكلاؤه، ثم قرر في النهاية ان يعهد الى شركة «يكا» Jewish Colonization Association التي اسسها البارون هيرش ۱۸۹۱ في بريطانيا بغرض توطين يهود روسيا في الارجنتين ـ بالاشراف على مستوطناته في فلسطين عن طريق لجنة سداسية . ودفع لها مبلغ ٦٠٠ الف جنيه استرليني لاستكمال بناء المستوطنات . وفي ۱۹۰۱ سافر وفد يضم بعض ابناء المستوطنات وممثلين لاحباء صهيون الى باريس لحمل البارون روتشيلد على تعديل قراره وتسليم المستوطنات الى مستوطنيها ، ولكنه رفض ذلك قائلا : « توطين ارض اسرائيل [فلسطين] انا صنعته بمفردي . وليس لاي انسان سواء من الفلاحين او الشركات الحق في التدخل في شؤوني ، وابداء رأيه في صنع يدي » .

وفي عام ۱۹۰۰ انتقلت مستوطنات روتشيلد الى شركة الاستيطان اليهودي ، التي بدأت في اتباع اساليب استيطانية جديدة حيث عملت على نقل ملكية اراضي المستوطنات وادارتها الزراعية تدريجيا الى المستوطنين لكي يتولوا ادارة شؤونهم بأنفسهم .

وفي عام ۱۸۹۹ بدأت شركة الاستيطان اليهودي نشاطا استيطانيا على أسس جديدة فأنشأت في نفس العام مزرعة نموذجية على اراضي سجرة في الجليل ، واستمرت في المساهمة في اقامة المستوطنات. فقد انشأت في ۱۹۰۱ مستوطنة الشجرة ، ثم مسحا (كفار تابور) وملحميا ويفنئيل في ۱۹۰۲ وبيت جان ١٩٠٤ .

وكانت السنوات من ۱۹۰۰ ـ ١٩٠٤ سنوات أزمة وكآبة في اليشوف الجديد حيث كان يبدو للفلاحين انذاك ان نهاية آمالهم قد حلت بعد ان غربت شمس البارون.وأدى تأسيس المنظمة الصهيونية ونشاط هيرتسل السياسي الى زيادة مخاوف السلطات التركية التي شددت اجراءاتها لمنع دخول المهاجرين اليهود الى فلسطين وبشكل خاص في عام ۱۹۰۱ . فقد طبقت في تلك السنة نظام البطاقة الحمراء الذي كان يجبر المهاجر اليهودي بموجبه على تسليم جواز

سفره للسلطات التركية حال وصوله الى فلسطين ، واستبداله ببطاقة حمراء اللون ، يسمح لحاملها بالاقامة في البلد لمدة ثلاثة اشهر ولكن على الرغم من هذه الاجراءات ، استمر وصول المهاجرين اليهود الي فلسطين وهذا يعود الى السبل الملتوية التي كانوا يتبعونها وفساد الادارة وتفشي الرشوة في اوساط موظفيها وتدخل القناصل الاجانب بموجب نظام الامتيازات .

في تلك السنوات « بدأ العمال والشباب اليهود يتركون المستوطنات ويغادرون فلسطين ،وبدأت موجة من النزوح. وشجعت شركة الاستيطان اليهودي سفر العمال لاسباب مالية ودفعت لهم نفقات السفر » . وحاول مناحيم اوسيشكين وزملاؤه اعادة تنظيم اليشوف في عام ١٩٠٣ ولكن محاولتهم فشلت.وقد تفشت آنذاك ظاهرة اخرى وهي اتساع نظام الحلوكا في المدن المقدسة الى المستوطنات وأسست دوائر الحلوكا في القدس جمعية باسم «شومري توراه- حماة التوراة » من أجل انقاذ ابناء المستوطنات مما اسموه « بالفناء الديني » .

وعلى الرغم من هذا كانت الهجرة الاولى خطوة كبيرة في وضع أسس الاستيطان اليهودي في فلسطين في السنوات التالية . فقد اقيمت في خلال فترة الهجرة الاولى نحو ٢٢ مستوطنة ، هي خمس عشرة في الجليل ـ زخرون يعقوب ، بات شلومو ، شفيا الخضيرة ، روش بينا ، يسود هامعلاه ، مشمار هايردن ، محنايم ، عين زيتيم والمطلة ، الشجرة ، كفار تابور ، يفنئيل ، ملحميا وبيت جان . وسبع مستوطنات في اواسط فلسطين هي : ريشون لتسيون ، عكرون ، جديرا ، رحوفوت ، نيس تسيونا ، بئر طوفيا وهارطوف . بالاضافة الى مستوطنة بني يهودا في شرق الاردن .

وكان يسكن هذه المستوطنات في عام ١٩٠٠ ـ «٧٤٠ اسرة من الفلاحين ، بلغ تعداد افرادها بالاضافة الى اسر الموظفين العاملين فيها وبقية السكان نحو ٥٦٠٠ نسمة ، ثم ارتفع ليصل الى ٦٥٠٠ نسمة » في عام ١٩٠٥ . وينبغي ان نشير هنا الى أن التجربة الاستيطانية فشلت في خمس مستوطنات في تلك الفترة هي : بئر طوفيا ، شفيا مشمار هايردن جان شموئيل ومحنايم .

وفي نهاية ايام الهجرة الاولى كانت الاوضاع الاقتصادية والاجتماعية في المستوطنات سيئة ، ولم تعط السجلات لادارة البارون اية صورة واضحة عن الايرادات والمصروفات في تلك المستوطنات . كما أن المستوطنات كانت تعتمد في الغالب على فرع اقتصادي واحد

(الكروم او حقول المحاصيل) وكان هذا سببا لكثير من نقاط الضعف على هذا الصعيد . ذلك أن أية كارثة طبيعية او اقتصادية ، قد تدمر وضع سكان هذه المستوطنات. كما أن العمال كانوا يشتغلون في مواسم معينة ويظلون عاطلين بقية اشهر السنة . ولم يستطع العمال اليهود مواجهة هذه الظروف وتفوق عليهم في المقابل العامل العربي الذي كان يعتمد على اقتصادياته واقتصاديات اسرته في حين كان العمل بالاجز بالنسبة له مصدر رزق ثانوي. ولهذا السبب انتشر العمل العربي في المستوطنات ، هذا بالاضافة الى اعتمادها على القرية في الحصول على احتياجاتها من الخضروات . وكانت تربية المواشي والدواجن معدومة تقريبا .

ونستخلص من هذا ان الانجازات التي احرزتها التجربة الاستيطانية في فترة الهجرة الاولى لم تكن تتناسب مع حجم الاموال التي صرفت والجهود التي بذلها « احباء صهيون » وشركة الاستيطان اليهودي « يكا » .

وبالاضافة الى هذه المشاكل التي تعرضت لها الهجرة الاولى كان الوضع الثقافي والديني متدهورا للغاية ، فقد كان اليشوف القديم قبل وصول موجة الهجرة الاولى غارقا في مفاهيم العصور الوسطى ، بحيث كانت دقائق الواقع اليهودي التي افرزها جيتو اوروبا في فترة تفسخه تعتبر شيئا مقدسا . وكانت كلمة « مدرسة » تثير الخوف والكراهية ، واي تغيير طفيف في الملابس او شعر الرأس او ما شابه ذلك هو سبب كاف للاستنكار والمطاردة ، كما ان الاشخاص الذين تجرأوا على التحدث عن التعليم من أجل العمل مثل دوف بروكين رئيس تحرير صحيفة « حفصيليت» وموشيه يوئيل سلومون من مؤسسي بيتح تكفا وميخائيل بينس ، اعتبروا مارقين . وقد حدث صدام بين المحافظين ودعاة التجديد والسير مع روح العصر في ١٨٨٩ ، عندما طلب المتدينون في القدس من المستوطنات عدم فلاحة اراضيهم خلال الموسم الزراعي لسنة ٥٦٤٩ عبرية (١٨٨٩ ـ ١٨٩٠) التي كانت سنة تبوير وهي تحل مرة كل سبع سنوات وينبغي على اليهودي الملتزم بتعاليم الدين الامتناع خلالها عن زراعة ارضه او استغلال ثمارها الا بناء على فتوى يصدرها حاخامون معتمدون ، وهي ظروف قاهرة .

وتجددت الحرب بين المحافظين ودعاة التجديد في التسعينات ، بعد وصول آلاف من المهاجرين والذين ينتمي معظمهم الى تيارات تختلف تماما عن اليهود المتدينين سكان المدن الأربع المقدسة ، وقد جلبوا معهم عادات وانماط سلوك جديدة . ووصلت الامور الى حد جعل السلطات التركية تتدخل خشية تطور المسألة . وقد تمثلت كراهية رجال اليشوف القديم

لانصار التجديد في موقفهم من اليعيزر بن يهودا (١٨٥٧ ـ ١٩٢٢) وصحيفة « هاتسفي». فقد نشر مقالا لصهره في صحيفته دعا فيه الى احياء المضمون القومي لعيد الحنوكا ، مما اثار عليه نقمة اليشوف القديم وهاجمه حاخامو القدس ووشوا به لدى السلطات فقبض عليه هو وصهره واغلقت الصحيفة . وحكم عليهما بالسجن لمدة عام ثم اطلق سراحهما فيما بعد .

وفي أعقاب هذه القضية نشب نزاع شديد بين المتمسكين باسلوب الحياة التقليدي وبين الداعين الى حياة قومية علمانية وعلى رأسهم احاد هعام . وانتشر حتى وصل الى اوساط اليهود في خارج فلسطين ، الا انه تم في عام ١٨٩٧ التوقيع على ما يعتبر بمثابة هدنة بين الطرفين . واثبتت الحركة الداعية الى القومية والعلمانية انها الطرف الاقوى في هذا النزاع ومنذ ذلك الوقت اضفت طابعها على اليشوف الجديد دون أن تجد اية عراقيل او منافسين .

وقد نشأت في تلك السنوات المدرسة العبرية . وبدأت المرحلة الاولى على هذا الصعيد بتدريس العلوم الدينية واللغة العبرية ، على يد اليعيزر بن يهودا ودافيد يلين ونسيم بيخر في القدس عام ١٨٨٣ . ثم جاءت المرحلة الثانية وتتمثل في تدريس مواد عامة (الحساب) الجغرافيا الطبيعية وغيرها ، باللغة العبرية في المستوطنات (١٨٨٩ ـ ١٨٩٢) .

وقام اليعيزر بن يهودا بدور كبير في احياء اللغة العبرية التي كانت لغة ميتة لدى اليهود انفسهم ، وتحديثها لكي تتلاءم مع الاستعمال اليومي ومتطلبات العصر. وعكف على وضع قاموس شامل للغة العبرية وقضى معظم سني حياته في وضع قاموسه ، وقد صدرت عن هذا القاموس خمسة مجلدات قبل وفاة بن يهودا بينما استمر العمل فيه بعد ذلك واستكمل عام ١٩٥٩ وصدر في سبعة عشر مجلدا.

كما أسس عام ١٨٨٩ جمعية اللغة العبرية لتطوير اللغة وتحديثها ، وهي الجمعية التي تحولت في عام ١٩٥٣ الى اكاديمية اللغة العبرية . وقد ادت جهود اليعيزر بن يهودا في هذا المجال الى أن اللغة العبرية قد تغلبت شيئا فشيئا على اللغة الفرنسية في المدارس رغم معارضة موظفي البارون روتشيلد ، وأسست في ١٨٩٤ اول روضة اطفال في ريشون ليتسيون ثم تطورت الامور بعد ذلك في هذا الاتجاه ، وبذلك وضعت الهجرة الاولى الاساس للمدرسة العبرية، مع ان بن يهودا « لم ينجح في المقابل في جعل اللغة العبرية هي لغة الحديث في اليشوف » . وكانت اللغة الدارجة لدى العامة هي البيدش او اللادينو مختلطة بكلمات

عربية ، أما المثقفون فكانوا يتحدثون بالروسية او الفرنسية » . وقد تأسس عام ١٩٠٣ « اتحاد المدرسين العبريين » .

وبقي ان نشير هنا قبل ان ننتقل من الهجرة الاولى الى الهجرة الثانية ، الى ما سمي في تلك الفترة بالحكم الذاتي في المستوطنات ، حيث كان يقوم الفلاحون في اجتماع عام بانتخاب لجنة المستوطنة . وتتولى هذه بدورها كل الشؤون العامة في المستوطنة من تعليم الاطفال ومساعدة المرضى وتوفير المتطلبات الدينية (قصاب وحاخام ومعبد) وحراسة المستوطنة واجراء المفاوضات مع السلطات ومع الشركات المختلفة التي كان في يدها مصير المستوطنة ، والتحكيم بين السكان وفرض الغرامات . وكانت تشوب هذا الاسلوب عيوب حيث أن حق الانتخاب كان مقصورا على الفلاحين ملاك الارض ،دون غيرهم ،وعدم وجود قوانين ثابتة ، ولم يخرج كل هذا عن كونه تنظيما محليا ، بينما راحت « مطرقة الهجرة الثانية تدق سندان الهجرة الاولى » ، مؤذنة بوضع ما سمي بمشروع الامن العبري .

ونخلص الى القول بأن التجربة الاستيطانية في فترة الهجرة الاولى لم تكن بحجم التوقعات التي علقت عليها ، ذلك ان كل الجهد الذي بذل « الغاه اولئك الذين قاموا به انفسهم ، وتبددت الامال وأصبحت الفكرة في عالم النسيان ونشأ نموذج من الاشخاص يشعرون بخيبة الامل وينتقمون بعد ذلك من انفسهم ، وفي النهاية نظروا الى موضوع الاستيطان في اوغندا على انه الحل لوضعهم »فالنشاط الاستيطاني الذي تجسد في هذه التجربة والذي بدأه « أحباء صهيون » وأكمله البارون روتشيلد وشركة الاستيطان اليهودي « يكا » لم يحقق انجازات تتلاءم مع حجم النفقات المالية والجهود التي بذلت في سبيلها . ويتضح من تقرير اعده احاد هعام الذي كان قد ارسل سنة ١٩٠٠ ، من قبل اللجنة التنفيذية لاحباء صهيون في روسيا ، للتحقيق في اوضاع المستوطنات اليهودية في فلسطين ، ان نظام الوصاية الذي اتبعه « أحباء صهيون » وروتشيلد في ادارة تلك المستوطنات كان السبب المباشر في تدهور اوضاعها ، هذا بالاضافة الى المشاكل التي واجهت المستوطنين وأهمها مشكلة التكيف مع البيئة الجديدة التي انتقلوا اليها واقامة علاقات مع السكان العرب في فلسطين .

الفصل الثالث

الهجرة الثانية (١٩٠٤-١٩١٤)

هناك معنيان لمصطلح « الهجرة الثانية » . . . اولها كرونولوجي زمني - أي فترة السنوات التي تعود بدايتها الى مطلع عام ١٩٠٤ ، حيث بدأ تيار جديد من المهاجرين يغادر روسيا على أثر اضطهاد السلطات القيصرية لليهود ، ونهايتها في صيف عام ١٩١٤ عندما نشبت الحرب العالمية الاولى واوقفت هذه الهجرة وهي في اوجها . أما المعنى الثاني فهو معنى فكري ، حيث كانت تمثل تيارا من الشباب هاجروا مع سائر المهاجرين آنذاك وهم يحملون آراء قومية واجتماعية جديدة . ذلك ان اكثرية رجال الهجرة الثانية قدموا من حدود القيصرة الروسية من اوكرانيا ، بولندا ، ليطا ، من صربيا ومن القوقاز ، وانضم اليهم قليلون من جاليتسيا . وكان كثيرون منهم ينتمون الى الهسكلاه ، والى اتحادات صهيونية ، واتحادات « بوعالي تسيون - عمال صهيون » ، وينتمون من الناحية الاجتماعية الى الطبقة الوسطى او طبقة محدودي الدخل ، الذين شهدوا الاضطرابات التي وقعت في روسيا من عام ١٩٠٣ (كيشينيف) وحتى عام ١٩٠٥ بعد قيام الثورة هناك .

وتبرز الاهمية المتزايدة لهذه العناصر عندما نقارنها بخطوط التطور في فترة الهجرة الثانية ، والتي كانت واحدة من أكبر المراحل الحاسمة في تاريخ اليشوف اليهودي في فلسطين . فقد قام رجال الهجرة الثانية بدور من الدرجة الاولى في الزعامات المختلفة ، خصوصا الزعامة السياسية طوال فترة اليشوف ، وحتى المراحل الاولى للدولة اسرائيل بعد قيامها ، وهو دور يتعدى أي تناسب مع عددهم النسبي او الكلي . وأصبحت الايديولوجية التي شكلوها وصاغوها المنطلق في اجراء تغيير جذري في اليشوف من ناحية بنيته الاجتماعية ومؤسساته . ولم يكن تأثير الهجرة الثانية يعزى بالطبع الى كثرتها العددية .

وقد يكون من «قبيل التضليل الافتراض بأن رجال الهجرة الثانية كان في استطاعتهم ان

ينجزوا وحدهم شيئا مختلفا ، في جوهره ، عما انجزته الهجرة الاولى في الظروف التي كانت تسود آنذاك تحت الحكم العثماني . الا ان اهمية الهجرة الثانية تكمن ، اولا وقبل كل شيء ، في حقيقة ان افرادها تمكنوا ، بالاشتراك مع المنظمة الصهيونية والزعامات الصهيونية ، من استغلال الفرص التي أتيحت لهم لكي يطوروا الوقائع الاجتماعية والسياسية الجديدة».

لم يجابه ابناء الهجرة الثانية صعوبات تذكر في دخولهم الى فلسطين ، ذلك أن تفشي الرشوة في اوساط موظفي الادارة العثمانية في فلسطين ، واتصالات هيرتسل مع حكام تركيا ، قد أديا الى تخفيف القيود والاجراءات التي فرضتها السلطات التركية على هجرة اليهود الى فلسطين ، والتي كان آخرها ، في تلك الفترة نظام « البطاقة الحمراء » التي كانت تمنح للمهاجر لدى دخوله بعد سحب جواز سفره ، وقد الغي هذا النظام قبل نشوب الحرب العالمية بنحو عام تقريبا ، وأصبحت الهجرة حرة . وقد ادت هذه الاسباب مجتمعة ، بالاضافة الى اضطهاد اليهود في روسيا ، الى زيادة تيار الهجرة .

تتفاوت التقديرات بالنسبة الى عدد الذين دخلوا الى فلسطين ضمن موجة الهجرة الثانية ، خلال السنوات ١٩٠٤ ـ ١٩١٤ . فهناك تقديرات مبالغ فيها تشير الى رقم يتراوح بين ٤٠ ـ ٥٠ ألف مهاجر ، وهناك تقديرات منخفضة تتراوح ما بين ١٥ ـ ١٧ الف مهاجر.غير أن القاسم المشترك بين كل هذه التقديرات هو عدم وجود اساس احصائي موثوق به . ففي أيام الحكم التركي لم تجر متابعة لعدد من دخلوا فلسطين ومن غادروها . وقد بدأ التسجيل في الواقع مع الانتداب البريطاني على فلسطين . أما الرأي السائد ، والذي يستند الى احصاء اليشوف مع نشوب الحرب العالمية الاولى ، والذي قدر بـ ٨٥ ألف نسمة ، فيميل الى افتراض ان عدد المهاجرين كان يتراوح ما بين ٣٠ ـ ٤٠ الفا غير أن ما يهمنا هنا هو معرفة من الذين بقوا من موجة الهجرة الثانية في فلسطين لنرى مدى تأثيرها والدور الذي لعبه من بقي من افراد هذه الهجرة في اقامة التنظيمات والمؤسسات التي أصبحت نواة للمؤسسات التي قامت على الاسس نفسها ، وتطورت على مر السنوات ، ولعبت دورا رئيسيا في وضع الاطر التنظيمية للكيان الصهيوني في فلسطين ، ومن ثم في اقامة دولة اسرائيل .

وبالمقدار نفسه هناك روايات متناقضة عن عدد من نزحوا من فلسطين من افراد موجة الهجرة الثانية .

فهناك من يقول بأن نسبة النزوح بين افرادها وصلت الى ٩٠٪ ، وان الذين بقوا من

المهاجرين واستقروا في فلسطين ١٠٪ فقط ، وقد قال دافيد بن جوريون ، في عام ١٩٢٩ ، انه « بقي في فلسطين من هؤلاء المهاجرين في عام ١٩١٨ نحو ١٠٪ فقط » بيد أن تسفى ليفنا يقول : « بحسب تقديري لا يقل عدد من بقي من رجال الهجرة الثانية ، واستقروا في فلسطين ، عن الثلث ، وربما ٤٠٪ ايضا وهناك مبررات منطقية لذلك . . فلو كان صحيحا الافتراض القائل بأن ١٠٪ فقط هم الذين استقروا في فلسطين مقابل نزوح ٩٠٪ ، لكان معنى ذلك ان الذين هاجروا الى فلسطين طبقا لهذا الحساب ، في تلك السنوات ، نحو ٧٠ الف شخص ، او ستمائة شخص شهريا . ذلك ان اجمالي الذين هاجروا ، في فترة الهجرة الثانية ، يتراوح ما بين ١٧,٠٠٠ ـ ١٧,٥٠٠ مهاجر».

غير أن معظم المصادر يتفق على أن عدد الذين هاجروا الى فلسطين ، ضمن موجة الهجرة الثانية ، يتراوح ما بين ٣٠ ـ ٤٠ الف مهاجر . وعليه فانه من المرجح ان نسبة من بقوا تقدر بنحو ١٠٪ ، اي نحو ٣٥٠٠ مهاجر . ويدعم هذا التعداد القطري الذي أجرى عام ١٩٦٧ للاشخاص الباقين من رجال الهجرة الثانية ، حيث اشارت نتائج التعداد ، التي استندت الى سجلات مكاتب ضريبة الهستدروت ، وسجلات مختلفة ، وجمع معلومات شفوية اشارت الى أن ٣٥٠٠ مهاجر ، بقوا في فلسطين . وينبغي ان يضاف الى هذا الرقم نحو ١٥٠٠ ـ ٢٠٠٠ شخص من مهاجري اليمن ، وبذلك وصل عدد المهاجرين الذين بقوا الى أكثر من خمسة آلاف ، وفق ما تشير اليه نتائج التعداد من أن نسبة النزوح كانت تتراوح ما بين ٦٠ الى ٨٠٪ .

وتعود هذه النسبة الكبيرة من النزوح الى الظروف الصعبة التي واجهت المهاجرين في تلك الفترة ، حيث جاءوا على أثر أزمة اقتصادية كانت تعاني منها أيضا المستوطنات التي أقيمت في خلال فترة الهجرة الاولى ، بالاضافة الى الضائقة التي كان يعيشها العمال الزراعيون في المستوطنات ، والحرفيون في المدينة ، كما ان قسما من المستوطنين مال الى الاتجاهات التي كانت تدعو الى الاستيطان فى اوغندا آنذاك ، بسبب عدم ثقتهم في مستقبل عيشهم في فلسطين ، مما دفعهم الى إرسال ابنائهم الى دول ما وراء البحار .

على أن هناك اسبابا اخرى للنزوح في اوساط افراد الهجرة الثانية ، من بينها :

(أ) كثيرون من المهاجرين في تلك الفترة ممن لم يكن لديهم وعي صهيوني ، ولا يكنون

اية عاطفة لفلسطين . ومن بينهم هاربون من الجيش الروسي ، او من الشرطة القيصرية ، لاتهامهم بالاشتراك في ثورات ، وكان من بينهم مغامرون .

(ب) اصابة بعض المهاجرين بالامراض والحمى التي انهكت قواهم مما جعلهم عاجزين عن الاستمرار في العمل ، ولم تكن هناك مؤسسات للمساعدة الاجتماعية مما دفعهم الى النزوح .

(جـ) كانت تسود بين رجال الهجرة الثانية كل عام حركة زيارات لاسرهم في البلدان التي قدموا منها . وعند نشوب الحرب العالمية الاولى سنة ١٩١٤ حالت الحرب دون عودة بعض المهاجرين الى فلسطين .

ولم يكن مصير الهجرة اليمنية ، وفصلها عن موجة الهجرة الثانية التي ما جاءت الا لتدعيمها وسعيا الى تنفيذ الشعارات التي رفعتها لاحتلال الارض والعمل والحراسة ، لم يكن مصيرها افضل من مصير الهجرة الاوروبية ، وبلغ عدد المهاجرين الذين قدموا او بعبارة ادق تم استقدامهم من اليمن نحو ١٥٠٠ ـ ٢٠٠٠ مهاجر وقد انهكهم السفر وأصابتهم العديد من الأمراض ، وعاشوا في ظروف متناهية في قسوتها وهم ينتقلون بين المستوطنات والمدن وجأروا بالشكوى من النظر اليهم كغرباء ـ وهي التفرقة التي لا يزال يعاني منها اليهود الشرقيين في المجتمع الاسرائيلي ـ كما أن المستوطنين كانوا يدفعون لهم اجورا متدنية .

وينبغي ان نشير الى أن الهجرة الثانية كانت تضم خليطا من المهاجرين ، من بينهم متدينون انضموا الى اليشوف القديم في المدن المقدسة ، خصوصا القدس ، ورجال الطبقة المتوسطة الذين استقروا في يافا ، حيفا والقدس ، والمسنين الذين ارداوا قضاء بقية ايامهم في الأراضي المقدسة وان يدفنوا فيها . هذا طبعا الى جانب مهاجري شرقي اوروبا واليمن وجماعات اخرى من الدول الاسلامية ووسط اوروبا .

ومع أن المهاجرين لم يواجهوا صعوبات كثيرة في الدخول الى فلسطين ، لكنهم واجهوا صعوبات تتمثل في التكيف مع الواقع الجديد والبيئة المحيطة بهم ، خصوصا وان الأوضاع الاقتصادية والاجتماعية في المستوطنات التي اقامتها الهجرة الاولى ، كانت سيئة بعد سحب البارون روتشيلد لوصايته على تلك المستوطنات في مطلع ١٩٠٠ . كما أن اليشوف القديم ، اي اليهود الذين كانوا في فلسطين قبل الهجرة الاولى ويعيشون على الحلوكا لم يكن من الممكن

ان يستوعبوا هؤلاء القادمين الجدد الذين يحملون افكاراً وأيديولوجيات غريبة عليهم ، مما ادى الى صدامات يومية تقريبا بين المهاجرين الجدد وبين المستوطنين القدامى الذين كانوا يعتبرونهم عنصرا غريبا وخطيرا ، وضيوفا غير مرغوب فيهم مما دفعهم الى العزلة والابتعاد عن المستوطنين القدامى .

أ ـ الاصول الاجتماعية والاتجاهات العقائدية لجماعات الهجرة الثانية

كانت أكثرية افراد الهجرة الثانية ، الذين قدموا من شرقي اوروبا ، كما أسلفنا ، من الشباب ابناء الطبقة الوسطى ، او من طبقة محدودي الدخل . وقد تأثرت الهجرة الثانية بعدة عوامل منها : . . احداث سنة ١٩٠٥ في روسيا والاضطرابات والمذابح ضد اليهود ، وخيبة أمل قسم من الشباب اليهودي فيما يتعلق بامكانات حل مشكلة اليهود في المهجر . وتعزى خيبة الأمل الى الاعتقاد بأنه حتى الحركات الثورية لم تضع حدا لمعاداة السامية أو وجودها ، بل انها سلمت ، في احيان كثيرة ، بهذه المظاهر في الواقع وان لم تشجع علانية مثل هذه التوجهات . وكان كثيرون من هؤلاء المهاجرين اعضاء في جماعات ثورية روسية ، وتأثروا بالافكار الراديكالية والاشتراكية التي كانت مألوفة في اوساط المنظمات السياسية المختلفة في روسيا في تلك الفترة . ولا تتوفر معلومات كثيرة عن نوعيات الاشخاص الذين قدموا ضمن الهجرة الاولى والهجرة الثانية .

لقد قدم هؤلاء المهاجرون الصهيونيون ، الشبان المتحمسون من رجال الهجرة الثانية ، والذين أطلق عليهم اسم الطلائع « حالوتسيم » قدموا الى فلسطين « ارض اسرائيل » بهدف ان يصبحوا عمالا زراعيين في المستوطنات العبرية . فقد تركوا حياتهم المريحة لدى اسرهم البورجوازية لكي يحصلوا على مصدر رزقهم من عمل ايديهم . وكان هذا التحول بالنسبة اليهم تحقيقا شخصيا للفكرة الصهيونية ، وافترضوا ان الفلاحين اليهود من رجال الهجرة الاولى سيستخدمونهم للعمل اجراء في مزارعهم . وهنا منوا بخيبة امل شديدة . فلقد رفض الفلاحون تشغيلهم ، وذلك بسبب رخص اجور العمال العرب وكون خبرتهم الزراعية افضل من غيرهم ، ناهيك الحديث عن انعدام خبرة المهاجرين الجدد ، وعدم اكتفائهم بالأجور الزهيدة التي كانت تدفع للعمال العرب ، مما ادى ، كما اسلفنا ، الى الصدامات بين

المهاجرين الجدد والمستوطنين القدامى .

ولا يمكن بطبيعة الحال ، مقارنة طلائع الهجرة الثانية بالمستوطنين القدامى « من حيث القوة التنظيمية ولا من حيث المعرفة وسعة الحيلة » . وان كان اللقاء بين رجال الهجرة الاولى والهجرة الثانية هو الذي حدد مصير الثانية ، من ناحية ان العمال الذين جاءوا في اطار الهجرة الثانية «ذوو ايديولوجية وافكار صهيونية اشتراكية»، وان كان من الخطأ الاعتقاد بأن الهجرة الثانية جاءت ومعها ايديولوجية جاهزة ومتفق عليها او انها كانت على علم بما يجب عليها عمله كما يتصور البعض . فلقد «كانت سنوات الهجرة الثانية مليئة بعمليات فشل لا تنقطع» .

كما أن محاولات « طلائع » الهجرة الهجرة الثانية لايجاد الحلول التنظيمية للمشاكل العملية ، كانت على الأغلب تجري وفق اوضاعهم العقائدية والى حد ضئيل ، نتيجة المشاكل اليومية الفعلية ومشاكل التكيف مع البيئة القائمة . ذلك انهم تخطوا المتطلبات الفعلية وسعوا الى التوصل الى جذور المشاكل الأوسع للنمط الكيبوتسي ، الذي اعتبروا انفسهم طلائعه .

وما كانت هذه الواجبات ، التي اخذتها هذه الجماعات على عاتقها ، وهي ايجاد الظروف الملائمة لممارسة العمل الزراعي ، او تأسيس منظمة « هاشومير » ، أو ادخال أوجه نشاط التعاون المتبادل المختلفة ، ما كانت لتقدم أي مفهوم عملي . اذ أنه كان بالامكان في الظروف التي كانت قائمة آنذاك ، حل المشاكل الصعبة بايجاد اسلوب للتعايش بسلام مع المستوطنين القدامى ، أو مع جماعات المنظمة الصهيونية المختلفة . وقد كان لهذا السلوك العقائدي الذي اكتنف حتى اتفه واجباتهم الحقيقية ، مغزاه اذا ما فهم على مستوى المشكلات الاكبر . ولعل هذا يفسر ايضا المناقشات الحامية التي حدثت بين الفئات المختلفة التي تكونت

(*) ظهر الصهيونيون الاشتراكيون الذين تنسب اليهم الصهيونية الاشتراكية في المؤتمر الصهيوني الثاني (١٨٩٨) وهم ينتمون الى أول حزب اشتراكي يهودي هو « البوند » الاتحاد العام للعمال اليهود في روسيا وبولونيا ولتوانيا فقد ادى الصراع بين الصهيونيين الاشتراكيين الى ضرورة ايجاد حل وسط بين التيارين وبعدها ظهرت ما سمي « الصهيونية الاشتراكية » وكان من ابرز الصهيونيين الاشتراكيين نحمان سيركين (١٨٦٨ - ١٩٢٤ (الذي نشر سنة ١٨٩٨ كتابا بعنوان « المسألة اليهودية دولة اليهود الاشتراكية » وقد استخدم مصطلح « الصهيونية الاشتراكية » لأول مرة في المؤتمر الصهيوني الثالث (بازل ١٨٩٩) وقد اضطر هيرتسل الى استنكار هذا ، موضحا انه لا يريد ان يفهم أحد خطأ ان هناك تماثلا بين الصهيونية والاشتراكية .

منها الهجرة الثانية ، خصوصا ، « هابوعيل هاتسعير - العامل الفتى » و « بوعـالي تسيون - عمال صهيون » وبين هذه الفئات ، وبين الرسميين الصهيونيين والمستوطنين القدامى .

وينبغي أن نعتبر هذه بمثابة خلافات اساسية بشأن الحل النهائي للمشكلات الاجتماعية والثقافية الجوهرية للمجتمع في المستقبل ، ولا يجوز اعتبارها بمثابة حلول للمشكلات الصعبة للجماعات الموجودة فعلا .

وهذا يدفعنا الى التساؤل في أية حال جاء رجال الهجرة الثانية الى فلسطين ؟ وقد نجد جوابا على هذا التساؤل في مذكرات بار ل كتسنلسون حيث يقول « ان الحركة الصهيونية كانت تقف آنذاك على شفير الهاوية ، ذلك ان ما كان يحلم به هيرتسل في تلك الفترة هو التخلي عن أي عمل استيطاني ، وعدم الثقة في ان هناك ثمرة لهذا العمل . وقد وصل هذا الحلـم الى حائط أصم ، وتلاشى الضوء ، وتملك اليأس القلوب » .

وفي فلسطين كانت سنوات بداية الهجرة من ١٩٠٤ - ١٩٠٦ ، سنوات كآبة.ولم تكن الهجرة الثانية منظمة ومعترفا بها من قبل مؤسسات الحركة الصهيونية ، وان كانت قد جرت محاولات لتأسيس « حركة طلائعية واسعة » ، أو ما اطلق عليه « البيلوييم الجدد » . وأحياناً كان المهاجرون يصلون في جماعات صغيرة كمجوعة يوسف طرومبيلدور. وكان مناحيم اوسيشكين (١٨٦٣ - ١٩٤١) أحد الزعماء الصهيونيين البارزين والذي قدم خدمات كبيرة للاستيطان الصهيوني في فلسطين ، بعد انتخابه رئيسـا لمجلس ادارة « الكيرن كاييمـت » خلال فترة الانتداب البريطاني ، من انشط دعاة الهجرة الثانية . فقـد « اقتـرح في كراسته « برنامجنا » التي نشرها باللغة الروسية في عام ١٩٠٤ ، والتي كان لها تأثير كبير على قطاع من الشباب اليهودي والصهيوني في روسيا ، تأسيس اتحاد عام للعمال اليهـود من الشبـان غـير المتزوجين سليمي البنية والروح ، ويجب على كل عضو في الاتحاد ان يهاجر الى فلسطين لمدة ثلاث سنوات »

غير « أن القاسم المشترك بين افراد الهجرة هو خيبة الأمل التي مني بها كل شخص في حياته العامة والخاصة ، خيبة الأمل من الثورة الروسية التي فشلت ، ومن الحركة الصهيونية السياسية التي اسسها هيرتسل والتي وعدت بحلول ووصلت حتـى مشروع الاستيطـان في اوغندا » .

وكان أفراد الهجرة الثانية يحملون معهم « فكرة العمل الذاتي » ، ومما قوى هذه الفكرة الظروف التي جابهتهم بعد وصولهم الى فلسطين ، وقد تحدث يتسحاق بن تسفي (١٨٨٤ - ١٩٦٣) عن فكرة العمل الذاتي والخلاص فقال « ان لهذا معانـي . . أولا ، عدم تأسيس مستقبلنا على الحركة الاشتراكية الثورية العامة فقط ، بل على انفسنا اولا وعلى تنظيم العامل اليهودي والشعب اليهودي ، ثانيا عدم بناء تحريرنا القومي على الحركة الصهيونية العامة فقط ، بل على انفسنا اولا ، على قوة الطبقة العاملة العبرية في البلد (فلسطين) وفي العالم . ثالثا عدم ربط تطوير « أرض اسرائيل » (فلسطين) بالاخرين بل بأنفسنا اولا ، بقوى الشعب اليهودي واليشوف ـ ولعل هذا هو أكبر تجديد جاءت به الهجرة الثانية » .

ويمكن أن نوجز أهداف رجال الهجرة الثانية في ثلاثة أمـور : (. . . أرض عبرية ، عمل عبري ، ولغة عبرية » . ويقودنا هذا بالضرورة الى ما افرزه امتزاج الصفات العقائدية والعملية وما اصطلح على تسميته بالرواد او الطلائع(*) في تلك الفترة .

وقـد أطلـق المؤرخـون الصهاينـة هذه التسـمية الرائـد « هاحالـوتس » على تيار من المهاجرين ، افترضوا ان الرائد هو شخص تتجسد فيه مجموعة من العوامل المشتركة اولها عنصر التضحية بالذات، فهو على اهبة الاستعداد لان يحرم نفسه ويعيش حياة الناسك الزاهد، وليس هذا الحرمان من أجل الحرمان نفسه، ولو أنه كثيرا ما يصبح التقشف عنصرا ثانويا قويا ، وانما من أجل مباشرة واجب مهم للجماعة ، ومن ثم كان عدم اهتمام الرائد بالجزاء الفوري المبـاشر، سواء أكان ذلك الجزاء منصبا أو أجرا أو تعويضا ماديا أو سلطة سياسية .

ويتمثل العنصر الثاني المهم في شخصية « الرائـد » ، في الاهتمام الشـديد بالأعمال الزراعية ـ او العمل اليدوي بصفة عامة ـ وفي عدم استغلال الأخرين . ويمكن النظر الى ذلك باعتباره امرا جوهريا ، وخصوصا في فلسفة اهرون دافيد جوردون ، في خلق انسان جديد ، عن طريق العمل الجسماني ، لذا كان التأكيد على الاعتماد على النفس ، والاعتماد عليها فقط ، أو باختصار تحقيق الاستقلال عن الحماية الخارجية .

وثالث العناصر هو احياء اللغة العبرية والثقافة العبرية . ويرتبط بهذا ارتباطا وثيقا ، التركيز على المساهمة الفعالة في أوجه النشاطات الاجتماعية السياسية وفي حياة المجتمع،اذ كان هذا المزيج من العناصر المختلفة هو الذي هيأ الجوانب الديناميكية لصورة « الرائد » . ومع

(*) حالوتسيم جمع حالوتس : وهي تعني الرائد او الشخص الذي يسير في المقدمة وكانت تطلق قبل قيام اسرائيل على الشاب الذي هاجر الى فلسطين لتحقيق هدفه الصهيوني وممارسة العمل اليدوي فيها .

هذا كانت هناك احتمالات متعارضة وغريزية في التأكيد الشديد على صفوة مختارة من جهة ، وفي اعتبار اية جماعة من الرواد وكأنها تمثل القيم الرائدة حتما من جهة اخرى . وكان التوتر البادي بين الاوضاع المختلفة خليقا بأن يصبح شديدا « حالما يصبح البناء الاجتماعي الذي ساعدت تلك الاوضاع على خلقه ، اكثر تميزا ، وحالما يصبح الكفاح من أجل السلطة أمرا لا مفر منه . وعلى اية حال لم يقدر لأي من هذه التوترات أن تتطور بكيفية كاملة خلال فترة الهجرة الثانية ».

ب - التطورات التنظيمية (الأحزاب) إبان الهجرة الثانية

أدت الظروف غير المشجعة ، التي واجهها المهاجرون الجدد لدى وصولهم الى فلسطين ، وعزلتهم الاجتماعية من خلال رفض المستوطنين القدامى تشغيلهم في المستوطنات ، بسبب تصرفاتهم وعقائدهم ، خصوصا وان معظم المستوطنين القدامى كانوا من المتدينين المحافظين ، أدت إلى دفع هؤلاء المهاجرين الى محاولة الأعتماد على انفسهم لتأمين وجودهم وتمكنهم من مواجهة الواقع الجديد ، والى محاولة خلق قوالب اجتماعية جديدة ومستقلة . وقد اتجه تفكيرهم اول ما اتجه الى الأحزاب السياسية في ضوء تجربتهم في العمل الحزبي في روسيا .

ففي ايلول (سبتمبر) ١٩٠٥ عقد نحو ٤٠ عاملا من المهاجرين الجدد ، الذين كانوا يعملون في مستوطنة بيتح تكفا ، اجتماعا لتأسيس حزب لهم ، وسرعان ما توصلوا الى اتفاق على البرنامج الذي تضمن قرارا ينص على ضرورة « احتلال العمل » في المستوطنات ومساعدة المهاجرين الجدد . ولكن عندما وصلوا الى تحديد اسم الحزب الجديد اختلفت الآراء . فقد اقترح قسم من المجتمعين اسم « بوعالي تسيون - عمال صهيون» وهو اسم حزب العمال الصهيوني الاشتراكي في روسيا . ولم يوافق آخرون على هذا الاسم ، الذي كان مرتبطا باطار افكار معينة تطورت من خلال نقاش مع « البوند - الاتحاد العام للعمال اليهود في روسيا وبولونيا » وهي حركة العمال اليهودية المعادية للصهيونية ، ومع الاشتراكيين اليهود المندمجين في المجتمع الروسي ، كما رفضوا اسم « بوعالي تسيون » ايضا لان أكثرية اعضاء بوعالي تسيون في تلك الايام ، وعلى رأسهم زعيمهم نحمان سيركين (١٨٦٨ - ١٩٢٤) - الذي نشر عام ١٨٩٨ كتابا بعنوان « المسألة اليهودية ودولة اليهودية الاشتراكية » والذي كان فاتحة لما عرف

باسم « الصهيونية الاشتراكية » ـ انسحبوا من المؤتمر الصهيوني السابع وانتقلوا الى معسكر انصار « مشروع اوغندا » ، ثم عقدوا اجتماعا آخر في اكتوبر سنة ١٩٠٥ في يافا واسسوا حزب « هابوعيل هاتسعير » ، وكان اول حزب صهيوني يقيمه المهاجرون الجدد في فلسطين .

وعقد حزب هابوعيل هاتسعير مؤتمرا له في بيتح تكفا ، في اغسطس ١٩٠٦ وأقر الأسس السياسية التالية :

مبادىء عامة

١) يلعب احتلال المواقف الثقافية والاقتصادية في « ارض اسرائيل » [فلسطين] دورا حاسما في تحقيق الصهيونية .

٢) الشرط الضروري للاحتلال الاقتصادي هو تركيز الاملاك والعمل في ايدي اليهود .

٣) مهمة هابوعيل هاتسعير في « أرض اسرائيل » هي العمل على تحقيق الصهيونية عامة ، والاهتمام الخاص باحتلال العمل من قبل اليهود .

أما واجبات الحزب كما حددها فهي :

١) الدفاع عن العمال اليهود في « أرض اسرائيل » وزيادة عددهم وتحسين اوضاعهم الاقتصادية والثقافية .

٢) احتلال العمل من قبل العامل اليهودي وتنظيمه ودراسة ظروفه .

٣) مساعدة النشاط الاستيطاني الصهيوني .

٤) الاهتمام بالمؤسسات واهدافها .

٥) الاهتمام بسيطرة اللغة العبرية في ارض اسرائيل . ونادى الحزب بالبعث الروحي المبني على اللغة العبرية كلغة يومية ، وكلغة للخلق والابتكار في الميدان الثقافي .

وقد أصدر الحزب لهذا الغرض في عام ١٩٠٧ ، مجلة تحمل اسمه اهتمت بنشر الدراسات الأدبية ، وكان يحرر الباب الأدبي فيها لفترة من الوقت يوسف حاييم برنر

(١٨٨١ - ١٩٢١) وتولى رئاسة تحرير المجلة يوسف اهرونوفيتش .

ومن أبرز زعماء هابوعيل هاتسعير ، يوسف سبرينتساك (١٨٨٥ - ١٩٥٩) ، ويوسف اهرونوفيتش ، وناحوم طبرسكي .

وفي نوفمبر ١٩٠٥ قرر أعضاء حزب بوعالي تسيون الذين وصلوا من روسيا ، اقامة فرع للحزب في فلسطين واطلقوا عليه اسم « حزب العمال اليهود الاشتراكي الديمقراطي في أرض اسرائيل - بوعالي تسيون »،وهو اسم مطابق لاسم الحزب في روسيا . وأقر الحزب برنامجه ، الذي اطلق عليه اسم « برنامج الرملة » ، في مؤتمره الأول الذي عقد في يافا في يناير ١٩٠٧ وعرف الحزب نفسه في هذا البرنامج انه حزب يتطلع الى نظام حكم اشتراكي في العالم ، وان الطريق الوحيد الى تحقيق ذلك هو صراع الطبقات الذي تختلف صوره وأشكاله ، بحسب ظروف الزمان والمكان . أما هدفه او ما يتطلع اليه في فلسطين فهو « تحقيق استقلال سياسي للشعب اليهودي » في فلسطين . اما هدفه القريب فهو خلق ظروف عادية ملائمة للعامل العبري من الناحية الاجتماعية والسياسية في فلسطين.كما دعا الحزب ايضا الى تنظيم العمال اليهود في فلسطين في نقابات مهنية .

غير أن بعض زعماء بوعالي تسيون ، وعلى رأسهم دافيد جرين (بن جوريون) (١٨٨٦ - ١٩٧٣) ، ويتسحاق شمشيليفتش (بن تسفي) (١٨٨٤ - ١٩٦٣) طالبوا بتكييف برنامج الحزب مع الواقع في فلسطين ، وبالتالي التقرب الى حزب هابوعيل هاتسعير وان كان كلا الحزبين العماليين متقاربين في أساليب عملهما سواء في احتلال العمل ، او في تأكيد الاهداف القومية ، أو في تنمية الثقافة العبرية .

وقد أسفرت ضغوطهم عن اتخاذ الحزب خطوات في هذا الاتجاه ابرزها استبدال اليديش باللغة العبرية باعتبارها لغة قومية (بدأ بوعالي تسيون منذ ١٩١٠ يصدر مجلة باللغة العبرية تحمل اسم احدوت) ،والتحول من موقف يشجب الاستيطان العمالي الى آخر يطالب بالاستيطان العمالي ، ثم ضرورة الانتقال ، من نظرية صراع الطبقات الى الصراع من أجل العمل العبري . وبذلك اقترب حزب بوعالي تسيون كثيرا من مواقف حزب هابوعيل هاتسعير . وقد وضع هذان الحزبان العماليان ، من خلال جهودهما المشتركة ، أسس الانماط الجديدة في الاستيطان الزراعي في فلسطين ، وظهرت نواة النظم الذاتية التي تطورت بمرور السنوات وأصبحت المؤسسات المستقلة لليشوف .

وقد لعبت هذه الاحزاب ، بشكل عام ، دورا مهما في حياة اعضائها الاقتصادية والسياسية والتثقيفية ، سيما في الظروف التي جابهت المهاجرين الجدد لدى وصولهم الى فلسطين . كما لعب زعماء هذين الحزبين والمقربون اليهم من ابناء الهجرة الثانية ، مثل بارل كتسنلسون ، ودافيد بن جوريون ، ويتسحاق بن تسفي ، ويوسف اهرونوفيتش ، ويوسف شبرينتسيك وآخرون ، لعبوا دورا من الدرجة الأولى في قيادة اليشوف اليهودي في عهد الانتداب وبعد قيام دولة اسرائيل .

كما قامت الأحزاب إلى جانب المهاجرين الجدد ، بنشاط في مجال الاستيطان الزراعي ، من ناحية تنظيم العمال بعد أن جرت مناقشات بين بوعالي تسيون وهابوعيل هاتسعير حول مسألة وضع العمال في مشروع الاستيطان . فقد اعتقدت لجنة أوديسا ، التي كان يترأسها في ذلك الوقت مناحيم اوسيشكين ، انه لا يجوز أن يتطلع العمال الى استيطان خاص بهم ، ومن أجل تجميع العمال اليهود حول المستوطنات جرت محاولات لاقامة مستوطنات عمالية « موشافي عوفديم » من أجلهم .

وقد ايدت أكثرية هابوعيل هاتسعير هذا الموقف ، ولكن غالبية اعضاء بوعالي تسيون وغير الحزبيين ، حبذوا فكرة الاستيطان المستقل للعمال .ومن ضمن الخطوات التي اتخذت في مجال تنظيم العمال ، قيام بوعالي تسيون بتأسيس « صندوق عمال ارض اسرائيل - كوبات بوعالي ايرتس - يسرائيل » في سنة ١٩١٠ . وكان هدفه جمع الاموال من العمال اليهود في خارج فلسطين لتدعيم أوضاع العمال اليهود ومؤسساتهم في فلسطين . ثم انشىء أيضا في عام ١٩١٢ صندوق المرضى « كوبات حوليم » للضمان الصحي .

وأقام العمال ايضا منظمات عمالية صغيرة كمنظمة « هاحوريش - الحارث » التي اقيمت في مستوطنة سجرة في عام ١٩٠٧ . وفي عام ١٩١١ تأسس اتحاد عمال الجليل ثم « اتحاد العمال الزراعيين في يهودا » وقد كانت هذه الاتحادات والمنظمات نواة لانشاء الهستدروت في عام ١٩٢٠ .

ج - النشاط الاستيطاني والمستوطنات الجديدة

تركز اهتمام رجال الهجرة الثانية على اقامة مستوطنات جديدة ، بعد الظروف التي جابهتهم في فلسطين ، خصوصا نظرة المستوطنين القدامى اليهم ورفض تشغيلهم ، كما ان

« شركة الاستيطان اليهودي » التي استلمت مستوطنات البارون روتشيلد ، كانت تعمل لتدعيم المستوطنات القائمة بعد وصول موجة الهجرة الثانية ، ولم تنشىء سوى مستوطنة عتليت في ١٩٠٤ . واستمر هذا الوضع حتى عام ١٩٠٧ عندما بدأت المنظمة الصهيونية العالمية ، بموجب قرارات المؤتمر الصهيوني الثامن ، العمل في مجال الاستيطان في فلسطين ، بعد أن عارضت منذ انشائها ، بمبادرة تيودور هيرتسل سنة ١٨٩٧، الاستيطان الذي يتم عن طريق التسلل ضد رغبة السلطات التركية ، مفضلة الحصول على موافقة الدول الكبرى وموافقة تركيا اولا . وتعتبر قرارات المؤتمر الصهيوني الثامن في سنة ١٩٠٧ بداية فترة جديدة في الاستيطان الصهيوني وفي تطور اليشوف ، ذلك انها اعطت اشارة البدء للاستيطان « الفعلي » والصهيونية العملية مع تغلب الاتجاه العملي .

فقبل ان ينعقد المؤتمر ، أوفدت المنظمة الصهيونية العالمية الدكتور آرثر روبين (١٨٧٦ ـ ١٩٢٣) لدراسة اوضاع المستوطنات الصهيونية في فلسطين ، وقضى روبين خمسة أشهر هناك لبحث هذه الاوضاع وامكانات العمل في فلسطين . وفي نوفمبر سنة ١٩٠٧ قدم روبين تقريرا الى اللجنة التنفيذية الصهيونية ضمنه خطة مفصلة للعمل في المستقبل ، ووافقت اللجنة التنفيذية على جميع البنود الاساسية في هذه الخطة ، في جلستها المنعقدة في برلين في يناير سنة ١٩٠٨ ثم افتتحت المكتب الفلسطيني (١٩٠٨) في مدينة يافا ، كمؤسسة تنفيذية من قبل المنظمة الصهيونية العالمية في فلسطين ، وعين الدكتور آرثر روبين مديرا للمكتب وقد نجح روبين في تنمية العلاقات والتعاون بين رجال الهجرة الثانية والمنظمة . ثم انشئت بناء على اقتراح روبين ، مؤسسة خاصة لاعداد الاراضي والعاملين ، هي « شركة تطوير اليشوف ـحفرات هاخشرات هايشوف » ومهمتها مساعدة العمال اليهود على استيطان الارض ولكي يصبحوا عمالا زراعيين .

وقد بدأت مرحلة جديدة مع هذا التغيير في السياسة الاستيطانية للمنظمة الصهيونية ، في الوقت الذي كانت فيه شركة الاستيطان اليهودي والصندوق اليهودي و « الكيرن كاييمت » تواصلان شراء الاراضي في فلسطين بالاضافة الى جماعات خاصة ثم المنظمة الصهيونية . وقد اسفر هذا النشاط عن شراء مساحات كبيرة من الاراضي العربية في فلسطين ، بحيث ارتفعت مساحة الاراضي التي امتلكها الصهيونيون في فلسطين من ٢٢٠,٧٠٠ دونم سنة ١٩٠٠ الى ٤٢٠,٦٠٠ دونما سنة ١٩١٤ ، منها نحو ٢٤٢,٤٤٠ دونما اشترتها شركة الاستيطان اليهودي

وروتشيلد ، و١٥٨,٤١٨ دونما اشتراها افراد ومؤسسات خاصة ، و١٦,٧٢٠ اشتراها الكيرن كاييمت ، وكانت مساحة كبيرة من هذه الاراضي واقعة في شمالي شرق فلسطين . اذ كان الصهيونيون قد استطاعوا خلال السنوات ١٨٨٩ ـ ١٩٠٢ شراء نحو نصف اراضي قضاء طبريا .

وكانت المنظمة الصهيونية قد اسست في عام ١٩٠٣ « البنك الانجليزي الفلسطيني » الذي تطور لكي يصبح اهم بنك يهودي في فلسطين (وتغير هذا الاسم بعد اقامة اسرائيل الى بنك لئومي ليسرائيل) . كما أسست سنة ١٩٠١ أيضا « الصندوق القومي اليهودي- هاكيرين هاكيميت ليسرائيل » لاستملاك الأراضي في فلسطين ، والذي اقترح انشاءه البروفيسور هرمان شابيرا في سنة ١٨٩٧ ، وباشر نشاطه في فلسطين في عام ١٩٠٥ . وأصبح الكيرن كاييمت منذ ذلك الوقت الادارة الرئيسية للمنظمة الصهيونية لشراء الأراضي في فلسطين ، على أن تظل هذه الأراضي ملكا للشعب اليهودي وتؤجر للمستوطنين اليهود لمدة ٤٩ سنة (مراعاة لقوانين ملكية الاراضي التلمودية) قابلة للتجديد لمدة ٤٩ سنة اخرى ، على أن يلتزموا بتشغيل العمال اليهود فقط في تلك الأراضي .

وقد قام الكيرن كاييمت في الفترة من ١٩٠٥ ـ ١٩٠٧ بشراء اراض بن شيمن وحولدا في وسط فلسطين .

أما المستوطنات التي أقيمت في الفترة من ١٩٠٧ ـ ١٩١٤ فقد بلغت نحو ١٦ مستوطنة ، بالاضافة الى مستوطنة جان شموئيل التي اعيد استيطانها سنة ١٩١٣ ، تركزت في الجزء الشمالي الشرقي من فلسطين وفي وسطها ، منها ثلاث مستوطنات اقيمت سنة ١٩٠٧ . . بئر يعقوب ، بن شيمن، حولدا ، وثلاث في سنة ١٩٠٨ ، كنيرت (كيبوتساه) متسبية وعين جانيم ، وثلاث في سنة ١٩٠٩ دجانيا ، كنيرت (موشافاه) احوزات بايت (تل ابيب فيما بعد) ، وواحدة سنة ١٩١٠ مجدال ، وثلاث سنة ١٩١١ كفار ميلال ، مرحافيا ، روحامه ، وواحدة في كل من السنوات ١٩١٢ و١٩١٣ كفار اوريا ، كركور (بارديس حنا) نحلات يهودا ، وقد فشلت التجربة الاستيطانية في خمس من تلك المستوطنات ، بن شيمن ، حولدا ، كفار اوربا ، كفار ميلال ، كركور(*) . وبذلك وصل عدد المستوطنات الصهيونية في

(*) الموشافاه قرية عادية ، تقوم على المبادرة الفرديه واراضيها ملك لمستوطنيها وفق قواعد الملكية الخاصة .

فلسطين الى ٤٣ مستوطنة على أرض مساحتها ٤٠٨,٧٤٢ دونما ، وبلغ عدد سكانها نحو ١٢٠٠٠ نسمة .

وقد كان لاقامة هذه المستوطنات تأثيرات هامة تمثلت في ادخال تجديدات على اساليب الاستيطان الصهيوني في فلسطين ، ومن ابرزها اسلوب المستوطنات التعاونية والمستوطنات الجماعية .

وتجسد اسلوب المستوطنات الجماعية في كيبوتس دجانيا ١٩٠٩ ، وذلك بعد ان وافق دكتور ارثر روبين على تسليم مجموعة من العمال ادارة جزء من اراضي مزرعة كنيرت ، التي اقيمت على اراضي الكيرن كاييمت على مسؤوليتهم الخاصة ، على أن يوفر للعمال مسكن ونصف ارباح المزرعة في السنة ، اذا حققت ارباحا ، وتوزع هذه الارباح بالتساوي بين العمال واطلق على هذه المستوطنة اسم دجانيا ، ويعتبر هذا الاسلوب الاستيطاني نواة النظام الكيبوتسي الذي لعب دورا حاسما في تاريخ الاستيطان اليهودي في فلسطين ، وكان له نتائج بعيدة المدى واعطى دفعة كبيرة للاستيطان التعاوني والاستيطان العامل عموما بشكل ينبغي اعتباره منطلقا لتطوير الحركة الكيبوتسية في الاستيطان بكافة تياراته وأنواعه المختلفة .

أما في مرحافيا ، التي أسست سنة ١٩١١ ، فقد جرت محاولة لاقامة مستوطنة تعاونية بموجب نظرية فرانتس اوبنهايمر ، استاذ الاقتصاد والعلوم الاجتماعية في جامعتي برلين وفرانكفورت ، والذي طرح هذه النظرية امام المؤتمر الصهيوني السادس سنة ١٩٠٢ . وكان الهدف من هذه المحاولة المزج بين مزايا مزرعة كبيرة بأساليبها العملية وبين مصلحة صاحب المزرعة الصغيرة في نجاح العمل في مزرعته اي المزج بين مميزات الاستيطان التعاوني وبين مميزات الاستيطان الفردي ، الا ان المحاولة لم تنجح بسبب عدم اهتمام المدير المسؤول عن الاستيطان في مرحافيا ، « بالدوافع الفكرية للعمال اليهود » ورغم هذا ظلت تجربة مرحافيا اساسا لقيام نوع جديد من المستوطنات (مستوطنة تعاونية) في فترة لاحقة .

ولم يقتصر التجديد على شكل الاستيطان فقط ، بل تعداه الى الاسس الاقتصادية للمستوطنات الصهيونية بشكل عام ، بحيث لم تعد المستوطنات تعتمد على فرع زراعي واحد وهو الامر الذي كان يجعلها اكثر تأثرا بتأرجحات الاسعار في الاسواق او بالخسائر الطبيعية المعروفة في فلسطين مثل الجفاف ، وعدم الاستغلال الملائم للأراضي والقوى العاملة ، بل

طبق اسلوب المزرعة المختلطة بناء على تجارب المهندس الزراعي يتسحاق فيلكينسكي في مستوطنة بن شيمن وقد أصبح هذا الاسلوب عنصرا موجها في كل النشاط الاستيطاني الذي تقوم به المنظمة الصهيونية ومعظم المستوطنات الصهيونية في فلسطين .

وقد ساعدت المنظمة الصهيونية ، بالاشتراك مع مؤسسات اخرى (خاصة اللجنة الاوديسية لاحباء صهيون) في اقامة احياء سكنية لليهود في فلسطين ، وساهمت في هذا المجال ايضا شركة تطوير الاراضي بالقيام بشراء الأراضي في فلسطين ، وبالذات في المدن الرئيسية ، يافا ، والقدس ، وحيفا ، وقد أدت هذه النشاطات الى تأسيس اول مدينة عبرية في فلسطين وهي تل ابيب (١٩٠٩) ، التي كانت مجرد حي بالقرب من مدينة يافا يحمل اسم « احوزات بايت » ، على أيدي جماعة من المستوطنين القدامى في يافا بقيادة مئير ديزنجوف الذي عين فيما بعد أول رئيس لبلدية تل ابيب . كما قامت شركة تطوير الاراضي بشراء الارض التي اقيمت عليها الجامعة العبرية في القدس على جبل سكوبس والتي اقيم عليها معهد الهندسة التطبيقية (التخنيون) في حيفا سنة ١٩١٢ .

د ـ العمل العبري واحتلال العمل

كان المستوطنون الصهيونيون يعتمدون على العمال العرب في القيام بالاعمال الزراعية في المستوطنات ، ويعود ذلك الى طبيعة هؤلا المستوطنين الذين يتكون معظمهم من « سكان المدن وابناء الطبقة البورجوازية » ، كما ان المستوطن الصهيوني لم يسبق له أن عمل في فلاحة الارض ، هذا علاوة على انه تاجر بطبعه ، وقد عبر عن هذا يوسف اهرونوفيتش محللا نفسية المستوطنين التي تسيطر عليها روح التجارة : « ان ابن شعب كان خلال الفي عام مدينيا ولم يكن خلاقا ابان منفاه الطويل ، بل اشتغل كوسيط بين الآخرين الذين كانوا يقومون بالانتاج ، وشعب كهذا لا يمكن ان يتحول فجأة الى قروي يعيش حياة الفلاح . . . » ، ويخلص اهرونوفيتش الى القول « ان مزارعينا الموجودين في البلاد (فلسطين) هم تجار . . . » .

وبفضل هذه الروح فضل المستوطن الصهيوني العامل العربي على العامل اليهودي لخبرته في العمل الزراعي وطاقته الانتاجية واجره الزهيد . وبالتالي أصبح العمال العرب يقومون بمعظم الاعمال في المستوطنات للاسباب سالفة الذكر .

وقد وصف موشيه براسلافسكي وضع المستوطنات ، ابان الهجرة الثانية بقوله : « لقد وجدت الهجرة الثانية أكثر من عشرين مستوطنة مغمورة بالعمال العرب . وكان عدد السكان العرب داخل بعض المستوطنات يفوق عدد السكان اليهود ، وفي الوقت نفسه يوجد داخلها عدد ضئيل من العمال اليهود ، يناضلون من أجل الحصول على يوم عمل ، هذا هو الواقع » .

فلما جاءت موجة الهجرة الثانية تدفقت معها اعداد كبيرة من العمال اليهود ، بينما كان الطابع المميز لافراد هذه الهجرة دون غيرها من الهجرات ، هو ما يسمى بطابع « الريادة » غير ان هؤلاء « الرواد » ، او « الطلائع » كانوا ضيوفا غير مرغوب فيهم بالنسبة للمستوطنين القدامى الذين فضلوا استخدام العامل العربي ، وقد ادى ذلك الى صدامات بين المستوطنين القدامى والمهاجرين الجدد ، تمخضت عنها الدعوة الى احتلال العمل ثم احتلال الاراضي التي اطلقها المثقفون الصهيونيون الذين قدموا مع موجة الهجرة الثانية ، جوردون ، اهرونوفيتش ، بن تسفي ، وبن جوريون وغيرهم .

وكانت الفكرة الرئيسية التي « يتفق عليها جميع رجال الهجرة الثانية هي فكرة العمل العبري » ، وهناك من بنى هذه الفكرة على مبررات اجتماعية وسياسية مثلما فعل مناحين اوسيشكين الذي اعلن في « برنامجنا » ، الذي نشر قبل بداية الهجرة الثانية ببضعة اشهر ، ان أحد الأهداف الرئيسية للمهاجرين اليهود الى فلسطين ، ينبغي ان يكون « احتلال العمل من ايدي العرب ، خصوصا في المستوطنات اليهودية » : وأكد البعض على الجانب الاخلاقي بينما رفع البعض هذا المبدأ الى مرتبة (دين العمل) .

ومما دعم الدعوة الى احتلال العمل ، الصعوبات التي جابهت ابناء الهجرة الثانية بحيث اصبحت هذه الدعوة تعبر عن مصلحة معيشية لهؤلاء المهاجرين الجدد. وواصل زعماء الهجرة الثانية جهودهم من أجل تعميق شعاري «احتلال العمل» و«احتلال الأرض» مفسرين شعار «احتلال العمل» بمفهوم مزدوج : احتلال اماكن عمل للعامل اليهودي ، واحتلال العامل لذاته بواسطة العمل، وان الاحتلال في كلتا الحالتين ليس لمصلحته الذاتية ، فحسب، وانما «للشعب اليهودي كله»

غير أن احتلال العمل كان في الواقع امرا مضنيا وصعبا للغاية ، وقد استمر السعي من

أجل العمل العبري في المستوطنات طوال سنوات الهجرة الثانية .

وكان من أبرز العاملين في هذا المجال اهرون دافيد جوردون (١٨٥٦ - ١٩٢٢) ، الذي هاجر من روسيا الى فلسطين في سنة ١٩٠٤ وعمل مثل اكثرية افراد الهجرة الثانية في الزراعة ، رغم كبر سنة ، ومارس الكتابة فنشر عشرات المقالات حول المشاكل التي واجهت المستوطنين الذين جاءوا مع موجة الهجرة الثانية ، كما كان اكثر الاشخاص وضوحا في الدعوة التي تنادي بالعودة الى الأرض والتشديد على دور العمل في هذه المهمة باعتباره اساس الوجود الصهيوني في فلسطين.

وقد طلب جوردون بأن يسيطر العامل العبري على كافة مجالات العمل ، ومن الطبيعي ان هذا لا يأتي الا بطرد العمال العرب من الاعمال التي يشتغلون فيها ليحل محلهم العمال اليهود لعبرنة العمل في المستوطنات الصهيونية في فلسطين ، وفي هذا الصدد يقول جوردون : « منذ امد طويل كانت اليد العاملة هي يد عيسو ، والصوت المتحدث هو صوت يعقوب ، لقد حان الوقت لكي يستخدم يعقوب يديه أيضا » .

ونظرا الى تشديد جوردون على فكرة العمل ، واعتبارها اساس الوجود الصهيوني في فلسطين ، اطلق انصاره على تعاليمه اسم « دين العمل » واعتبرها بعضهم ملخصا لما افرزته الهجرة والثانية من مبادىء ايجابية .

غير ان دعاة العمل العبري استمروا في موقفهم المعادي للعمال العرب ، وحدثت وقائع كثيرة كشفت عن توجهاتهم العنصرية ضد العمال العرب ، ومن أبرز الامثلة على ذلك ان المنظمة الصهيونية قررت في ١٩٠٨ زرع غابة من أشجار الزيتون بالقرب من مزرعة بن شيمن تخليدا لذكرى هيرتسل ، وتم استخدام عمال عرب لتنفيذ المشروع ، وقد اثار هذا العمل استياء شديدا بين صفوف العمال اليهود واعتبروا ذلك تدنيسا لذكرى هرتسل ، « كيف يحدث ذلك ؟ غابة لذكرى الزعيم الكبير بعمل غير عبري » ؟ وقد عقد العمال اليهود في المنطقة اجتماعا وأرسلوا مجموعة من بينهم قامت بقلع المشاتل ، ثم اعادوا غرسها في اليوم التالي بأنفسهم . بعد أن تم طرد العمال العرب من المشروع وهناك حالات كثيرة مماثلة كانت ترمي جميعها الى طرد العمال العرب واحلال العمال اليهود محلهم الى درجة ان المكتب الفلسطيني في يافا ، التابع للمنظمة الصهيونية ، اصدر أمرا لمديري مزارع المنظمة ومستوطناتها بالامتناع

عن استخدام العمال العرب في أشغالهم . وجرت في هذا الاطار في عام ١٩١٠ محاولة لتنظيم « فيلق عمل » يعيش فيه العمال اليهود حياة مشتركة مثل رجال الجيش ويتم تزويدهم بكافة احتياجاتهم من صندوق عام .

في سنة ١٨٩١ ، والاستيطان الصهيوني في فلسطين لا يزال يحبو ، كتب الفيلسوف اليهودي آحاد هعام ، يصف سلوك المستوطنين ازاء ابناء البلد الاصليين فقال : « ومع ذلك ، فما الذي يفعله اخوتنا في فلسطين ؟ العكس تماما ! عبيدا كانوا في بلاد شتاتهم ، وفجأة وجدوا انفسهم يتمتعون بحرية مطلقة ، وهذا الانقلاب قد ايقظ فيهم الميل الى الاستبداد ، فهم يعاملون العرب بعدوانية وفظاظة ، ويحرمونهم حقوقهم ، يسيئون اليهم دونما سبب ، ويفاخرون حتى بذلك ، وليس بيننا من يعترض على هذا النهج المخزي والخطر » .

فما أن وطئت اقدام مستوطني الهجرة الثانية الارض ، حتى راحوا يطردون الفلاحين منها ، ويقطعون عليهم طريق العمل فيها ولو كأجراء . وقد أثار ذلك خوف مستوطني الهجرة الاولى ، حركة « احباء صهيون » ممن بنوا مشروعهم على شراء الارض واستغلال طاقة العامل العربي في استثمارها . فكتب احدهم وهو سيملانسكي من مستوطنة رحوبوت ، الى احاد هعام يخبره بتصرفات القادمين الجدد يشكو اليه مخاوفه . ورد عليه آحاد هعام في نوفمبر ١٩١٣ ، يقول : « وعدا الخطر السياسي ، فانني لا استطيع ابتلاع فكرة كون اخوتنا قادرين ، اخلاقيا على مثل هذا السلوك ازاء بشر من ابناء شعب آخر . وبصورة عفوية ، تمر في خاطري فكرة انه اذا كان الامر كذلك الآن ، فكيف ستكون علاقتنا بالآخرين ، فيما لو وصلنا اخيرا الى موقع القوة في ارض اسرائيل ؟ فاذا كان هذا هو « المسيح » : فانني لا اتمنى ان أكون شاهدا على مجيئه ».

ولم تقف محاولات العمال اليهود ، في محاربة العمل العربي ، عند هذا الحد بل مارسوا ايضا اسلوب الاضراب احتجاجا على استخدام العمال العرب ، كما حدث في مستوطنة الشجرة في عام ١٩١٤ ، حيث أضرب العمال اليهود عن العمل لمدة شهرين بسبب رفض ادارة المستوطنة الاستجابة لمطالب اتحاد عمال الجليل اليهود بطرد العمال العرب ، وبالعمل العبري الكامل في المستوطنة .

وعندما اقيمت مدينة تل ابيب ، اول المدن اليهودية في فلسطين وأكبرها ، قرر

مؤسسوها أيضا الامتناع عن استخدام العمال العرب في اعمال البناء ، ونفذوا قرارهم عند اقامة المساكن الاولى ، الا ان هذه المساكن انهارت ، بسبب عدم خبرة العمال اليهود الذين اقاموها ، فاضطر المؤسسون للجوء الى العمال العرب ، الذين اشتهروا بمهارتهم وبتجاربهم التي اكتسبوها في حقل البناء واستمر العمال العرب في بناء تل ابيب ، مما أدى الى ظهور موجة استياء شديدة في اوساط العمال اليهود وأخذوا يعقدون الاجتماعات وينطلقون بتظاهرات صاخبة ضد العمل العربي .

واستمر العمال اليهود ومستوطنو الهجرة الثانية بشكل عام في موقفهم المعادي للعمال العرب ، خصوصا بعد ان ادركوا جيدا انه لا يمكن منافسة العامل العربي في مجال الزراعة بالذات لانه كان « عاملا زراعيا بالولادة » وظهرت ثلاثة تيارات في مؤسسات المستوطنات الصهيونية ، دعا التيار الاول الى اعادة العمال اليهود الى اوطانهم ، بينما يقول التيار الثاني بأنه من الافضل تحويلهم الى مزارعين ، اما التيار الثالث فدعا الى التوجه الى اليهود اليمنيين ، فهؤلاء يمرون بوضع « ثقافي متدني ويكتفون بالقليل ، ولن يؤثروا على المزارع ، وبوسعهم منافسة العنصر المحلي واحتلال العمل » .

وقد لاقت هذه الفكرة ـ اي جلب يهود اليمن لكي يتولوا العمل في المستوطنات الصهيونية ـ ترحيبا سواء لدى زعماء المستوطنين في فلسطين آملين في استغلالهم باعتبارهم عناصر معتادة على العمل تحت ظروف شبيهة بظروف فلسطين ، او لدى العمال اليهود ، حيث أخذ حزب « هابوعيل هاتسعير » يشدد على دور اليهود الشرقيين في احتلال العمل . قرر مؤتمر هابوعيل هاتسعير التأثير على أرباب العمل بالاساليب الدعائية لكي يعملوا على احلال العمال اليهود الشرقيين محل العمال العرب ويفسر اهرونوفيتش اتفاق المستوطنين والعمال اليهود على استقدام اليهود اليمنيين ليساهموا في احتلال العمل وتطبيق شعار العمل العبري بقوله : « ان اليشوف اليهودي اعتبر هجرة اليهود اليمنيين بمثابة « المسيح المنتظر » ، او الغريق الذي يتمسك بالقشة « ليقرر » بأن هذا العلاج انقض عليه الآن كل من المزارعين والعمال ، الطرف الاول وجد فيه امكانية صيد عصفورين بحجر واحد : عامل عبري وأيضا عبد مستسلم مرغوب فيه لثمنه البخس ، الطرف الثاني وجد فيه نوعا من التعزية ، فأماكنهم لن يشغلها الأجانب ، بل بواسطة اخوتهم اليهود » .

ومن خلال هذا التوجه أوفد « المكتب الفلسطيني » في سنة ١٩١١ شموئيل يفنيئيلي الى

اليمن لحث اليهود هناك على الهجرة الى فلسطين . وكانت هجرة اليهود من اليمن قد نشطت ابتداء من سنة ١٩٠٩ ، مما جعل رجال الهجرة الثانية يعلقون آمالا كبيرة عليها . وقد حمل يفنيئيلي معه لاقناع اليهود اليمنيين المتدينين ، رسالة موجهة اليهم ، مكتوبة بلغة عبرية قديمة ، تشبه تلك التي يستعملها الحاخامون ، ورجال الدين اليهود ، مدعيا ان حاخامي فلسطين هم الذين طلبوا منه نقلها اليهم ، مع ان كاتب الرسالة كان الحاخام ابراهيم يتسحاق كوك . وبواسطة هذه الحيلة استطاع يفنيئيلي حمل نحو الفي يهودي من اليمن على الهجرة الى فلسطين ، قبل الحرب العالمية الأولى .

بيد أن الآمال التي علقها زعماء المستوطنين على يهود اليمن لم تتحقق ، ذلك انهم لم ينجحوا في عملية « احتلال العمل » . ففي مايو سنة ١٩١٣ كان من بين ٨٠٠ عامل في المستوطنات ٣١٠ من مهاجري اليمن . وفي المقابل كان يعمل في تلك المستوطنات في تلك السنة عدة آلاف من العمال العرب ووصل عدد العمال اليهود في المستوطنات الصهيونية ، قبيل الحرب العالمية الاولى ، الى نحو ١٥٠٠ عامل كانوا يشتغلون في تلك المستوطنات .

ولقد عانى يهود اليمن من استغلال رجال المستوطنات الصهيونية لهم مما جعل اوضاعهم تسير من سيء الى اسوأ من جراء العلاقة الاستغلالية السائدة في المستوطنات وتقاعس دعاة العمل العبري في الدفاع عنهم ، ذلك ان المستوطنين كانوا ينظرون الى يهود اليمن نظرة استعلاء : « لقد كانت النظرة تجاههم كالنظرة الى اناس متدنيي المرتبة ، فمعاشهم كان قليلا ، وطلب منهم ان يتحلوا بالطاعة لرب العمل . ولم تكن قليلة حالات الاستخفاف والظلم وأيضا الضرب من خلال الشعور بالسيادة تجاههم » .

ونخلص الى القول بأن تجربة استقدام يهود اليمن ليحلوا محل العمال العرب ، وليحققوا فكرة العمل العبري ، لم تنجح في ذلك .

بل العكس ففي نهاية فترة الهجرة الثانية ظهر توجه نحو خلق نوع من ايديولوجية العمل الاجنبي ، وقد وجد اصحاب هذه الايديولوجية تعضيدا غير متوقع في وجهة نظر آحاد هعام في امكانية تحقيق شعار (العمل العبري) وكان احاد هعام قد قام بزيارة فلسطين في سنة ١٩١٢ موفدا من قبل صهيونيي روسيا ، وكتب مقالا طويلا حاول ان يجمل فيه ما قام به اليهود من عمل في فلسطين خلال ثلاثين سنة منذ بدء الاستيطان الجديد . وأبدى فيه شكوكه في امكان

انجاح دعوة العمل العبري ، وتوصل من خلال نظرة واقعية في ووضع اليشوف ، الى نتيجة كئيبة . . « باستطاعة اليهودي أن يكون فلاحا مجتهدا ، وصاحب بيت قروي ، يعيش على فلاحة الارض ويتقنها ويغوص فيها ، ففي كل صباح يخرج الى حقله او الى كرمه ، للاشراف على عماله ، الذين يحرثون او يزرعون ارضه ، الذين يغرسون او يركبون كرمته ، ولا يمتنع أيضا عن العمل بيديه مع عماله ، عندما يرى حاجة الى ذلك . ولكن ما فائدة كل هذا البناء « الملجأ الآمن » ؟ ان حزبا « ساميا » لمثل هؤلاء الفلاحين مرتبط بعمل الآخرين لا يمكن ان يشكل اساسا لمثل هذا البناء . ان الأساس في حياة كل دولة هي الجماهير القروية ، العمال والفلاحون الفقراء الذين يعيشون بصعوبة من كدهم في الحقل . . ان الجماهير القروية في « ارض اسرائيل » [فلسطين] ليست لنا في الوقت الحاضر ، ومن الصعب ان نتصور كيف تخلق لنا في المستقبل ، أليس من المعروف في الوقت الحاضر ، ان ابناء القرى العربية المحيطة هم الذين يقومون بمعظم العمل في مستوطناتنا . اذن ، علينا ان نسلم بالفكرة القائلة بأن مستوطناتنا القروية في فلسطين ، حتى ولو اتسعت مع مرور الزمن لتصل حتى نهاية حدود الامكانات ، ستبقى دائما مستوطنات « عليا » تابعة لاقلية متحضرة متطورة ، تستمد قوتها من عقلها ومالها . بينما الجماهير القروية الغفيرة التي تستمد قوتها من عمل ايديها ، لن تكون لنا ايضا في ذلك الوقت ، الا يغير هذا الامر كلية جوهر وهدف الصهيونية » .

وقد تذرع المستوطنون برأي احاد هعام في هذا الصدد ، وأخذوا يدعون الى فكرة احتلال الارض في وجه الدعوة الى احتلال العمل ، ذلك ان خلاصة رأي آحاد هعام هو اقامة مستوطنات صهيونية في فلسطين اعتمادا على جهد العمال العرب . وبدأ صراع فكرتين ، الاولى تفضل احتلال العمل ولا ترفض الدعوة الى احتلال الارض ، اذ انه من دون الارض لا يمكن تنفيذ احتلال العمل ، غير أنها تعتبر احتلال العمل اكثر اهمية لانه ما جدوى شراء جميع الاراضي في فلسطين بينما يظل العمل في أيدي العمال العرب . وقد عبر عن ذلك الدكتور فاسهانيك في مقال له بعنوان « مسألة العمال اليهود في فلسطين » نشر في عام ١٩٠٩ ، جاء فيه « اذا اصبحت فلسطين كلها تابعة لليهود الاغنياء ، وكل العمال من العرب ، فان فلسطين ستكون في الواقع بلاد العرب وليس بلاد اليهود» .

بينما راح اصحاب الفكرة الثانية يدافعون عن العمل العربي في المستوطنات ، وتمثلت هذه الفكرة في جمعية «هاجد عونيم» الجدعونييم في مستوطنة زخرون يعقوب مبررين الدفاع

عن فكرتهم بأن العامل العربي أكثر انتاجا من العامل اليهودي واجره زهيد ، زد على ذلك ان تحويل العامل اليهودي الى عامل حقيقي تستغرق مدة طويلة مما يضيف عبئا ماليا على اصحاب المستوطنات ، خاصة وان اوضاعهم الاقتصادية لا تتحمل ذلك . ولكن رغم اختلاف أصحاب الفكرتين في الوسيلة الا ان هدفهم واحد ، وهو تحقيق شعار « العمل العبري » انطلاقا من « احتلال الأرض » و « احتلال العمل » ايا كان ترتيب الاولويات بينهما . غير أن الآمال التي عقودها على يهود اليمن في هذا الشأن لم تتحقق واضطر يفنيئيلي نفسه الى الاعتراف « ان هجرة اليمنيين . . لم تحل مسألة العمل العبري ، لانهم لم يتغلغلوا في فروع العمل الزراعي الاكثر اهمية».

كانت سياسة « العمل العبري » تحمل في طياتها ، مهما تسترت على نواياها الحقيقية ، موقفا عنصريا معاديا للعرب في فلسطين ، فقد كانت ترمي الى طرد العمال العرب من اعمالهم في المستوطنات رغم قناعة المستوطنين بخبرتهم خاصة في المجال الزراعي وحقل البناء ، ورغم محاولات بعض المفكرين الصهيونيين الدعوة الى حياة مشتركة وعمل مشترك مع العرب خشية حدوث صدامات تعرقل مشروعاتهم الاستيطانية وهي في مهدها ، ومن هؤلاء جوردون صاحب « دين العمل » . فمع تشديده على فكرة العمل العبري وحق اليهود التاريخي في فلسطين الا انه يدعو الى تجنب الصدام مع العرب ومحاولة استرضائهم خدمة للاهداف الصهيونية ، خصوصا بعد ظهور معارضة عربية بعد اتساع الاستيطان الزراعي وتزايد النشاط الصهيوني في فلسطين ، ففي السنوات الاخيرة من القرن التاسع عشر ترددت في اوساط العرب دعوات تطالب بحظر بيع الاراضي لليهود غير أن اكثرية رجال الهجرة الثانية وقادتهم استمروا في موقفهم المعادي للعرب ، منتهزين اية فرصة تسنح لهم لترجمة هذا الى خطوات عملية على أرض الواقع . وقد تنبه السكان العرب في فلسطين لاهداف الاستيطان الصهيوني ومخاطره وأبدوا معارضة شديدة لبيع الاراضي لليهود وفتح ابواب فلسطين امام الهجرة اليهودية .

هـ ـ معارضة العرب في فلسطين للاستيطان اليهودي

لقد ظهرت بوادر معارضة العرب في فلسطين للاستيطان اليهودي ، وبيع الأراضي لليهود ، في وقت مبكر في سبعينات القرن التاسع عشر، وان لم تكن بصورة منتظمة ، عندما منحت السلطات العثمانية في فلسطين قطعة ارض في سنة ١٨٧٠ لكارل نيطر لاقامة مدرسة

زراعية عليها « مكفيه يسرائيل». ومن ابرز مظاهر معارضة السكان العرب لبيع الأراضي لليهود حادث اراضي مستوطنة المطلة في شمالي فلسطين ومقاومة اصحاب هذه الاراضي لموظفي البارون الذين اشتروا هذه الاراضي بمساعدة موظفي السلطات العثمانية و « بقوة المال ويقوة جنود الحكومة » .

غير أن البوادر الجدية للمعارضة العربية للهجرة اليهودية والاستيطان اليهودي في فلسطين ، ظهرت في فترة الهجرة الثانية بعد تكالب المؤسسات الصهيونية على شراء الاراضي ، مما كشف بعض النوايا الصهيونية في هذا المجال ، خاصة ازاء اصرار زعماء الهجرة الثانية ومفكريها على تحقيق شعارات « احتلال العمل » واحتلال الارض والعمل العبري ، تلك الشعارات التي ادت الى اتخاذ موقف معاد من السكان العرب بشكل عام والعمال منهم بشكل خاص . ولكن بعد ان فشلت هجرة يهود اليمن في حل مسألة « العمل العبري » تنبه بعض الافراد القلائل من رجال الهجرة الثانية الى مخاطر السياسة المعادية للسكان العرب ، والتي تمخضت عن الشعارات سالفة الذكر التي اطلقها زعماء هذه الهجرة . وكان اول من انتقد هذه السياسة وحذر من مخاطرها الدكتور يتسحاق ابشتاين ، احد المدرسين في المستوطنات اليهودية في فلسطين ، وعمل فيما بعد مفتشا في مدارس الادارة الصهيونية ، فقد القى محاضرة امام مجموعة من مندوبي المؤتمر الصهيوني السابع (١٩٠٥) نشرت في مجلة هاشيلوح ، سنة ١٩٠٧، يصف فيها موقف الصهيونيين داخل فلسطين وخارجها من العرب ، والنشاط الاستيطاني الصهيوني في فلسطين : « ان مسألة علاقاتنا مع العرب ، هذه المسألة التي تتعلق آمال بعثنا القومي بحلها ، لم تهمل فقط ، وانما اختفت تماما عن انظار الصهيونيين ولا ذكر لها تقريبا ، بصورتها الاساسية في ادبيات حركتنا . . . وحقيقة انه كان بالامكان تجاهل مثل هذه المسألة الاساسية والتحدث عنها ، بعد ثلاثين سنة من النشاط الاستيطاني كأنها تستحق الدراسة مجددا ـ هذه الحقيقة المحزنة توضح الى ابعد حد الاهمال الذي يسود حركتنا ، وتظهر اننا لا نزال نطوف على سطح الامور ، ولم ننزل الى داخلها او الى اسسها . ورغم أن النشيطين الصهيونيين لم يتوقفوا عن الاهتمام بنظام البلد وقوانينه ، فان مسألة الشعب الذي يسكنه وأصحابه وسادته الحقيقيين ، لم تثر حتى الآن عمليا او نظريا . ويستطرد ابشتاين قائلا«لقد حان الوقت لاقتلاع الرأي الخاطىء ، الذي انتشر بين الصهيونيين ، بأن « ارض اسرائيل » [فلسطين] اراض غير مفلوحة بسبب نقص في الايدي العاملة ، او كسل

السكان ، ليست هناك حقول مقفرة ، بل العكس ، يحاول كل فلاح ان يضيف الى ارضه من ارض البور المجاورة لها ، وعندما نشتري قطعة ارض كهذه نبعد عنها مزارعيها السابقين تماما ، فنحرم بهذا اشخاصا بائسين من ممتلكاتهم الضئيلة ونسلب لقمة عيشهم . . ولا يزال حتى اليوم يرن في اذني نحيب النساء العربيات عندما تركت عائلاتهن قرية الجاعونة ، وهي مستوطنة روش بينا ، وانتقلت الى حوران شرقي نهر الاردن . فلقد ركب الرجال على الحمير ومشت النساء وراءهم باكيات يملأ السهل نحيبهن ، وللحظات وقفوا وقبلوا الحجارة والتراب . . ان شراء [اراضيهم] على هذا الشكل يترك في قلوبهم جرحا لا يندمل ، وسيذكرون دائما ذلك اليوم الملعون ، الذي انتقلت فيه املاكهم الى ايدي الغرباء . . لأنه اذا كان هناك فلاحون يروون حقولهم بعرقهم وحليب [ابقارهم] فهم العرب . . وفي النهاية سيعملون على استرجاع ما سلبته منهم قوة الذهب . . وهذا الشعب ، الذي لم تستنفد المدينة حتى الان قواه وتضعفه ، ليس الا جزءا صغيرا من الشعب الكبير الذي يسيطر على كل المناطق المجاورة . . سوريا والعراق والجزيرة العربية ومصر . . والقوى التي تواجهنا . . يمكننا القول ، انه حتى الآن على الأقل ، لا توجد حركة عربية بالمفهوم القومي والسياسي لهذا التعبير ، ولكن لا حاجة لهذا الشعب لمثل هذه الحركة . . انه كبير وكثير ولا حاجة الى بعثه لانه لم يمت ابدا ، ولم ينقطع وجوده يوما ، ويفوق في تطوره الجسدي كل شعوب اوروبا . . ينبغي الا نستخف بحقوقه خصوصا الا نستغل ضده خبث بعض اخوته الذين يظلمونه . لا تتحرشوا بأسد نائم ولا تأمنوا جانب الرماد الذي يغطي الجمر . فقد تنطلق شرارة تسبب حريقا لا يطفأ ، ولهذا يقترح ابشتاين على المستوطنين ممارسة نشاطهم الاستيطاني في فلسطين من خلال اتفاق مع « حزب الفلاحين » .

بيد أن ما دعا اليه ابشتاين لم يجد آذانا صاغية واستمر زعماء الهجرة الثانية في موقفهم العنصري المعادي للعرب لكي يحرموا العمال العرب من مصدر رزقهم الذي يحصلون عليه بكدهم وعرقهم ، وبلغت بهم نزعتهم العنصرية الشوفينية الى حد احتقار العرب ومحاولة تشويه صورتهم ، او على الأقل تجاهل وجودهم والابتعاد عنهم .

كان لا بد ان يكون لهذا الموقف الصهيوني المعادي انعكاسات في اوساط العرب في فلسطين ، وقد تمثل ذلك في قيام المثقفين العرب بالتحذير من اهداف الصهيونية وما تبيته من نوايا ضد عرب فلسطين . ففي سنة ١٩٠٤ اسس نجيب عازوري الذي كان نائبا للباشا

التركي في القدس ـ اسس « حلف الوطن العربي » الذي رفع شعار « بلاد العرب للعرب » وقد اعرب عازوري في كتابه « يقظة الامة العربية في آسيا التركية » الذي صدر باللغة الفرنسية في باريس سنة ١٩٠٥ ـ عن معارضة الحركة الجديدة التامة لاهداف اليهودية في فلسطين وقال في مقدمة كتابه . . ان مصير الحركتين هو أن تحارب كل منهما الأخرى دائما ، حتى تتغلب احداهما على الأخرى .

ولما قامت الثورة في تركيا سنة ١٩٠٨ علق عليها زعماء الهجرة الثانية آمالا كبيرة وقد بذل مبعوثو الحركة الصهيونية جهودا كبيرة للتقرب من قادتها ، وسافر الى القسطنطينية في الشهور الاولى للثورة مبعوثان للمنظمة الصهيونية هما دكتور فيكتور يعقوبسون وزئيف جابوتنسكي والتقوا بقادة الثورة التركية في محاولة لاستمالتهم الى جانب اهداف الصهيونية ودرءا لاية خطوات قد يتخذونها ضد الهجرة اليهودية والاستيطان الصهيوني في فلسطين . واتضح لهما ان الاتراك « ينظرون برضى الى هجرة اليهود الى بلادهم » .

غير انه بدت مخاوف لدى قادة الثورة التركية من تدفق الهجرة اليهودية الى فلسطين ، ذلك أنه فهم من اقوالهم ان تركيز الهجرة الهجرة اليهودية في فلسطين وخطط اقامة حكم ذاتي فيها تثير لديهم الشك والقلق ، حيث كانوا يخشون ظهور حركة انفصالية تقوم مع تكاثر اليهود في فلسطين وتعرض للخطر وحدة الامبراطورية في زاوية جديدة في آسيا .

وسعى الزعماء الصهيونيون الى ازالة هذه المخاوف لكي يستدروا عطف قادة الثورة في تركيا فأعلن دافيد ولفسون الذي خلف هيرتسل في رئاسة المنظمة الصهيونية ، وماكس نورداو انه ينبغي تغيير السياسة الصهيونية . وحاول جابوتنسكي ان يثبت للاتراك ان الخطر الحقيقي الذي يهدد سلامة الامبراطورية العثمانية يكمن في مصدر مختلف تماما ـ وهو « التطور السريع للقومية العربية » وكان يرمي بذلك الى زرع الشقاق بين الاتراك والعرب خدمة لاهداف الصهيونية «كلما تطورت المنافسة السياسية بين الاتراك والعرب ، ستزداد بالتالي أكثر فأكثر الرغبة الطيبة من جانب الاتراك في زيادة عددنا في ارض اسرائيل (فلسطين)»

وقد أنشأت المنظمة الصهيونية مكتبا للدعاية في القسطنينطينية للتأثير على زعماء تركيا وعلى الرأي العام هناك وأوكلت رئاسة هذا المكتب الى دكتور فيكتور يعقوبسون وزئيف جابوتنسكي وشموئيل هوخبيرج ، وهو من رجال الهجرة الاولى وخبير في كل شؤون تركيا

والشرق . واصدر المكتب صحيفة يومية عامة باللغة الفرنسية وثلاث مجلات اسبوعية : بالفرنسية والاسبانية والعبرية .

غير أن هذه النشاطات الصهيونية اصطدمت بتزايد المشاعر القومية التركية ، وتزايدت ايضا شكوك الاتراك بعد صدور بعض التصريحات الصريحة من جانب بعض الزعماء الصهيونيين السياسيين .

وقد ترك كتاب يعقوبس كين عضو اللجنة التنفيذية الصهيونية الذي صدر بالالمانية تحت عنوان «EREZ ISRAEL-DAS JUEDISH LAND» انطباعا سيئا بشكل خاص لدى الاتراك ، ذلك أن مؤلفه ارسل ترجمته الفرنسية في نهاية سنة ١٩٠٩ الى عدة شخصيات في القسطنطينيه والى صحف كثيرة في تركيا ، وقد أثار غضبا شديدا بشكل خاص الفصل الاخير من الكتاب ، الذي ضمنه كين امانيه الصهيونية فقد زعم انه كان يجدر ان تقوم في فلسطين حكومة يهودية مستقلة تحت حماية السلطان على ان يتم تأجير كل الاراضي في فلسطين باستثناء الملكيات الخاصة ، لمؤسسة تمثل « الامة اليهودية لمائة عام على الأقل » .

وكان صدور كتاب يعقوبس كين ضربة شديدة لجهود مكتب الدعاية الصهيوني في القسطنطينية ذلك انه اثار ردود فعل عنيفة في اوساط اعضاء البرلمان التركي المعادين للصهيونية ودوائر « الاليانس » التي كانت تتمتع بمركز قوي بين يهود تركيا بشكل خاص ، حيث اعلنت ان الدعاية الصهيونية تعرض للخطر وضع وسلامة يهود تركيا . وأعلنت الطوائف اليهودية في سلونيكي وأزمير والحاخام باش في القسطنطينية تحفظهم من الصهيونية . هذا بالاضافة الى معارضة ونشاطات النواب العرب في البرلمان التركي ، الذين اعلنوا صراحة عن معارضتهم للهجرة والاستيطان اليهودي . واخذوا يحذرون السلطات التركية من خطورة الاهداف الصهيونية في فلسطين . وقامت الصحافة العربية بدور رئيسي في هذا المجال ، وعملت الصحف التي صدرت في فلسطين بعد الثورة التركية على مهاجمة الهجرة اليهودية والاستيطان الصهيوني وشراء اليهود لأراضي العرب . ومن أبرز هذه الصحف صحيفة (الكرمل) التي كانت تصدر في حيفا ، التي راحت تهاجم « العدو الصهيوني » ، الذي هدفه احتلال فلسطين وسوريا وابعاد سكانها عنها وكان رئيس تحرير صحيفة (الكرمل) هو نجيب نصار الذي ساهم بدور كبير في هذا المجال وقام بجولات في قرى الجليل ينبه فيها السكان العرب الى اخطار الاستيطان الصهيوني .

وركزت الصحيفة نشاطها على مكافحة بيع الأراضي لليهود ، وقد حذت حذو (الكرمل) صحف اخرى مثل صحيفة (فلسطين) التي تأسست سنة ١٩١١ في يافا ، وصحيفة (المنتدي) التي تأسست سنة ١٩١٢ في القدس . كما ظهرت احتجاجات في اوساط السكان العرب ضد شراء اليهود للاراضي في فلسطين وتدفق الهجرة اليهودية اليها فقد ارسل نحو ١٥٠ وجيها من قضاء الناصرة برقية احتجاج بهذا الشأن الى السلطات العثمانية في شهر مارس سنة ١٩١١ ذلك ان النزاعات حول شراء الاراضي خصوصا في منطقة الجليل وطرد الفلاحين منها تركت جراحا عميقة في قلوب كثيرين ، وبالذات حالات مثل ما حدث في المطلة لان شراء الاراضي لم يكن يتم دائما بالطريقة الصحيحة وقد حاول الزعماء الصهيونيون احتواء هذه المعارضة سواء عن طريق بذل المساعي لدى سلطات القسطنطينية ولدى النواب العرب في البرلمان التركي أو عن طريق دكتور يعقوبسون المسؤول عن مكتب المنظمة الصهيونية هناك ، كما قام الدكتور ارتور روبين مسؤول (المكتب الفلسطيني) في يافا بمحاولات لتخفيف المعارضة العربية للاستيطان الصهيوني في فلسطين وفي سبيل تحقيق هذا الهدف اعلن روبين ايضا عن تحفظه من سياسة (العمل العبري) ، التي اتبعها المهاجرون الجدد ، وطالب باعادة تنظيم المستوطنين في فلسطين وحظى بتأييد وايزمان له .

وأدرك المسؤولون الصهيونيون في فلسطين وفي القسطنطينية مدى خطورة المعارضة العربية على اهدافهم ، وكان الرأي السائد في اوساط الكثيرين من زعماء اليشوف ، ومن بينهم حاييم كلوريسكي انه « لم يعد بعد من الممكن الاستمرار في العمل بدون ان نتفاوض معهم (مع القوميين العرب) ونضعف معارضتهم » خاصة وانه أخذت تتشكل جمعيات معادية للصهيونية في مدن فلسطين وجوارها مثل جمعية (الوحدة والتقدم) او (الجمعية القومية العثمانية) وجمعيات اخرى التف اصحابها حول الصحف القومية (الكرمل) و (فلسطين) و (المنتدي) وازداد الوضع صعوبة يوما بعد يوم خاصة في مجال شراء الاراضي ، وقد الغيت عمليات بيع كثيرة بضغط الرأي العام العربي في فلسطين . وقد أدت كل هذه الامور مجتمعة بالاضافة الى التقارير التي كان يرسلها يعقوبسون وروبين الى ادارة المنظمة المنظمة الصهيونية في برلين مطالبين فيها باتخاذ موقف من العرب وتحديد السياسة الصهيونية تجاههم الى اضطرار الزعامة الصهيونية الى اتخاذ بعض الاجراءات العملية في هذا الشأن ، فأوفدت في مطلع سنة ١٩١٤ ناحوم سوكولوف عضو اللجنة التنفيذية الصهيونية في زيارة الى المشرق لاستطلاع

الوضع . وبدأت اتصالات في نفس الفترة في القسطنطينية وفي دمشق بين المسؤولين الصهيونيين وبعض الزعماء العرب من أجل ايجاد تفاهم بينهم . وكانت اللجنة التنفيذية الصهيونية قد أوفدت مبعوثين الى مصر وسوريا وباريس للتفاوض مع الزعماء العرب . وفي القسطنطينية التقى دكتور يعقوبسون مع النواب العرب في البرلمان التركي ، وقام كلوريسكي بترتيب اجتماع اهم في دمشق بين ناحوم سكولولوف وبعض الزعماء العرب من بينهم دكتور شهبندر وشكري العسلي وتقرر في هذا الاجتماع الاول عقد اجتماع بين زعماء اليشوف اليهودي وزعماء القوميين العرب ، واتفق على أن يحضر عشرة زعماء من كل طرف الاجتماع الذي سيعقد في شهر يوليو سنة ١٩١٤ في برمانا بالقرب من بيروت . وارسلت بالفعل الدعوات للمشتركين في الاجتماع ، ولكن نشبت قبيل انعقاد الاجتماعات خلافات بين منظمي الاجتماع . ولا تعرف سوى تفاصيل قليلة عن سبب الخلافات ، فمن المعروف مثلا ان اليهود اعترضوا على دعوة نجيب نصار رئيس تحرير صحيفة (الكرمل) لحضور الاجتماع .

وكان هناك (من الزعماء الصهيونيين) من خشوا من أن يضر ذلك بالعلاقات الطيبة مع السلطات التركية . كما أنه اتضح للصهيونيين عندما جوبهوا بالمشاكل الناجمة عن المسألة العربية انه لم تكن لديهم سياسة واضحة تجاه العرب ولا موقفا منهم ، ولم يكونوا يملكون ما يستحق ان يعرض عليهم لاسترضائهم ، بما في ذلك المال ، كذلك لم تكن لديهم آنذاك حتى القوى البشرية الملائمة لمتابعة الشؤون العربية ، اما الزعماء العرب فقد كانوا « يأملون من وراء اتصالاتهم بالصهيونيين في الحصول على الأموال اللازمة لتطوير بلادهم ، بعد طرد الاتراك منها ، بينما كانت الحركة الصهيونية عمليا فقيرة للغاية ، ولم تكن تملك حتى النزر اليسير من هذه الاموال ، كذلك طلب الزعماء العرب من الصهيونيين التعهد بعدم طرد الفلاحين العرب من اراضيهم ، وهو ما لم يستطع الصهيونيون الالتزام به صراحة ، وبالاضافة لذلك ، كان اولئك الزعماء العرب يخشون من التعامل علنا مع الصهيونيون بسبب العداء لهم بين مختلف الاوساط العربية» وبحسب ما يقوله كلوريسكي عزى الزعماء العرب فشل المحادثات الى موقف اليهود كما كانت لديهم شكوك في انهم يعتمدون على تأييد الحكومة التركية ، وقال احدهم للمفوضين اليهود « سادتي الصهيونيين ، لا تثقوا اكثر مما ينبغي في الحكومات ، فالحكومات متغيرة ، ولكن الشعب باق » .

ولم تؤد الاتصالات في هذا الشأن الى نتائج ملموسة ولذلك استمرت المعارضة العربية

للاستيطان اليهودي وراح السكان العرب يهاجمون المستوطنات الصهيونية بعد النزاعات التي وقعت بين الفلاحين العرب والمستوطنين الصهيونيين الذين حاولوا طردهم من اراضيهم بعد ان بيعت لهم . وقد ساءت حالة الامن سواء في المستوطنات ام في المدن ، وطرحت بالتالي مشكلة حراسة هذه المستوطنات ، مما اضطر المستوطنين الى الاستعانة بالعرب للقيام بمهمة الحراسة .

و ـ فكرة الدفاع الذاتي وتأسيس منظمة هاشومير «الحارس »

جلبت « طلائع » الهجرة الثانية ، الذين وصلوا الى فلسطين قادمون من روسيا في سنة ١٩٠٤ فكرة الدفاع الذاتي ويطلق على هؤلاء الطلائع اسم مجموعة « هومل » فقد هاجروا في مجموعة منظمة تضم (١٣ ـ ١٤ شخصا) فورا بعد المذبحة التي وقعت في مدينتهم في سبتمبر سنة ١٩٠٣ وهم ينتمون الى تيار مينسك في حزب بوعالي تسيون اي أنهم لم يؤمنوا بجدوى الحرب السياسية في المنفى ، ومع هذا كانوا أعضاء في كتائب الدفاع التي عملت في أوساط بعض التجمعات اليهودية في روسيا . وكان يتزعم مجموعة هومل تلك يحزقيئيل حنكين الذي أصبح فيما بعد واحدا من مؤسسي منظمتي « بارجيورا » و « هاشومير » ثم انضم اليه في نفس العام اليعيزر ويسرائيل شوحاط ، والاخير هو صاحب فكرة « هاشومير » وكان احد مؤسسيها ولقد كانت هناك علاقة مباشرة بين فكرة الدفاع اليهودي في روسيا وبين « هاشومير » ومما يدل على ذلك حقيقة ان قادة مؤسسي «بارجيورا » و « هاشومير » كانوا اعضاء نشيطين في « الدفاع الذاتي » في روسيا ومؤسسيه .

لما قدم هؤلاء المهاجرون وجدوا ان العرب هم الذين يتولون حراسة المستوطنات الصهيونية ، وبما ان هؤلاء المهاجرين ينتمون الى حزب بوعالي تسيون ولهم نفس الخلفية العقائدية التي تدعوا الى « احتلال العمل » و « العمل العبري » عملوا بالتالي الى احتلال الحراسة في المستوطنات التي اوكلها المستوطنون الى العرب والشركس ، ويقول يسرائيل شوحاط في هذا الصدد « لقد اثارت لديّ قضية الشركس أفكاراً جديدة ، حفنة من الاشخاص في بحر من العرب ، وعلى الرغم من ذلك اكتسبوا لانفسهم مكانة محترمة ، وضربوا جذورهم في الأرض ، وأقاموا قراهم . وعلى ذلك لا يزال هناك أمل ، من الممكن ان نصمد ، ونستوطن في البلد ، ومن الممكن ان نجبر الجار العربي على احترامنا ، الا أن هذا يتطلب شجاعة ومثابرة » .

وقد عملت هذه المجموعة من المهاجرين التي كان من بينها زعماء بالاضافة الى يسرائيل شوحاط ، يتسحاق بن تسفي ، الكسندر زايد ويحزقئيل حنكين ، يسرائيل جلعادي ـ عملت في اتجاه احتلال حراسة المستوطنات الصهيونية ، وبذلت من أجل هذا الغرض جهود لاقناع المستوطنين بجدوى هذه الفكرة ، ذلك ان المستوطنين كانوا يخشون من ان يؤدي وجود الحراس اليهود الى نزاعات بينهم وبين جيرانهم العرب ، ولا يجلبوا سوى المشاكل على المستوطنات غير أن المجموعة لم تنجح في الحصول على تأييد زعماء المستوطنين اليهود في فلسطين مما دفعهم الى محاولة الحصول على تأييد ومساعدة زعماء يهود خارج فلسطين . غير أنهم فشلوا في هذا المجال أيضا ، مما جعلهم يقررون العمل بانفسهم وبدأ يسرائيل شوحاط في تنظيم رجاله لممارسة العمل .

في اواخر سبتمبر سنة ١٩٠٧ عقد المؤتمر الثالث لحزب بوعالي تسيون في يافا ، وحضره مندوبا الحزب الى المؤتمر الصهيوني الثامن الذي انعقد في لاهاي ، يتسحاق بن تسفي ويسرائيل شوحاط اللذان كانا قد عادا لتوهما بعد انتهاء اعمال المؤتمر ، الذي تغلب فيه الصهيونيون (العمليون) على (السياسيين) وقررت ادارة المنظمة الصهيونية البدء في نشاط استيطاني في فلسطين . وبعد انتهاء اعمال المؤتمر ، عقد اجتماع حضره ثمانية من اعضاء المجموعة في غرفة بن تسفي في يافا في (٢٨/ ٩/ ١٩٠٧) وكان المشتركون في الاجتماع هم . . يتسحاق بن تسفي ، تسفي بيكر ، يسرائيل جلعادي ، الكسندر زايد ، يحزقيئيل حنكين ، يحزقيئيل نيسنوف ، موشيه يوزير (جولدشتاين) ويسرائيل شوحاط وتقرر في نهاية الاجتماع اقامة منظمة سرية اطلق عليها اسم « بارجيورا » (تخليدا لبارجيورا وهو أحد قادة التمرد اليهودي ضد الرومان (٦٦ ـ ٧٠ ميلادية) قبل سقوط مملكة اسرائيل الثانية ، وقد أسره الرومان ، وأرغم على أن يسير في موكب انتصار تيتوس وقتل في روما . وكان شعار المنظمة « بالدم والنار سقطت يهوذا ، بالدم والنار سوف تنهض » ، وهو مأخوذ من قصيدة يعقوب كوهين وكانت اهداف المنظمة التي طرحت خلال الاجتماع هي :

أ) اصلاح أوضاع اليشوف . . محاربة نظام الحلوكا والاعانات على اختلاف انواعها .

ب ـ السعي الى العمل من خلال ارادة حرة .

جـ) السعي الى أساليب معيشية جديدة ، وطرق عمل جديدة مبنية على زيادة مسؤولية العامل .

د) عمل عبري وحراسة عبرية .

هـ) تثقيف صهيوني اشتراكي .

و) توحيد الطبقة العاملة .

وتم انتخاب اسرائيل شوحاط رئيسا للمنظمة ، ويتسحاق بن تسفي ممثلا سريا لها في حزب بوعالي تسيون ولا تتخذ القرارات في المنظمة سوى بالاجماع كما تقرر أن يكون مركزها في مستوطنة سجرة . وتجمع اعضاء بارجيورا في المستوطنة في نهاية سنة ١٩٠٧ ووقعوا على عقد سنوي مع مديرها ايلياهو كروزا للعمل في الفلاحة وتربية المواشي ، وبعد العمل كانوا يتدربون على استعمال السلاح ، لتحقيق هدفهم للقيام بأعمال الحراسة في المستوطنة التي كانت في يد الشركس وكان من الصعب اقناع كروزا باسناد الحراسة اليهم بدلا من الحراس الشركس . ولم يعدم اعضاء بارجيورا ، على كل حال ، وسيلة في محاولتهم والاستيلاء على الحراسة في المستوطنة ، فقد قاموا بسرقة بغلة من بين المواشي التي كان احد الشركس مكلفا بحراستها ، وأبلغوا مدير المستوطنة فورا بالسرقة مما اضطره الى اقالة الحارس الشركسي وسلم الحراسة الى تسفي بيكر احد مؤسسي بارجيورا وقد حدثت احتكاكات كثيرة بين الشركس والحراس اليهود من اعضاء بارجيورا ، كما وقعت اشتباكات بين العرب والمهاجرين الجدد في يافا في سنة ١٩٠٨ وقد اثبتت هذه الاحداث ان مسألة الحراسة العبرية اكبر من ان تقوم بها بارجيورا مما جعل زعمائها يفكرون في تأسيس منظمة دفاعية اكبر وهو الأمر الذي لم تنجح فيه بارجيورا في تحقيقه .

وفي ١٢/ ٤/ ١٩٠٩ عقد في مستوطنة مسحا الاجتماع التأسيسي لمنظمة « هاشومير » وتقرر في نهايته اقامة منظمة علنية اطلقوا عليها اسم «هاشومير» الحارس « وهدفها تطوير عنصر الحراس اليهود في بلادنا ، بحيث يكونون جديرين بالقيام بهذا العمل ، ولتحقيق هذا الهدف تتخذ الوسائل التالية : تنظيم الحراس اليهود العاملين في المستوطنات ، وتهيئة الشروط اللازمة لهذا الغرض عن طريق تعليمهم التربية الرياضية وركوب الخيل واستعمال السلاح وتوفير الادوات اللازمة والاهتمام بتحسين الاوضاع المادية للحراس ، وتأسيس صندوق قروض لاحتياجات الحراسة وصندوق للضمانات اللازمة لاستلام الحراسة ».

أما في المجال التنظيمي فقد رسمت الخطوط التنظيمية التالية . . تسند رئاسة

« هاشومير » الى لجنة ثلاثية ينتخبها الاجتماع العام كل عام ويوزع العمل فيما بينهم ويحصل على عضوية « هاشومير » كل شخص سليم البنية يعترف ببرنامج المنظمة ، وعمل كحارس لمدة ستة اشهر وتتم الموافقة على قبول العضو الجديد بأغلبية الثلثين .

وقد عملت منظمة « هاشومير » من اجل فرض سيطرتها على الحراسة في كافة المستوطنات اليهودية ، وقد استطاعت في خلال عامي ١٩١٣ - ١٩١٤ استلام الحراسة ، بصورة او بأخرى ، في معظم المستوطنات التي كانت قائمة انذاك في فلسطين فيما عدا بيتح تكفا ، زخرون يعقوب وروش بينا . وفي بعض الأحيان اضطرت المنظمة الى ترك الحراسة في هذه المستوطنة او تلك لاسباب مختلفة او نتيجة نزاعات مع لجان المستوطنات خاصة وان الوضع في فلسطين كان معقدا والعلاقات مع العرب كانت متغيرة كما ان القسم الكبير من رجال اليشوف كانوا يتنكرون للعمل العبري والحراسة العبرية ، خشية ان يزجهم هذا في مشاكل لا قبل لهم بها مع السكان العرب بالاضافة الى خوفهم من الافكار والاتجاهات الايديولوجية ، التي كان يحملها اعضاء تلك المنظمات . ولم تكتف « هاشومير » بمهام الحراسة ، بل نشطت ايضا في مجال الاستيطان وتمهيد الاراضي والتوسع في اقامة الكيبوتسات، وبناء على ذلك تأسس في نهاية سنة ١٩٠٩« فيلق العمل - لجيون هاعفودا »

كفرع اضافي لمنظمة « هاشومير » واسندت اليه مهمة تنفيذ المشروعات التي لا يستطيع الفرد تنفيذها في مجال العمل الزراعي . وتمثل الطابع العسكري « لفيلق العمل » في شكل تنظيمه والزي الخاص الذي يرتديه اعضائه والانضباط الذي طبق عليهم ، كما كان كل عضو يحصل على كل ما يحتاج اليه من ادارة « فيلق العمل » ويتساوى في ذلك جميع الاعضاء مهما كانت مدة عضويتهم وكان الاعضاء يجمعون بين الحراسة والعمل .

وكان من بين أعضاء « فيلق العمل » بعض زعماء حركة العمل في تلك الفترة ، بارل كتسنلسون ، اليعيزر شوحاط ، يسرائيل بيتسر وآخرين . غير أن نظرة الأحزاب إلى هذا التنظيم كانت نظرة معادية من أساسها ، ذلك أن حزب « هابوعيل هاتسعير » اعتبره فرعا لحزب « بوعالي تسيون » وعارضه وحظر على اعضائه الانضمام اليه . اما « بوعالي تسيون » فلم يكترثوا بوجوده ولم يعترفوا به ، واعتبروه نقيضا للماركسية ولكنهم لم يحاربوه .

وقد جاء حل « فيلق العمل » اساسا بسبب الوضع في تلك الفترة . فعدد العمال في

فلسطين لم يكن يتجاوز بضعة مئات ، في حين انه كان يحتاج لآلاف العمال لكي يقوم بالعمل في المناطق المأهولة والمناطق البعيدة غير المأهولة بالسكان ، هذا بالاضافة الى معارضة الاحزاب له ورفضها مساعدته . وهكذا تقرر حله « وان كان قد اعيد تشكيله مجددا فيما بعد بصورة مختلفة الى حد ما وباسم آخر هو كتيبة العمل « جيدود هاعفودا » التي كانت تحمل اسم يوسف ترومبيلدور في أيام الهجرة الثالثة » .

ورغم أن منظمة « هاشومير » حاولت التقرب من العرب وبعد ان ادرك اعضائها انهم سيضطرون لايجاد « تعايش » معهم وتعلم لغتهم وعاداتهم.الا أنهم لجأوا من ناحية الى استعمال القوة مع العرب أثناء قيامهم باعمال الحراسة مما دفع العرب الى الرد على ذلك بالمثل وحدثت نزاعات واشتباكات ادت الى سقوط عشرة قتلى من الحراس اليهود في السنوات الخمس الأولى من قيام منظمة هاشومير وكان من نتيجة الخلافات التي كانت تثور ، من حين الى آخر ، بين رجال هاشومير والسكان العرب في القرى المجاورة للمستوطنات اليهودية ان اضطرت تلك المستوطنات الى اعادة الحراس العرب تدريجيا لتولي اعمال الحراسة فيها ، الى جانب الحراس اليهود ، ففشلت ،«الحراسة العبرية » وحلت مكانها الحراسة المختلطة .

وفي صيف سنة ١٩١٤ واجهت منظمة « هاشومير » وضعا صعبا ، فلقد تملك الاعياء الاعضاء القدامى وتزايد التوتر بينهم ، واضطرت الى قصر نشاطها على المستوطنات الصغيرة والفقيرة ، ولم تتقدم مشاريعها الاستيطانية ، كما ان خطط تحويل المنظمة الى نواة للدفاع الذاتي في اليشوف ، اصطدمت بمعارضة قوية فيه وشلت حركتها ، ونشبت للمرة الاولى خلافات جدية في داخل المنظمة .

وفي ١٨/ ٥/ ١٩٢٠ تقرر حل منظمة « هاشومير » لتحل محلها منظمة الهاجاناة ، التي تأسست في العام نفسه . غير أن ظهور منظمة « هاشومير » كان دافعا الى ظهور تنظيمات محلية للحراسة يختلف اعضاؤها تماما عن اعضاء « هاشومير » الذين اعتبروا انفسهم فوق أية رقابة أو انضباط ، وكانت ملتزمة بقرارات زعماء المستوطنين الصهيونيين في فلسطين . ومن ابرز تلك التنظيمات « المجموعة اليافوية » التي تأسست في اواخر الحرب العالمية الاولى ولم تحرز هذه المجموعة انجازات تذكر خلال فترة قيامها ، غير أنه خرج من بين صفوفها الياهو جولومب (١٨٩٣ ـ ١٩٤٥) « الاب الروحي » لمنظمة الهاجاناة ، ورئيسها منذ تأسيسها سنة ١٩٢٠ ، وحتى وفاته . كذلك من بين اعضاء هذه المجموعة موشيه شارتوك (١٨٩٤ ـ ١٩٦٥)الذي

أصبح فيما بعد رئيس الدائرة السياسية في الوكالة اليهودية ، وأول وزير خارجية في اسرائيل .

وعلى الرغم من قلة من بقي من افراد الهجرة الثانية ، الا انهم لعبوا دورا حاسما في الاستيطان الصهيوني وما افرزه من مؤسسات وتنظيمات في مختلف الاصعدة الحزبية السياسية والثقافية والاجتماعية والاستيطانية وحتى على الصعيد العسكري . ذلك أن الظروف الصعبة التي واجهت من بقي من افراد الهجرة الثانية دفعتهم الى اقامة مؤسسات خاصة بهم في المجالات سالفة الذكر . لتكون اداة للمحافظة على بقائهم وتنفيذ مخططاتهم وبعملهم هذا ، كان اولئك المهاجرون اول من عمل في نقل مركز الثقل الصهيوني من خارج فلسطين إلى داخلها في الوقت الذي كان فيه معظم الزعماء الصهيونيين الاخرين لا يجدون لديهم وقتا كافيا لزيارة فلسطين ، رغم انهماكهم في العمل لاقامة دولة يهودية فيها . وكان من نتيجة ذلك أن لعب مهاجروا الهجرة الثانية ، دور المؤسس بالنسبة للكيان الصهيوني في فلسطين ، واحتلوا الحيز الذي يحتله المؤسسون عادة ، وحضروا للمهاجرين الذين انضموا اليها فيما بعد اسسا عقائدية وتنظيمية ، على اختلاف انواعها ، ما كان على هؤلاء الا القبول بها وتطويرها ، وهو ما تم فعلا ، ومع مرور الزمن نمت وكبرت المؤسسات التي اقامتها الهجرة الثانة ، وحلت محلها ، احيانا مؤسسات اخرى اكثر تطورا منها .

فعلى الصعيد الحزبي ، اتحد حزب بوعالي تسيون في فلسطين ، وهو أكبر احزاب الهجرة الثانية ـ اتحد سنة ١٩١٩ مع مجموعة من غير الحزبيين ، وأسس حزب « احدوت هعفوداه » الذي اتحد بدوره ، سنة ١٩٣٠ مع حزب هابوعيل هاتسعير الذي يعتبر أول حزب صهيوني يقيمه مهاجرو الهجرة الثانية في فلسطين سنة ١٩٠٥ وشكلا معا حزب ماباي ، الذي عاد واتحد بدوره سنة ١٩٦٨ مع مجموعتين كانتا قد انشقتا عنه سنتي ١٩٤٤ و١٩٦٥ « احدوت هعفودا » و « رافي » فشكل الجميع حزب العمل الاسرائيلي ، ويعتبر هذا الحزب منذ تأسيسه سنة ١٩٠٥ ـ مهما كانت الاسماء التي حملها ـ ولا يزال ، اكبر الاحزاب الصهيونية بين اليهود في فلسطين ، وقد لعب دور الحزب الحاكم في اسرائيل منذ تأسيسها ، وحتى ١٧ مايو سنة ١٩٧٧ ، حيث فاز عليه الليكود(*) في انتخابات الكنيست التاسع ، وأصبح لأول مرة

(*) الليكود . . . يتكون من حركة حيروت ، حزب الاحرار ، حركة « لاعام » و « احدوت » وهي مجموعة انشقت عن حزب الاحرار المستقلين قبيل الانتخابات .

في صفوف المعارضة . كما كان معظم اعضاء زعامة حزب ماباي من رجال الهجرة الثانية . وعند تأسيس هذا الحزب سنة ١٩٣٠ ، كان ١٦ من ٢٠ عضوا من اعضاء اللجنة المركزية من ابناء الهجرة الثانية وقد وصل هؤلاء الأشخاص الى مراكز الزعامة في اليشوف العبري ايضا وعندما جرت الانتخابات للكنيست الاسرائيلي ، لأول مرة ، سنة ١٩٤٩ ، انتخب ١١ نائبا من بين ١٢٠ ينتمون لماباي وحده ، من بين اولئك المهاجرين .

وقد نشأت على أيدي رجال الهجرة الثانية قوالب اجتماعية وانماط تنظيمية شكلت ما يعتبر بمثابة نقاط ارتكاز وأسس عمل لكل النشاط الصهيوني ، ذلك أن النضال من أجل العمل العبري هو في حد ذاته نضال من أجل اهداف الصهيونية . وقد عبر عن ذلك أحاد هعام بقوله « . . . ان الجميع يشعرون بأن مسألة العمال تنطوي على مسألة اكبر بكثير . . . مسألة هدف الصهيونية برمته » .

كما أن المنظمات التي اقامها رجال الهجرة الثانية ، في شمال فلسطين ووسطها ، مثل نواة « كتيبة العمل » (١٩٠٩ - ١٩١٠) وصندوق عمال ارض - اسرائيل (١٩٠٩) و « مكتب العمل » (١٩١٣) ومنظمات عمال يهودا والجليل (١٩١١) و « اللجنة الموحدة لعمال ارض اسرائيل » التي اجتمعت في صيف سنة ١٩١٣ كانت كل هذه المنظمات التي انشئت في تلك الفترة هي النواة التي انبثقت منها الهستدروت « النقابة العامة للعمال اليهود في فلسطين » سنة ١٩٢٠ . وقد لعبت الهستدروت ، ولا تزال ، ادوار سياسية واقتصادية مهمة للغاية في تاريخ الاستيطان الصهيوني في فلسطين .

ومن أبرز التطورات التنظيمية من عدة نواح ، اقامة اول كيبوتس في دجانيا سنة ١٩٠٨ ونواة موشافا في مرحافيا . فقد نمت وتبلورت تلك الانماط الاستيطانية ولعبت دورا حاسما في تنفيذ المشاريع الاستيطانية الصهيونية في فلسطين ، وكان شباب الكيبوتس ، ولا زال من أكثر الشباب الصهيوني اندفاعا وحماسا ، ومن بينهم جاءت القوى البشرية الرئيسية التي تولت معظم المهام الصهيونية الحرجة والمهمة خلال فترة الانتداب او حتى بعد اقامة اسرائيل .

كما أن صدور دوريات في تلك الفترة مثل « هابوعيل هاتسعير » (١٩٠٧) و « احدوت » (١٩١٠) كان نواة لتطور صحافة دورية ، هذا بالاضافة الى دور النشر والتعاونيات التي لا تزال قائمة منذ تأسيسها خلال فترة الهجرة الثانية ، وان كانت قد تطورت وتوسعت مهامها .

وعلى الصعيد العسكري ، كانت منظمة هاشومير (١٩٠٩) ، التي حلت سنة ١٩٢٠ ، لتحل محلها منظمة الهاجاناة ، كانت نواة لتنظيمات عسكرية اخرى ، انبثق منها سنة ١٩٤٨ الجيش الاسرائيلي .

قائمة بأهم شخصيات الهجرة الثانية

كما افرزت الهجرة اليهودية الثانية عددا من الزعماء الصهيونيين في مختلف مجالات النشاط الصهيوني لعبوا ادوارا مهمة في تاريخ الصيونية في فلسطين وخارجها ، ومن ابرز هذه الشخصيات : ـ

١) بن جوريون ، دافيد (١٨٨٦ ـ ١٩٧٣) ولد عام ١٨٨٦ في بلونسك في بولندا وهاجر الى فلسطين عام ١٩٠٦ ، من مؤسسي حزب مباي والهستدروت ، من زعماء حركة العمل ، السكرتير العام للهستدروت (١٩٢١ ـ ١٩٣٥) ، رئيس مجلس ادارة الوكالة اليهودية ، وهو أول رئيس وزراء ووزير دفاع في اسرائيل (١٩٤٨ ـ ١٩٥٣ و١٩٥٥ ـ ١٩٦٣) .

٢) بن تسفي ، يتسحاق (١٨٨٤ ـ ١٩٦٣) ولد في عام ١٨٨٤ في بولطها ، روسيا ، وهاجر عام ١٩٠٤ ، من مؤسسي « هاشومير » من مؤسسي معهد بن تسفي للبحوث اليهودية ، ثاني رئيس لدولة اسرائيل .

٣) برنر يوسف ، حاييم (١٨٨١ ـ ١٩٢١) ولد عام ١٨٨١ في اوكرانيا هاجر في عام ١٩٠٩ ، وهو اديب وكاتب .

٤) جولومب ، ايلياهو (١٨٩٣ ـ ١٩٤٥) ولد عام ١٨٩٣ في روسيا وهاجر ١٩٠٩ ، من مؤسسي الهاجاناة ومن زعماء الهستدروت .

٥) جوردون اهارون ، دافيد (١٨٥٦ ـ ١٩٢٢) ولد عام ١٨٥٦ في روسيا وهاجر عام ١٩٠٤ ، وهو أديب ومفكر وكان يتخذ قدوة لرجال الهجرة الثانية ، وهو صاحب ما سمي في حينه بـ « دين العمل » لتشديده على العمل العبري في فترة الهجرة الثانية .

٦) ديان ، شموئيل (١٨٩١ - ١٩٦٨) ولد عام ١٨٩١ في اوكرانيا ، هاجر عام ١٩٠٨ ، من رؤساء حركة الموشافيم ، عضو المركز الزراعي واللجنة التنفيذية الصهيونية ، عضو الكنيست الأول .

٧) هاكوهين ، دافيد (١٨٩٨ -) ولد في عام ١٨٩٨ ، في روسيا ، هاجر عام ١٩٠٧ ، عمل مديرا لشركة سوليل بونيه ، ثم عضو كنيست ثم رئيسا للجنة الشؤون الخارجية والأمن في الكنيست .

٨) هاكوهين ، مردخاي (١٨٥٦ - ١٩٣٦) ولد عام ١٨٥٦ ، هاجر عام ١٩٠٧ ، من مؤسسي تل ابيب ، من رجال الاقتصاد ، وكاتب .

٩) هيرتسفيلد ابراهام ولد عام ١٨٨٨ في اوكرانيا ، هاجر عام ١٩١٤ ، عضو اللجنة التنفيذية الصهيونية في الوكالة اليهودية ، والصندوق القومي ، رئيس المركز الزراعي رائد الاستيطان العامل .

١٠) بروفيسور - فالكاني اليعزري ، يتسحاق (١٨٨٠ - ١٩٥٥) ولد عام ١٨٨٠ في روسيا ، هاجر عام ١٩٠٨ ، مؤسس محطة التجارب الزراعية ، كاتب .

١١) فالدشتاين ، ليفي ، دكتور ولد عام ١٨٧٨ في روسيا ، من ركائز بوعالي تسيون والدفاع الذاتي ، عضو « هاشومير » .

١٢) فردي ، دافيد ولد عام ١٨٩٣ في اوكرانيا ، هاجر عام ١٩١٠ ، ممثل من اوائل العاملين في مسرح « هابيما » .

١٣) زكاي ، دافيد ولد في عام ١٨٨٦ في روسيا ، هاجر عام ١٩٠٩ ، اول سكرتير لاتحاد العمال ، وعمل في هيئة تحرير صحيفة « دافار » .

١٤) زروبابل ، يعقوب ولد في عام اوكرانيا ، هاجر عام ١٩١٠ ، من زعماء بوعالي تسيون ، اديب .

١٥) طفيف ، ابراهام هاجر من اليمن عام ١٩٠٩ ، عضو في الكنيست الاول .

١٦) طفنكين ، يتسحاق (١٨٨٧ - ١٩٧١) ولد عام ١٨٨٧ ، هاجر عام ١٩١٠ ، من

زعماء بوعالي تسيون ومن زعماء الكيبوتس الموحد ، من اوائل اعضاء كتيبة العمل وعضو في مؤتمرات صهيونية عديدة .

١٧) يفنيئيلي ، شموئيل (١٨٨٤ - ١٩٦١) ولد عام ١٨٨٤ في روسيا ، هاجر عام ١٩٠٥ . من مؤسسي الهستدروت ، احدوت هعفودا ، مدير المركز الثقافي، عمل من أجل هجرة يهود اليمن الى فلسطين .

١٨) يهودا ، تسفي ولد عام ١٨٨٧ في اوكرانيا . هاجر عام ١٩٠٦ ، من زعماء حركة الموشافيم .

١٩) يافيه ، اليعازر ولد عام ١٨٨٢ في سربيا ، هاجر عام ١٩١١ ، واضع فكرة موشاف هاعوفديم (وهي المستوطنة الزراعية المبنية على أسس تعاونية) .

٢٠) يعري ، بوليسكين ولد عام ١٨٨٦ ، اوكرانيا ، هاجر عام ١٩٠٥ ، كاتب وصحفي ، وضع مذكرات عن الحراس والعمال وعن تاريخ اليشوف .

٢١) كتسنلسون ، بيرل (١٨٨٧ - ١٩٤٤) ولد عام ١٨٨٧ ، روسيا ، هاجر عام ١٩٠٩ ، من مؤسسي احدوت هعفودا ، الهستدروت ، عضو مجلس ادارة هاكيرن هاكييمت ، من زعماء حركة العمل ، ادارة الجامعة ، رئيس تحرير صحيفة « دافار » .

٢٢ - لافي ، شلومو (١٨٨٢ - ١٩٦٣) ولد عام ١٨٨٢ ، بولندا ، هاجر عام ١٩٠٥ ، واضع فكرة الكيبوتس الكبير عضو حركة « هاشومير » وعضو في الكنيست الاول والثاني .

٢٣) لويفان ، يتسحاق ولد عام ١٨٨٨ ، جاليتسيا ، هاجر عام ١٩٠٨ ، رئيس تحرير صحيفة « هابوعيل هاتسعير » .

٢٤) لندسمان ، هيلل ، ولد عام ١٨٩٧ ، روسيا ، هاجر عام ١٩١٣ ، من الأعضاء النشيطين في الهاجاناه .

٢٥) ليشنسكي ، سارا ولدت عام ١٨٨٤ ، هاجرت عام ١٩١١ . أسست أول عيادة لكوبات حوليم في تل ابيب .

٢٦) مردخاي ، عمانوئيل ولد عام ١٩٠٠ ، روسيا ، هاجر عام ١٩٠٤ . من كبار قادة الهاجاناه .

٢٧) ميخائيلي ، بن تسيون ولد عام ١٩٠٢ ، هولندا ، هاجر عام ١٩١٣ ، رئيس بلدية هيرتسليا .

٢٨) سيلع ، بلوفشتاين ولد عام ١٨٨٠ ، روسيا ، هاجر في عام ١٩١٣ .

٢٩) عجنون ، شموئيل يوسف (١٨٨٨ ـ ١٩٧٠) ولد عام ١٨٨٨ ، جاليتسيا ، هاجر عام ١٩٠٩ ، اديب حائز على جائزة نوبل في الأدب عام ١٩٦٦ .

٣٠) بات ، يعقوب ولد عام ١٨٩٤ ، بولندا ، هاجر ١٩١٣ . عضو « هاشومير » ، قائد في الهاجاناه ، ضابط في الجيش الاسرائيلي .

٣١) تسيزلنج ، اهارون ولد عام ١٩٠١ ، روسيا ، هاجر عام ١٩١٤ . عضو في المؤتمر التأسيسي للهستدروت ، عضو الكنيست الاول ، وزير الزراعة (١٩٤٨ ـ ١٩٤٩) .

٣٢) كبلينسكي ، شلومو ولد عام ١٨٨٤ ، بولندا ، هاجر عام ١٩١٢ . من الاعضاء النشيطين في بوعالي تسيون من زعماء حركة العمل ، مدير ادارة الاستيطان ، مدير التخنيون في حيفا ..

٣٣) كرنتيس ، ابراهام ولد عام ١٨٨٦ ، بولندا ، هاجر عام ١٩٠٥ ، رئيس بلدية رامات جان

٣٤) روزنبرج ، يتسحاق ولد عام ١٨٨٩ ، روسيا ، هاجر عام ١٩١٢ عضو « هاشومير » ممثل الطائفة اليهودية في حيفا (في عهد الاتراك) رجل المشتريات والهاجاناة .

٣٥) روتبرغ ، مئير ولد عام. ١٨٨٧ في اوكرانيا ، هاجر عام ١٩٠٥ ، منظم العمال الزراعيين في يهودا ، من كبار الاعضاء النشيطين في الهاجاناه.

٣٦) روبين ، ارتو ـ دكتور (١٨٧٦ ـ ١٩٤٣) ولد عام ١٨٧٦ في المانيا ، هاجر عام ١٩٠٧ ، مدير المكتب الفلسطيني للمنظمة الصهيونية ورئيس مجلس ادارة الوكالة اليهودية ، استاذ علم الاجتماع في الجامعة العبرية ، مؤسس ورئيس مجلس ادارة بنك

العمال

٣٧) ريمز دافيد (١٨٨٦ ـ ١٩٥١) ولد عام ١٨٨٦ ، هاجر عام ١٩١٣ ، سكرتير «احدوت هعفودا » السكرتير العام للهستدروت ، رئيس اللجنة القومية ، مجلس الدولة (١٩٤٤ - ١٩٤٨) ، وزير المواصلات سنة (١٩٤٨ ـ ١٩٥٠).

٣٨) سورير ، حاييم ولد عام ١٨٩٥ في روسيا ، هاجر عام ١٩١٣ . رئيس تحرير صحيفة « دافار » .

٣٩) شوحيط ، اليعيزر (١٨٧٤ ـ ١٩٧١) ولد عام ١٨٧٤ في روسيا ، هاجر عام ١٩٠٤ ، من مؤسسي « هابوعيل هاتسعير » .

٤٠) شوحاط ، يسرائيل (١٨٨٤ ـ ١٩٦١) ولد عام ١٨٨٤ ، هاجر عام ١٩٠٤ ، واضع فكرة « هاشومير » من مؤسسيه وزعمائه ، من زعماء الهاجاناه وكتيبة العمل ، عضو حزب « هابوعيل » .

٤١) شازار ، زالمان (١٨٨٩ ـ ١٩٧٤) ولد عام ١٨٨٩ في روسيا ، هاجر عام ١٩١١ . عضو كنيست (١٩٤٩ ـ ١٩٥٧) ووزير التعليم (١٩٤٩ ـ ١٩٥٠) ، الرئيس الثالث لدولة اسرائيل ١٩٦٣ .

٤٢) شيفر ، زئيف ولد عام ١٨٩١ ، اوكرانيا ، هاجر عام ١٩١٣ . عمل في الهاجاناه وقام بمهام للخارج ، عضو الكنيست .

٤٣) شبرينتسك ، يوسف (١٨٨٥ ـ ١٩٥٩) ولد عام ١٨٨٥ ، موسكو ، هاجر عام ١٩٠٨ . سكرتير « هابوعيل هاتسعير » ، رئيس مجلس الدولة ، رئيس الكنيست . عضو اللجنة التنفيذية الصهيونية .

٤٤) شاريت ، موشيه (١٨٩٤ ـ ١٩٦٥) ولد عام ١٨٩٤ ، اوكرانيا . هاجر عام ١٩٠٦ ، من حركة العمل ، عضو مركز مباي ، رئيس ادارة الوكالة اليهودية ١٩٦١ ، اول وزير خارجية في حكومة اسرائيل ١٩٤٨ ، ثاني رئيس حكومة سنة ١٩٥٣ ـ ١٩٥٥ .

الباب الثاني

شموئيل يوسف عجنون
(١٨٨٨ - ١٩٧٠)
حياته وأدبه

الفصل الأول

حياة عجنون

اسمه الأصلي شموئيل يوسف تشاشكس وقد اكتسب اسم عجنون بعد ان نشر قصته «عجونوت ـ نساء مهجورات» في فلسطين في سنة ١٩٠٩ ووقعها باسم عجنون الذي تحول بعد ذلك الى لقب ادبي له ثم أصبح اسم عائلته الرسمي ابتداء من سنة ١٩٢٤ . ولد في ٨ أغسطس سنة ١٨٨٨ ، في مدينة بوتشاتش شرقي جاليتسيا وهي مقاطعة الى اقصى الجنوب من بولندا ، كانت جزءا من الامبراطورية النمساوية ـ الهنغارية ، والده هو تاجر الفراء ، الحاخام شالوم مردخاي هاليفي تشاشكس ، الذي كان مريدا واسع المعرفة لحاخام كورتوف الذي ينتمي الى طائفة الحسيديم(*) . وكان والده هذا يتمتع بروح شعرية ، تمكّنه من كتابة القصائد في اوقات فراغه . ويقول عجنون « ان والده ألهمه الروح الشعرية » وقد اثرت في الأسرة التقاليد الحاخامية الحسيدية ، بالقدر نفسه الذي اثرته فيها الثقافة الاوروبية العامة . أما التعليم الذي تلقاه عجنون فقد كان ، في الدرجة الأولى ، تعليما خاصا وغير عادي حيث تلقى

(*) الحسيديم : كلمة عبرية معناها صديق ، صالح ، تقي ومن معانيها ايضا نصير ، والحسيديم حركة دينية يهودية اسسها الربي يسرائيل باعل شيم طوف (١٧٠٠ ـ ١٧٦٠ تقريبا) وقد دعت عند ظهورها الى مبادىء مخالفة للتعاليم الدينية التقليدية : اولها أن باستطاعة كل انسان ، شرط أن يكون صديقا صالحا ، التماثل مع الله ، الموجود في كل مكان والاتصال به ومعرفة اسراره ـ ولهذا فان الصديق الذي يقود المؤمنين ، يلعب دورا مهماً لدى الحسيديم ، ويمس بالتالي بمكانة الحاخام بين اليهود ، وثانيهما ان هدف الدين ليس سوى الالتصاق بالله ، وهو ما لا يمكن الوصول اليه الا بعد تركيز الفكر بأكمله في الخالق ، وبذل الجهد للتعرف على كافة مزاياه دون الحاجة الى التعمق في دراسة التعاليم الدينية اذ ان مجرد اقامة الصلوات والشعائر الدينية يحل محلها .

تعليمه منذ الثالثة وحتى التاسعة من عمره في « هاحيدر » أو ما يمكن أن نسميه بـ « الكتّاب » ، وتلقى دروس الهاجادا والمشنا والتلمود على يد والده وقرأ الكثير من أدب رجال الهسكلاه في جاليتسيا ، وهي الحركة التي ادت الى تجدد الادب العبري العلماني وتطور اللغة العبرية . كما استمع الى قصص الأدب الالماني من والدته ، ودروس الالمانية والتلمود على يد معلم خاص ، درس أدب الحسيديم في كنيس الحسيديم في كورتوف ثم اطلع في وقت لاحق على اعمال الكتّاب الالمان والاسكندنافيين . وعندما بلغ التاسعة من عمره كتب اغنية قصصية باليدش عن شاب خارج لاشعال الشموع في الليلة الاولى بعيد الغفران على شاطىء النهر فاختطفته عذراء البحر . كما كتب ايضا اغنية حنين لابيه .

نشر عجنون قصيدته الاولى التي تحمل عنوان « بطل صغير - جبورقطان » وهو في سن السادسة عشرة ، أي في سنة ١٩٠٤ ، في مجلة « هامتسبيه » التي كانت تصدر في كراكوف ، وهي قصيدة باليدش عن الحاخام يوسف ديلا رينا ، ثم قطعة من الشعر العبري المقفى اسماها « مقدمة » الى تسفي جودا جيلبرد . ثم دأب ، منذ ذلك الوقت ، على نشر قصص قصيرة وقصائد بالعبرية واليدش ، خصوصا في صحيفة « لامبرجر طاجبلاس» وفي سنة ١٩٠٤ بدأ ينشر بشكل منتظم شعراثم نثرا ، في مجلة « هامتسبيه » التي كان يحررها س . م . لاسر الذي كان يشجعه باستمرار .

وفي تلك الفترة من حياته ، في سن الثامنة عشرة تقريبا ، قدم الى بوتشاتش الاديب والزعيم الصهيوني اليعيزر روكيح(*) وهو من زعماء « أحباء صهيون » وأصبح واحدا من مساعديه الرئيسيين في صحيفة Der juedisch Wecker التي كانت تصدر هناك . ونشر قبل رحيله من بوتشاتش نحوا من سبعين قطعة بكلتا اللغتين ، شعرا وقصصا ومقالات ورسائل ، وغير ذلك . وقد وقع بعضها باسم تشاشكس Czaczkas الا أن أكثرها ظهر في الغالب تحت اسم مستعار . وتشهد اكثر اعماله شمولا ، وقد كتبها باليدش ، في تلك الفترة على تطور موهبته الادبية وانجذابه نحو الرومانتيكية الالمانية الجديدة . ولكن ما أن غادر بوتشاتش حتى كف بعد فترة عن الكتابة باليدش .

(*) اليعيزر روكيح : مبعوث « احباء صهيون » الى رومانيا واستطاع ان يقيم اول جمعية لهجرة اليهود في مدينة بوخارست سنة ١٨٨٠ .

وفي عام ١٩٠٧ دعي عجنون الى ليفوف وأصبح مساعدا لجرشوم بادر في تحرير الصحيفة العبرية « هاعيت - الوقت » التي لم تستمر في الصدور أكثر من ثلاثة أشهر ، ولكن عجنون نشر فيها مجموعة قصص وقّعها باسماء مستعارة . ثم هاجر عجنون في سنة ١٩٠٨ الى فلسطين ، في اطار موجة الهجرة الثانية (١٩٠٤ - ١٩١٤) بعد أن اشتهر كمؤلف شاب . وقد ابعدته هجرته عن حياة المدينة التي لم تف باحتياجاته الروحية ، ووضعته « في قلب مركز أدب عبري جديد ومبدع » ، ومن ناحية اخرى كان عجنون يختلف عن رواد الهجرة الثانية الذين انتهجوا مبدأ « احتلال العمل » فاعتبروه بورجوازيا ، بينما ادانه اليهود الروس بوصفهم اياه بجاليتسي » . ولكنه عزز مركزه بالجهود الادبية التي كان يقوم بها من حين لآخر . كما عمل بصورة دائمة في بعض الوظائف الكتابية ، حيث عمل نحو خمس سنوات (١٩٠٨ - ١٩١٣) سكرتيرا للجنة « احياء صهيون » في يافا ، ثم سكرتيرا اول لمحكمة الصلح العبرية وسكرتيرا « للمجلس الفلسطيني » التابع لمكتب فلسطين او ما كان يسمى آنذاك بـ « مكتب ارض اسرائيل » .

وفي تلك الحقبة الزمنية اشترك عجنون في تحرير صحيفة « هاعومير » التي اسسها شالوم بن تسيون وبينما هجر ممارسته الدينية خلال تلك السنوات ، فانه لم يكن ينتمي انتماءا كاملا الى عصرية المستوطنين الجدد . فعلى العكس من ذلك ، كان مأخوذا باليشوف القديم ، وكان ينجذب الى القدس اكثر فأكثر ، حيث غذت البيئة اليهودية التقليدية « خياله الخلاق » ونشر في صحيفة اول قصة كتبها في فلسطين خلال اقامته في يافا (١٩٠٩) وهي قصة « عجونوت » « نساء مهجورات » ، وقد وقّعها لاول مرة ، باسم عجنون ، الذي تحول ذلك الوقت الى لقب ادبي له ، ثم اصبح منذ سنة ١٩٢٤ ، اسم عائلته الرسمي ، بدلا من اسمها السابق تشاشكس . ونشر قصصا اخرى ظهر معظمها في صحيفة « هابوعيل هاتسعير » ، ثم كتب في الصحيفة نفسها روايته الشهيرة «في هيا ها عقوف لميشور - و استقام المعوج» التي تركت اثرا كبيرا لدى الكاتب يوسف حاييم بيرنر(*) الى درجة انه اقترض مالا ليصدرها في كتاب مستقل (١٩١٢) وأصبحت أول رواية له تطبع في كتاب . وقد صدرت منها طبعات كثيرة ، وترجمت

(*) يوسف حاييم بيرنر (١٨٨١ - ١٩٢١) كاتب صهيوني هاجر إلى فلسطين في سنة ١٩٠٩ ولعب دورا في الترويج لفكرة العمل العبري ، قتل اثناء الاضطرابات التي نشبت بين العرب واليهود في يافا وتل ابيب في مايو ١٩٢١

الى ست لغات. وعلى الرغم من أن معظم أعماله الأدبية لم يكن معروفا في تلك الفترة، وتلك التي نشرت مؤخرا، مثل «عجونوت»، قام عجنون باعادة كتابتها مغيرا فيها تغييرات اساسية.

وفي منتصف صيف ١٩١٣، سافر عجنون كغيره من الكثيرين من معاصريه الشبان الى المانيا، حيث نزل في برلين، وهناك تقرّب من مارتن بوبر(*)، فظهرت ترجمته لقصصه في المجلة الشهيرة Der Jude وقد اشترك في ترجمتها الى الالمانية ماكس شتراوس وجرشام شالوم. وأصدرت صحيفة يديشا دارلاج» طبعة من قصته «واستقام المعوج» بالاضافة الى ترجمة المانية لها.

ثم نشبت الحرب العالمية الاولى، بعد وصوله الى المانيا بنحو عام، فحال ذلك دون عودته الى فلسطين. وكان لوجوده في المانيا في تلك السنوات اثر كبير على الشبان الصهيونيين الذين وجدوا فيه كاتبا مختلفا كثيرا عن مجموعة الكتّاب اليهود في المانيا. وخلال السنوات الاولى من اقامته في المانيا انصرف الى اعطاء دروس اضافة الى التحرير في مجلة Juedischer Verlag مع Aaron Eliasberg ثم التقى رجل الاعمال الثري شلومو شوكين S. Sehokon وانعقدت اواصر الصداقة بينهما، ثم اصبح شوكين معجبا بعجنون ومساندا وناشرا لمؤلفاته ولا تزال دار نشر شوكين هي الدار الرئيسية التي تقوم بنشر مؤلفات عجنون حتى اليوم. وقد مكنه شوكين من الاستمرار في كتابة قصصه في سنوات الحرب. وقضى عجنون اكثر سنواته ابداعا وانتاجا في المانيا خلال اقامته في فسبادن وهامبورغ بالقرب من فرانكفورت، كما أقام في سنوات الحرب بشكل خاص في برلين وليبزيج ثم ميونخ بعد ذلك. وانهى في تلك السنوات كتابة قصة «هانيداح - المنبوذ» التي بدأ كتابتها في فلسطين، وصدرت في برلين. ولم يكن يعاني مشقة البحث عن سبل العيش، فقد عاش خلال سنوات التضخم بصورة مريحة، كما عاش غيره من الكتّاب اليهود الذين عاصروه، وذلك بفضل دعم أ. ستيبل A. Stybel وبعد «هانيداح» صدرت له قصص «محمات هامتسيق» و «هانجليه في هانستر - الظاهر والباطن»، «لاسونيكا - الى سونيكا» و «معالوت أومورادوت - المزايا

(*) مارتن بوبر (١٨٧٨ - ١٩٦٥) فيلسوف يهودي صهيوني، انضم الى الحركة الصهيونية سنة ١٨٩٨ وكان عضوا في الكتلة الديمقراطية داخل المنظمة التي أعلنت قيامها في ابريل سنة ١٩٠١، والتي كانت تعتبر نفسها بديلا لمنظمة هيرتسل. أسس سنة ١٩١٦ مجلة هي Der Jude كان متأثرا بالحسيدوت.

والعيوب»، «أجدات هاسوفير - حكاية ناسخ التوراة» ونشر عددا من قصصه في تلك الفترة في مجلة «هاتقوفا - العصر».

انتقل بعد الحرب الى هامبورج ، حيث كان عضوا في تجمع الكتّاب اليهود ، ثم تفرغ الى جانب مارتن بوبر خلال فترة ما ، لجمع مجموعة من قصص الحسيديم ، وعينّ في سنة ١٩٢٢ سكرتير أول لجمعية «مقيتسي نيرداميم - موقظو النائمين»، وهي جمعية ناشري الكتب القديمة والمخطوطات . وفي عام ١٩٢٤ ، بينما كان يرقد مريضا في احدى مستشفيات هامبورج ، اندلعت النيران في شقته وفي مكتبته التي كانت تضم نحو ٤٠٠٠ كتاب معظمها نادر الوجود،من بينها مخطوطات من القصص بينها راوية بيتسرور هاحييم» حيث كان ا . ستيبيل A. Stybel قد أعلن نشرها ، وهي رواية تصف تدفق التاريخ اليهودي المعاصر ضد خليفة السير الذاتية. وان التهام النيران لجزء من كتاباته يجعل من الصعب تقويم حجم كتاباته في تلك الفترة المهمة من حياته الادبية ، ومن جهة أخرى فإن تفحص اعماله الأدبية التي نشرت في تلك الفترة يكشف عدة حقائق أساسية :

١) كتب معظم القصص في بولونيا في جو يهودي متدين وظهرت نسخ معدلة من القصص التي كتبت في خلال اقامته في يافا والقدس.وكذلك ظهرت اعمال بارزة مثل « بانيعورنيو أوبزقينينو - في شبابنا وشيبنا»« عوفديا باعال موم - عوفديا ذو العاهة » « بدمي ياميها - في ريعان شبابها » .

٢) كان اسلوب عجنون المميز في معظم قصصه التي كتبت في تلك الفترة يقترب من الاسلوب الشائع : عبرية الكتب التي صدرت عن الحركة الدينية الالمانية في القرن السابع عشر والتي كان بناؤها اللغوي متأثرا بالييدش.

٣) نظرا لتعليق نشر الكثير من المنشورات العبرية ، لم ينشر عجنون أية قصة عبرية خلال السنوات الاولى من الحرب العالمية ، مع ان بعضها ظهر في تلك الفترة مترجما الى الالمانية .

٤) كان قد اكتسب مجموعة من القراء الذين قرأوا بشغف ثلاث مجموعات من قصصه :

« نوادر » (١٩٢١) ، «بيسود يشيريم - في السر المحفوظ» (١٩٢١) ، « عال كبوت هامانعول » (١٩٢٢) .

ثم عاد عجنون في سنة ١٩٢٤ الى فلسطين وأقام في القدس وتفرغ كلية للكتابة ، واتخذ القدس مقرا له حتى وفاته (١٩٧٠) . وفي خلال الاضطرابات التي وقعت في فلسطين في سنة ١٩٢٩ اقتحم منزله في حي تالبيوت واتلف بالتالي العديد من الكتب والأعمال الأدبية النادرة التي تبحث في تاريخ الاستيطان اليهودي في فلسطين .

وفي سنة ١٩٣٤ حصل عجنون على جائزة بياليك عن قصته « بيليف ياميم - في عرض البحر » وفي ١٩٥٠ حصل على الجائزة نفسها عن روايته « أورياح ناطالالون - ضيف المساء » التي صدرت في سنة ١٩٣٨ ، ثم صدرت في سنة ١٩٤٥ روايته الكبيرة « تيمول شلشوم - أمس الأول » التي تدور احداثها حول فلسطين ابان موجة الهجرة اليهودية الثانية .

وفي سنة ١٩٥٤ حصل على « جائزة اسرائيل » للمرة الأولى(*) وفي سنة ١٩٥٨ منحته الجامعة العبرية شهادة الدكتوراة الفخرية على ما قدم من مساهمة للادب العبري والدين اليهودي . وفي سنة ١٩٥٨ منح « جائزة اسرائيل » للمرة الثانية . ثم منحته جامعة بار - ايلان لقب « عضو شرف » في السنة نفسها (١٢ / ١٠ / ١٩٥٨) بمناسبة بلوغه سن السبعين .

وقد حصل عجنون على جائزة نوبل في الأدب بتاريخ . ٢ اكتوبر سنة ١٩٦٦ (وتقاسم الجائزة مع الأديبة اليهودية الالمانية ساكس ١٨٩١ - ١٩٧٠) وجاء في تقرير اللجنة التي منحته الجائزة « ان كتاباته تمثل رسالة اسرائيل الى عصرنا » . وان من اسباب منحه هذه الجائزة « فنه المتميز بعمق استيحاء موضوعات من حياة الشعب اليهودي ، وكونه اول كاتب في اللغة العبرية اخترقت شهرته الحواجز اللغوية .

(*) جائزة اسرائيل : انشأت سنة ١٩٥٣ تمنح من قبل وزير المعارف والثقافة بتوصية من لجنة تحكيمية في الموضوعات التالية : الدراسات اليهودية الأدب الحاخامي ، القانون والعلوم والرياضيات والفيزياء والكيمياء والتكنولوجيا والطب والزراعة والفنون والرسم والنحت والمسرح والموسيقى والرقص وفن الهندسة المعمارية . وتمنح الجائزة سنويا فقط للدراسات اليهودية والأدب والفنون العبرية . يقام احتفال رسمي لمنح الجوائز عشية عيد الاستقلال لدى دولة اسرائيل .

الفصل الثاني

أدب عجنون ومؤلفاته

قبل أن نبدأ الحديث عن أدب عجنون ، لا بد أن نتحدث في عجالة عن البيئة التي تربى فيها ، والتي شهدت ارهاصات شخصيته وباكورة انتاجه الأدبي ، والتي كانت أعماله الأدبية بعد ذلك انعكاسا لما افرزته هذه البيئة من معطيات شكلت المنحى الذي اختطه لنفسه ، والذي عبّر بشكل واضح عن الواقع المعاش في تلك الفترة المبكرة من حياته ، ذلك الواقع الذي لازمه تقريبا في كل انتاجه الأدبي ، مستوحيا شخصيات وأحداث أهم رواياته من خلال ما تركته هذه البيئة وأدبائها من تأثير على نهجه ، الذي تشكل الحركة الأدبية في جاليستسيا ركيزته الأساسية ، اذا جاز لنا التعبير.

بدأ الأدب العبري الحديث في التطور في النمسا ، وبشكل خاص في جاليتسيا التي كانت جزءاً من الامبراطورية النمساوية ـ الهنغارية ، بعد أن دعا القيصر جوزيف الثاني يهود النمسا الى الاهتمام بالثقافة ووعدهم بالمساواة في الحقوق في رسالته « كتاف هاسفلانوت » (١٧٨٢)وظهر آنذاك نفتالي هيرتس فيزل(١٧٢٥ ـ ١٨٠٥) وكتب المؤلفات الأربع «دافار شالوم في إيميت» «(١٨٧١ ـ ١٧٨٤) التي هاجمها المتدينون في حين أيد مثقفو ذلك الجيل ما تضمنته من وجهات نظر جديدة عن التعليم العبري، واعتبر الشباب فيزل مرشدا وموجها مخلصا ، كما يمكن اعتباره «رائد القصيدة العبرية الحديثة» ذلك أن فيزل كان هو الوحيد تقريبا الذي اهتم في تلك الفترة بالشؤون اليهودية ، حيث انصب اهتمام معاصريه على الترجمة من اللغة الالمانية.

وظهر ايضا الربي شلومو يهودا رفوفورت (١٧٩٠ ٨ ١٨٦٧) الذي اعتبره بعض الباحثين ، « رائد الحركة اليهودية » أي البحث العلمي في التاريخ اليهودي والأدب العبري

وفقه اللغة العبرية والفلسفة اليهودية . وظهر في تلك الفترة أيضا ومن جاليتسيا نفسها ، الربى نحمان كروكمال (١٧٨٥ ـ ١٨٤٠) الذي ألف كتابا واحدا نشر بعد وفاته وهو «موري نفوخيى هازمان - دليل الحائرين» وكذلك الكاتب الناقد يوسف بيرل الذي عالج الشؤون السياسية والاجتماعية (١٧٧٣ ـ ١٨٣٩) ويتسحاق ارطل (١٧٩١ ـ ١٨٥١) وهو كاتب ناقد، هاجم بشدة وجهة النظر القائلة بأنه يكفي اليهود أن يؤدوا الفروض التي تنظم شؤون الحياة بين الانسان وأخيه الانسان ، وأبدى غضبه وتذمره من خفايا «القبلاة» والاحلام الكاذبة التي تسللت الى العقيدة اليهودية ويجب ان نشير أيضا الى شلومو لفيزون (١٧٨٩ ـ ١٨٢١) الذي كان من بين من قاموا بدور في وضع «أسس ايجابية» للادب العبري في تلك الفترة. والى الشاعر مئير هاليفي ليطرس (١٨٠٠ ـ ١٨٧١) الذي كان ممن ساهموا في ظهور الأدب العبري الحديث في جاليستيا ، وقد اهتم بالترجمات ذات العلاقة بالشعب اليهودي على خلاف معظم الشعراء العبريين في ألمانيا. والى جانب هؤلاء جميعا ظهر في تلك الفترة ايضا ابراهام جيجر (١٨١٠ - ١٨٧٣) وهو عالم ومصلح ديني ألماني.

ثم طرأ في وقت لاحق تطور ملحوظ على اللغة العبـرية ، حيث بدأ كتّاب وشعـراء وصحافيون يهود يكتبون باللغة العبرية ، وازدهرت الصحافة العبرية وكانت تصدر في شرق اوروبا ووسطها نشرات دورية سنوية وشهرية واسبوعية وصحف يومية بهذه اللغة ، وأهم هذه الصحف جميعا صحيفة هامليتس التي كانت تصدر في بطرسبورج وهاتسفيرا التي كانت تصدر في وارسو ، ومن ابرز المجلات الشهـرية الأدبية في ذلك الحين مجلـة « هاشلـواح- الاطلاق » التي اسسها اشير جينزبرج الملقب باحاد هعـام ثم اشرف على تحريرهـا يوسف كلاوزنر ، كما كانت هناك صحافة أوسع نطاقا تصدر بالييدش التي كان ينطق بها جميع يهود الغرب ، لا سيما يهود روسيا وبولونيا ولتوانيا .

وظهر في الحقبة نفسها ايضا شالوم ابرامـوفيتش ، الملقـب « منـدلى موخير سيفاريم» (مندلي بائع الكتب) . الذي يعتبر في نظر النقاد خالق الاسلوب العبري الجديد . وقد تميز اسلوبه بمحاكاة الاسلوب النثري للمشنا والمدراش. وكذلك شالوم رابينوفيتش (الملقب بشالوم عليخم)، وكانت مؤلفاته باليبدش . ويتسحاق بيرتس رائد القصة القصيرة في الأدب العبري الحديث، الذي كتب أيضا باليبدش وترجمت بعض كتبه الى العبرية .

من الطبيعي ، والحالة هذه ، أن تترك هذه الأمور مجتمعة سواء تربيته الدينية ، أو المناخ الذي ساد في أوساط المفكرين والكتّاب اليهود في تلك الحقبة في شرق ووسط اوروبا ، ان تترك بصماتها جلية على أدب عجنون على امتداد حياته الأدبية . فلقد اتخذ من الشعب اليهودي ومن مشاكله اطاراً يقدم من خلاله نماذجه وانماطه الأدبية التي يعكس بها الحياة والتقاليد اليهودية في كل عصر ، فهو يمزج بين التراث اليهودي القديم وبين حياة اليهود الحديثة والتحليل الدقيق لخبايا النفس اليهودية واحاسيس الفرد اليهودي ومركباته النفسية .

فلغة عجنون حصيلة للقديم والحديث وان طغى الجانب القديم على التطور الحديث في كتاباته . ففيها يتأثر عجنون بالأساليب والتركيبات التي طوعها وجعلها في خدمة الموضوعات المعاصرة .

كما تصور قصصه وروايته جوانب الحياة اليهودية . ويرى بعض النقاد ان عجنون ركز في كتاباته على ابراز التراث اليهودي ، وهذا ما يظهر جليا في معظم اعماله الأدبية ، وهناك جانب بارز آخر في معظم رواياته هو إستخدامه الأساطير والمأثورات والحكم والأمثال اليهودية القديمة ، وهذا ما سنعرض له في حينه من خلال عرضنا لرواية « تيمول شلشوم ـ الأمس الأول » موضوع البحث .

يعد عجنون من كبار كتّاب القصة القصيرة والرواية العبرية المعاصرة .وهناك من يعتبره من أكبر كتّاب الأدب الملحمي في الأدب العبري الحديث ، وتتميز أعماله بأنها تحتوي على الرمز مختلطا بالواقعية والخيال الانداعي ويتحرر في كتاباته من الكتابات ذات الهدف التعليمي داعيا بذلك الى مذهب يهودي في الصراع الداخلي للنفس .

وقد صور عجنون الحياة اليهودية في جاليتسيا في بداية القرن التاسع عشر ، وكمعظم كتاباته اشتملت على قصص شعبية واستيحاء موضوعات من حياة الشعب اليهودي ، حيث استوحى ابطاله من بين حطام مدينة جاليتسيا بعد استقراره في فلسطين ، كما استوحى عناصر من العهد القديم والأدب التلمودي .

وهناك من يقول أن جميع أعمال عجنون هي « المحصلة النهائية لمراجعات الروائي

الفرنسي مارسيل بروست(*) التي لا تحصى ، كما ظهرت في كثير من المخطوطات التي ما زالت موجودة ومن كثير من النصوص المطبوعة . وقد قطعت كل جملة مرات ومرات في بحث دؤوب للوصول الى الايقاع السليم . وقد قال عجنون أن جميع رواياته « قد بدأت بالنسبة لي ، بالسؤال عن الأصح » .

وعلى الرغم من أن البنية الأدبية لاعمال عجنون تضع مشاكل كثيرة امام المترجم . فان قدرته على خلق « الشخصية التي لا تنسى » وفي استيحاء ما هو غريب وما هو مسرف في الخيال ، لا تخطئها الفراسة .

ويميل نقاد الأدب الى المقابلة بين عجنون وتوماس مان أو كافكا فعجنون يتفق مع توماس مان في الاهتمام بالطبقات الشعبية وعرض هذه الطبقات في اسلوب تهكمي لاذع كما تغلب على اسلوبهما الدقة في عرض حياة الفرد واستعداده ومهنته .

أما وجه الشبه بين عجنون وكافكا فالاتفاق في المظاهر الخارجية مع بعض الفوارق وذلك لان كافكا كان يعيش في بيئة كلها خوف فضلا عن المرض الذي أودى بحياته .

ويرى كورتسفيل انه لا يمكننا أن نفهم كتابات عجنون « الا من خلال النظرة التي تقول اننا نستطيع أن نقدر وأن نحب ما فقدناه . بيد أن هذا الحب لم يبق على صورته الساذجة ، بل إختلطت فيه أسس التشكيك واليأس والمسافة التي تفصل بين هذا الحب وبين المصدر المنشود . وقد استطاع عجنون ، الى حد ما ، ان يطمس هذا الأساس . فالمزج بين البراءة الطبيعية والخداع الخيالي ، يخدع القارىء ويضع البحث الأدبي أمام مهمة صعبة . وكل تعريف محدود لجوهر انتاجه من شأنه ان يفشل ، فليس هذا ادبا شعبيا ولا دينيا . والشيء المميز «للتيار المعتدل في انتاجه الأدبي هو أنه يسمح لاسس الحياة اليهودية بأن تظهر كما هي. فشخصيات الروايات توصف طبقا لشرعتها الداخلية ولا تقاس بمعيار من خارجها» .

لقد كان اسلوب عجلون الأدبي يعكس موضوعات ذات خلفيات كثيرة ومتمايزة .

(*) مارسيل بروست ، كاتب روائي فرنسي (١٨٧١ - ١٩٢٢) الذي تعد روايته البحث عن الزمن المفقود La Rocherche du temps pordu من اروع روايات الابداع الخيالي في الأدب العالمي كما ان اسلوبه النثري فريد من نوعه في الدمج بين الكلاسيكية والرمزية .

حيث كان يستمد خلفيات رواياته من بوتشاتش مسقط رأسه واليشوف اليهودي في فلسطين في بداية القرن العشرين والعالم المعقد في وسط اوروبا وغربيها ، ثم القدس ، التي استقر فيها منذ سنة ١٩٢٤ وحتى مماته . ومع ذلك فان هذه الاماكن لا تستهلك كل خلفيات رواياته . اذ أن عجنون لم يكن مهتما فقط بحياة اليهود المعاصرة « وكأنها جاءت من فراغ ، دون ذكر الفحوى التاريخي وغير التاريخي الشامل » . فقد كان مهتما بالحياة اليهودية على مر الأجيال ، يأخذ اليهودية كما هي في بلده الأم ، بوتشاتش ويقارن بها الوضع المعاصر . ففي كثير من قصصه يعود الى بولندا في القرن الثامن عشر حيث يستطيع ابطالها ان يتصرفوا كأبطال وكأتباع اليهودية الحقيقية ، من وجهة نظره ، في عالم لا يدنسه الشك أو أية ايديولوجية مخالفة ، بغض النظر عن كونه هذا عالما صحيحا تاريخيا ام عدم كونه كذلك . وهناك من يرجعون هذا إلى تأثره بالحسيدية ، التي يعتبرونها « أحيت نشاط المفكرين اليهود » .

ورغم الخلفيات المتنوعة التي يستخدمها في قصصه فان بالامكان استعراضها في ضوء تصويره الحياة اليهودية في القرن الثامن عشر ، وهو يتجاوز بذلك حدود الفترة المعاصرة . ومهما يستعمل من أساليب في تحليله لمواقف الناس والمثل والمعتقدات والمجتمع المعاصر ، فانه يريد ان يقول ان ما كان حيا آنذاك يمكن أن يبقى كذلك اليوم ايضا . ولذلك فان شخصياته لا تعيش بمعزل عن مجريات التاريخ اليهودي . فالتاريخ اليهودي بالنسبة لعجنون « ماضيه وحاضره واحد يسير بشكل متزامن في الماضي والحاضر والمستقبل » .

ويجتمع في أدب عجنون تأثير الأدب الحسيدي والمنحى « التقوى الذي نشأ في المانيا في القرن السابع عشر » مع الاساليب النفسية والرمزية والواقعية في الأدبين الاسكندنافي والنمساوي - الهنغاري . ويرتكز اسلوبه بشكل أساسي على النثر الحاخامي الحسيدي للفترة التي تسبق مباشرة تطور الأدب العبري الحديث وتظهر فيه بصمات واضحة لكتاب جاليتسيا العبريين مثل مناحيم منديل ويوسف بيرل .

ويرى بعض النقاد في اسلوبه محاولة لابراز التناقض في كتابة القصص الحديثة بلغة قديمة مقدسة ، من خلال استخدامه اساليب توراتية وكلمات بتهجئة يديشية . ويفسر آخرون ذلك بأنه محاولة للحفاظ على الصفة المميزة للمصطلحات اليديشية المستخدمة من قبل الكثيرين من شخصيات رواياته التي تتعلق بجاليتسيا .

ويمكن القول أن عجنون ينحى منحيين في كتاباته ، بينهما بون شاسع : فمن ناحية هناك الاسلوب المستمد من المدراش ، وهو يمثل القصة الاخلاقية التقليدية التي تروى بالطريقة الحسيدية ، وتعود خلفيتها عموما الى المدينة اليهودية ، وتدور بنيتها حول رجل كامل الايمان يتغلب على جميع الصعاب في عالم قاس . ومن جهة اخرى المنحى الدنيوى الذي يتمثل في القصة التي تستخدم أكثر الأساليب النثرية معاصرة ، لتقدم لنا صورة سيكولوجية ضمن حبكة معاصرة معقدة . غير أن كلا المنحيين يبرز الآخر ، وقد يصل الامر الى حد أن يسخر أحدهما بالآخر . فالعالم الحديث غير بعيد عن ذلك العالم المثالي الذي يراه عجنون ، الا أن هناك حلقة مفقودة في الوسط ، يتعذر العثور عليها . ومحاولته العودة الى القيم القديمة ووضعها في قالب معاصر تقود القارىء الى تأويلات كثيرة لاعمال عجنون ، علاوة على أنه « مشهور بغموضه » .

وليس هناك خلاف تقريبا على مسألة ان انتاج عجنون الأدبي على اتصال دائم بالتاريخ ، وإذا كان هذا التاريخ يعني احداثا ذات أهمية خاصة ومصيرية لمجموعة من الناس . ويرى البعض أن « روايات عجنون الطويلة تنطبق عليها تلك القاعدة التي صاغها نور تورب بري ، والتي تقول بأنه كلما اتسعت الرواية ، مالت بالتالي الى أن تضم في سياقها أسسا تاريخية . »

والقصص المكتوبة بالاسلوب الحسيدي ،تدور عادة حول بطل متدين يحافظ على ورعه ضد الالحاد ويتمسك بمعتقده في وجه العلامات البينة للاتجاه المضاد ، فكل شيء يؤيد وجهة النظر التي يتبناها . ويستخدم في هذا الاسلوب رموزا تعود الى التقاليد اليهودية وابراز تدخل المعجزات في الأحداث اليومية . وان كان عجنون قد نفى ذلك عندما سئل عن تأثره في بعض رواياته الطويلة بالأديب ي . ل بيرتس حيث قال : « بيرتس يتحدث عن معجزات وانا اتحدث عن الأمور كما هي » .

ومن النمط الثاني ، العلماني او الدنيوي يستخدم التكنيك الروائي الذي يعبر فيه الرمز عن شيء لا يمكن لشخصية القصة أن تستوعبه .

فالحدث في القصة الحسيدية يمكن ان يسمى معجزة . كما أن الحدث في القصة الحديثة يمكن أن يسمى حدثا رمزيا . بمعنى أن المعجزة هي الطابع المميز للقصة الحسيدية والرمز هو

الطابع المميز للقصة الحديثة .

وهناك من يرى أن هذين النمطين هما تعبير عن « عدم التناسق بين الوعد الالهي والواقع ، كما وأن العودة الى أرض الآباء هي لذلك عودة متأخرة ، عودة مأساوية . ويمكن التغلب على عدم التناسق بين الحاضر والماضي ، عن طريق الانسحاب الذي هو في الواقع هروب متناقض الى عالم الآباء العقائدي . ويرد عجنون على كشف عدم التناسق المؤلم بين الحاضر والماضي بالاعتقاد بأن عدم التناسق سيلغي في المستقبل ، وبالتالي يتماثل الحاضر والماضي والمستقبل » .

ولكن هيلل فايس وهو من النقاد الذين تناولوا اعمال عجنون بالنقد والتحليل ، يذهب الى رأي آخر يتمثل في استنتاج مؤداه ان « عجنون يعكس في كثير من قصصه حكم الخلاص ، ويخلط بين الماضي والمستقبل . فالخراب والخلاص مرتبطان بعضهما بالبعض الآخر » . وان عجنون ، حين يرثي في كثير من قصصه العالم القديم الذي فقد يرثى افول العقيدة وتدني تعليم التوراة ، فلا يعني هذا انه يمثل « احساسا بالضياع واليأس ، بل ايمانا بالخلاص المنتظر في المستقبل » .

ويرى كورتسفيل ان عجنون يعالج موضوع الواقع اليهودي كروائي اسطوري بحت . فواقعه هو واقع تلك البلدة اليهودية بكل ما فيه من جوانب السرور والحزن . وقد استسلم له كظرف من ظروف الطبيعة ، فهناك جوانب عزيزة في ذلك الواقع ، وهو يمثل « عالم الطفولة الذي منح الفنان المشهد غير المتكرر والذي يحن اليه الانسان طوال أيام حياته . عجنون يجند كل وسائله الاسطورية لكي يرسم عالما عزيزا عليه ولكي يخلده . ولكن يبدو أن ، عجنون قد أحس أن ذلك العالم وهو « عالم التوازن النغمي كما يقال ، عالم القيم والمعايير التي لا تقبل التأويل لم يعد عالمنا . زد على ذلك أن هذا العالم يحمل في طياته عوامل ضياعه » .

ففي رواية « الأمس الأول » ، وهي موضوع البحث ، يكرس عجنون كل قدراته في محاولة يائسة من أجل اقامة هذا العالم من جديد وكأنه يصارع الزمن الذي يغير كل شيء. وعلى الرغم من جهده الفني والذي يرمي الى تجميد الزمن ، فانه يدرك ان الزمن هو المنتصر في هذه المواجهة . وهنا النقطة الحاسمة التي تحددت فيها « نظرة عجنون الى اليهودية الارثوذكسية . فمن الخطأ اعتباره كاتبا دينيا بأي مغزى ارثوذكسي . حقا ان رواياته تطرح

وتثير عالم الماضي من خلال الحب والتبجيل ، ولكن ايضا من خلال نظرة الوداع ؛ حيث يرسل الينا هذا العالم ، مجلداً ، ولآخر مرة ، بركاته » .

وتتفاوت آراء النقاد حول مغزى الأساس الديني في كتابات عجنون ، وهل يمكن اعتباره كاتبا دينيا في ضوء تصويره للايمان البريء لشخصيات رواياته البسطاء، وتشديده، على المنحى الديني والدعوة الى التمسك بالمناسك والفروض الدينية؟

ومهما يبلغ التفاوت بين هذه الآراء يبقى قاسم مشترك بينها وهو ان العقيدة الدينية ليست هي التي تحدد طابع أدبه ، ويدللون على ذلك بالقول بأن الأطار النفسي والفني لروايات عجنون لا يتفق مع دائرة الامكانيات الواقعية والفكرية الكامنة في اليهودية الارثوذكسية . فهو لا يتماثل مع شخصيات روايته . فالى جانب النظرة المتعاطفة جدا الى انماط الحياة اليهودية الدينية ، هناك مكان لنظرة اخرى ، ويمكن أن نجد ذلك في انتقاد عجنون في رواية « الأمس الأول » لسكان حي ميئاه شعاريم في القدس المغاليين في تدينهم ، وان كنا نجد في الرواية نفسها دعوة مستمرة الى الحفاظ على المناسك الدينية والقول بأن البعد عن الدين اليهودي وقيمه تجلب الكوارث . فصورة اليهودية في كتابات عجنون ليست متكاملة ، ومن الصعب افتراض ان وراءها موقفاً دينياً مستقراً وثابتاً . فالصيغة التقليدية التي يضفيها عجنون على رواياته هي « القشرة الخارجية فقط . وتستخدم ايضا قناعا في الاتصال بين الأديب وقرائه » حقا ان للاساس الديني أهمية خاصة في روايات عجنون ، الا أن هذا لا يمكن أن يحوله الى كاتب ديني . ويمكن القول ان رواياته « هي مظهر خاص لتشكيل الاساس الديني في الأدب العبري العلماني » .

تدور المشكلة الدينية في كتابات عجنون حول كشف الواقع الذي تتناقض فيه اليهودية التقليدية ، ولكن دون اتخاذ موقف حاسم في هذه المسألة . فالاساس الديني لدى عجنون يتعدى كونه دافعا فنيا محضا ، ويقود دائماً إلى مراكز الصراع حول تفسير الوجود اليهودي .

ويبدو أن عجنون ينطلق في هذا الموقف من معارضته لتمجيد صور الحياة التقليدية التي تعتبر استمرارا لما نادى به رجال الهسكلاه . غير أن الامر يختلف لدى عجنون عنه في روايات ادباء الهسكلاه . فهو لا يوجه أصابع الاتهام الى اليهودية التقليدية برمتها ، كما فعل رجال الهسكلاه . فروايات عجنون لا تستخف بجوهر الحياة الدينية التقليدية ، بل تطالب اليهودية

التقليدية بأن تبدي رأيها في ضرورة اجراء مراجعة في داخل اطارها هي ذاتها . مما يدفع عجنون الى كشف تفسخ الحياة الدينية ، على النحو الذي أشرنا اليه حين تحدثنا عن موقفه من حي ميئاه شعاريهم في القدس ، والذي سنعرض له في حديثنا عن الرواية موضوع البحث « الأمس الأول » كما أنه لا يكل من استنكار تفسخ الحياة العلمانية نتيجة افراغها من المضمون الديني . ويظهر ذلك جليا في رواية «الأمس الأول» التي تنتقد الصهيونية السياسية من ناحية اهمالها المضمون اليهودي لدى المستوطنين الجدد القادمين الى فلسطين .

ولكورتسفيل رأى مفاده ان الرغبة في الابداع الفني هي التي تحدد الى قدر كبير طابع المشكلة الدينية في روايات عجنون .

ويتمثل المنحى الديني في مضمون قصص عجنون ذات الاسلوب الحسيدي بمعجزاتها المتعددة وبأحداثها المثيرة للاستغراب ، لأن « الوضع الدينوي ليس وضعا مطلقا بالنسبة لشخصيات رواية هخنسات كالا «زفاف العروس» : «رغم كل العمق التاريخي للرؤية اليهودية للعالم فان هؤلاء الناس يفتقدون الاحساس بالزمن الذي نرثه نحن من التقليد اليهودي المسيحي » . فالرواية سالفة الذكر هي محاولة لتصوير العالم الروحي ليهود جاليتسيا في القرن الثامن عشر . وجاليتسيا تلك ، مسقط رأس عجنون ، هي عنصر هام في نظرته الى الظواهر التاريخية والى التقاليد اليهودية . ففي هذه الرواية وما على شاكلتها ينغمس عجنون في الجو الديني ، وهذا يعود الى حقيقة نفسية ابطال رواياته . ويستخدم عجنون دائما الغابة كرمز ضد المدنية التي تمثل الأمن والحضارة والثقافة . وتبرز في هذه انتظار أبطال عجنون للمعجزة ، التي ترتبط بالعودة المتأخرة التي يطرحها عجنون في رواية « ضيف المساء » بطابعها المأساوي والذي يبعث على اليأس حيث تصور أفول وخراب المدينة اليهودية في جاليتسيا ، مسقط رأس عجنون .

وهناك مشكلة اخرى مرتبطة بالمشكلة الدينية في أدبه ، وهي مشكلة الصراع بين الاجيال ، التعارض بين العرف الجماعي في المجتمع وبين الاتجاهات الفردية للجيل الجديد ويبرز ذلك بوضوح في رواية تيمول شلشوم «الأمس الأول».

كذلك يرتبط موضوع العودة المتأخرة بموضوع الخروج حيث نجد ان الأسباب تدفع الربي يوديل في « هاخنسات كالا - زفاف العروس » و منشا حاييم من رواية :

«في هاياها عقوف لميشور ـ واستقام المعوج » الى ترك ديارهما هي اسباب اضطرارية ، دون ان يكون لهما خيار في ذلك . وفي كلتا الروايتين نجد أن المرأة هي القوة الرئيسية والفاعلة التي تدفع للخروج . ويمكن أن يكون هدف الخروج في كلا الروايتين هو العودة الى البيت السليم الذي سيقوم على شكل البيت الذي دمر أو الذي سيواجه الخراب ، كما أن الخروج بمحض الارادة ، ليس من الضروري أن يكون ضمانا لنجاح العودة ، والدليل على ذلك ما حدث مع يتسحاق كومر بطل رواية « الأمس الأول » حفيد الربى يوديل .

ويتكرر في هذا السياق موضوع « البيت » وهو يرمز الى عالم الآباء وما يعنيه هذا من تدين وتقاليد . ويرتبط بالبيت « المفتاح » الذي ورد ذكره مطولا في رواية « واستقام المعوج » وقصة « سبور باشوط - قصة شعبية » ، حيث يرمز الى امكانية السيطرة على البيت .

ويرى كورتسفيل ان النظرة الى البيت وبالتالي مغزى الخروج منه من أجل بناء بيت جديد أو اصلاح البيت القديم تتغير دائما في روايات عجنون طبقا لموقفه الديني . فليس هناك رواية من روايات عجنون تطرح موضوع البيت دون ارتباط بالجانب الديني . ويفهم من هذا ان أي وصف اسطوري للخروج لدى عجنون هو وصف للصراع من أجل تفسير العالم الديني التقليدي ومغزاه . ولا يعني هذا انتهاء الصراع دائما بروح التقاليد . ويمكن ان نقول ان المعركة الدينية على البيت وعلى تفسير الخروج والعودة تنتهي في رواية « الأمس الأول » بـ « تعادل » من الناحية الدينية .

وتتدرج في هذا الاطار ايضا مشكلة الزمن في روايات عجنون من ناحية الصراع على الزمن . فصراع الكاتب مع الزمن هو صراع الانسان مع الموت . وتتيح لنا روايات عجنون عموما ان نميز بين ثلاث نظرات بالنسبة للتكوين الزمني ، حسب قول كورتسفيل فهناك روايات مثل « في عرض البحر » تعتبر اعادة بناء شعري للماضي بطابعه الزمني الخاص ، دون التأكيد وابراز التوتر بين الحاضر وبين ذلك الزمن الذي مضى . وهناك روايات اخرى مثل « ضيف المساء » أو « الامس الأول » تستخدم تصادما بين مقاييس زمنية مختلفة بمضامينها وقيمها حيث يجمع الكاتب بين روحه الممزقة والمجزأة في اوقات وأزمنة ذات نوعيات مختلفة ، يتنكر كل منهما للآخر : فلقد فقد اليقين بشأن انتمائه الى زمن واضح المعالم يتحدد عن طريق متطلباته ونوعيته ومضامينه ، وهكذا يتحول الى تائه في مسالك العصور المختلفة بأزمنتها

المختلفة ، بدون أن تكون لديه القدرة على أن يصل في احدها الى بر الامـان . ثم محاولـة الكاتب التحلل من كل هذا بالالغاء المطلق للفروق الزمنية الموضوعية .

وهناك عنصر آخر حرص عجنون على تضمينه معظم رواياته ويتمثل هذا العنصر في مدينة القدس وارتباطها بالشعب اليهودي ، ويصور عجنون العلاقة المتبادلـة بـين القـدس والشعب اليهودي في رواية « الأمس الأول » فيقول : « عهد مقطوع لكل مدينـة ان تتـرك بصماتها على المقيمين فيها . وبالاحرى مدينة الله التي رفعها الله عن كل المدن الاخرى والتي لا تتركها العناية الالهية ابدا. واذا كانت العناية الالهية خفية أو مغطاة ، الا انه يشعر بهـا في أوقات وأزمنة حتى الرجل البسيط من بين اليهود الذي حظى بالاقامة في القدس».«كل من يخرج منها فكأنما يسقط في جهنم». (ص ٢٥٨ و٢٧٤)

ويحاول عجنون في رواياته ، بل أنه لا يكل عن تقريب واقع القدس الى قلوب قرائه ، واضعا أبوابها التي يقترب منها معظم أبطـال رواياتـه بأرواحهـم . ويصـل تعلـق عجنـون بالقدس ، اذا جاز التعبير ، الى حد التمييز بين واقعها المادي الملموس ومكانتها الروحية ، وهناك أمثلة كثيرة في رواية « الأمس الأول » سنعرض لها في حينه .

أما التركيب اللغوي لاسلوب عجنون الادبي فتتحـد فيه « كل صور اسلـوب اللغـة العبرية منذ ثلاثة آلاف سنة . وهو يكثر من استخدام الجناس والسجع والعبـارات الموحية والتلاعب بالالفاظ مثل: «الأمس الأول» ص ،579 » «بياض ضارب الى الظلمة ، وظلمـة ضاربة الى البياض» ، «بالعبرية: ليفنونيت كاها أوكهايون ليفنوني» الأمس الأول، ص **٥٧٩** «عندما يخرجون الى الشاطىء سيرونه، وعندها يرونه فالـويل له»، بالعبـرية : فكنشيتسـوء لاحوف يرئو أوتو، فيلكشيرؤ أوتو أوى فافوى لو» (ص ٢٧٩) «ولكن كانت عظامه وهنة وساقاه منهوكتين وركبتاه خائرتين وأصابع رجليه كليلة. بالعبرية: ميتوخ سيمحا فيتوح بوشـا. . . (ص ٣٩٥)

كما انه يعيد استخدام الطابع الحسيدي نسبة الى الحسيديم للغة العبرية ويحافـظ على التراكيب اللغوية ويستخدم تهجئة يديشية لكلمات اوروبية مثل **Kahue** بدلا من Cafe . بالاضافة الى استخدام المصطلحات اليديشية من قبل الكثـيرين من شخصيات روايتـه فيما يتعلق بجاليتسيا .

ويمكن ان نورد عدة ملاحظات على اسلوب عجنون الأدبي :

١) استخدام الاسلوب الرمزي والامثال بكثرة .

٢) الادوار المختلفة التي يقوم بها الراوي ، من راوٍ يفهم كل شيء ، يتحدث من خلال نظرة تهكمية الى بطل روايته ، الى راوٍ شاهد وبطل متداخل في حبكة الرواية . وهو يغير ادواره مما يخلق بالتالي غموضا في المعاني .

٣) تغير نظرة الراوي الى بطلة من نظرة رفض وريبة إلى نظرة تعاطف وتماثل .

٤) قطع استمرارية الحبكة الروائية بالامثال والأساطير والوصف وتأملات الراوي ويبرز هذا بشكل واضح في رواية « الأمس الأول » .

٥) طرح أسئلة تبدو الاجابة عنها ظاهريا ، في أجوبة تصرف الانظار عن السؤال ، مما يخلق وهم جو خفي تعمل فيه قوى خيالية وتوجد احداثا غامضة لا تفسير لها .

٦) الخلط بين أزمنة الأحداث في استمرار الحبكة الروائية ، وسنرى هذا في عرضنا لرواية « الأمس الأول » فبينما يحكي عجنون عن يتسحاق كومر في فلسطين ، يعود بنا الى جاليتسيا أكثر من مرة . او بينما يكون في يافا يعود بنا الى القدس ساردا احداثا وقعت في فترات سابقة ، رغم انها وردت في حينها .

ويرى بعض النقاد ان عجنون اديب « متعدد الاساليب » كما لقبه الشاعر حاييم نحمان بياليك في احدى مقالاته . ويكثر عجنون من استخدام الامثال ، الى الحد الذي دفع بعض النقاد الى القول بأنه لا يمكن ان تجد صفحة واحدة من كتاباته خالية من تجديد في استخدام الامثال ، ودفعهم بالتالي الى التفكير في اصدار بحث عن استخدامه للامثال . ويمكن ان يعتبر هذا انعكاسا للوضع والظروف الخارجية ، وبشكل خاص الظروف الداخلية ، التي تعيش فيها شخصيات رواياته وطابع رد فعلها . وهو يعبر عن هذا الوضع وهذا الواقع عن طريق الأمثال الشعبية التي تبلور حقائق معقدة جدا احيانا ، وكذلك الالفاظ الموحية ذات الدلالات التي تتفق مع سياق الحدث في الرواية .

كما ان هناك سمة تميز روايات عجنون وهي انها تدفع القارىء ، بعد الفراغ من قراءتها ، الى البحث عن اشياء اخرى بين السطور ، ويمكن ان يردّ هذا الى استخدامه

العبارات والالفاظ الموحية الي تحتمل تأويلات مختلفة ، ناهيك الحديث عن رواياته وقصصه الرمزية مثل «سيفرهاماعسيم» (المجلد الثامن صفحة ١٦٥ ـ ٢٥٨) ، « عادهينا » (المجلد السابع صفحة ٥ ـ ١٧٠) ، هاملبوش (نفس المجلد صفحة ٣٢٠) ، عيدو فيفنام (نفس المجلد ٣٤٣ ـ ٣٩٥) أو « هادوم فيهاكسيه » (صحيفة هآرتس ٤/ ٥/ ١٩٥٨) ، ذلك أن هذه القصص في حد ذاتها تحتاج الى تحليل لما فيها من رموز . وينطبق الشيء نفسه على « سبور باشوط » (المجلد الثالث) « وضيف المساء » (المجلد الرابع) و « الأمس الأول » (المجلد الخامس) .

ان كتابات عجنون تحتاج الى استعداد نفسي والى قدر معين من المعلومات لكي يفهمها القارىء على حقيقتها .

ومما لا شك فيه ان الاساس الرئيسي في اسلوب عجنون الادبي وتركيباته اللغوية مأخوذ من نص الكتب الدينية وكتب الحسيديم . وتختلط فيه مقتطفات ومقالات للحاخامين اليهود ، وكلمات وتعبيرات عبرية وغير عبرية مما يستخدمه اليهود. فمندلي مثلا سيطر على كتاباته اسلوب جزل وجاف . ولكن عجنون اضاف الى مصادر اسلوب مندلي اسلوب سيفري يرائيم (وهي الكتب التي تعالج الموضوعات الدينية والاخلاقية) وهكذا اوصل الى اسلوبه مركبا شعبيا مرنا ، حسيا ولينا ، والكثير من كتابات عجنون مكتوبة بصيغة سيفري يرائيم وسيفري حاسيديم التي تتضمن (امثالا وأعمالا مأثورة وعبر ومعجزات الصديقين وتفسيرات للامور الاخلاقية وما شابه ذلك).

كما استخدم عجنون اسلوب الرواية على لسان الحيوان ، ومثال ذلك « الديك » في رواية « زفاف العروس » ، و « الكلب ـ بالاك » في رواية « الامس الاول » .

تحدثنا في عرضنا لحياة عجنون وأدبه عن الانعكاسات التي تركتها البيئة التي تربى فيها ، سواء من ناحية محيطه الاسروي أو من ناحية الحركة الأدبية في جاليتسيا . ويمكن أن نضيف الى ذلك ـ تأثر عجنون بالحركة الحسيدية ومنحاها الديني الذي ترك بصمات واضحة على كتاباته الى درجة ان هذا المنحى يمثل النمط الاول من النمطين اللذين يمثلان الاسلوب الأدبي في كتاباته . . كما تأثر أيضا بحركة الهسكلا التي انتشرت في شرق اوروبا في القرن التاسع عشر وبكتّاب هذه الفترة في جاليتسيا الذين تأثروا بدورهم بكتّاب اوروبيين .

ولقد تأثر عجنون في كتاباته بالكاتب المسرحي والشاعر النرويجي هامسون كنوت Hamsun Knut (١٨٥٩ ـ ١٩٥٢) من ناحية التهكم والانتقاد الشديد للطابع المادي للحضارة الحديثة . كما تأثر عجنون بالاساليب النفسية والرمزية والواقعية للادب الاسكندنافي والنمساوي ـ الهنغاري والنثر الحاخامي الحسيدي للفترة التي سبقت مباشرة تطور الأدب العبري الحديث . كما أنه يدين بالكثير الى كتّاب جاليتسيا العبريين الذين سبقوه ، مثل مناحيم منديل و ى . ليفين وحاييم بيرل .

لقد تجمعت في مكوناته الثقافية والفكرية انعكاسات مجتمعات متناهية في اختلافها . فمن المجتمع التقليدي المتدين في جاليتسيا في اوائل القرن التاسع عشر وحتى اهل الفكر المتحرر في القدس ، ومن بينها مجتمع بوتشاتش ، مسقط رأسه ايام صباه ، ويافا والقدس عندما هاجر الى فلسطين،ويهود المانيا في الفترة التي عاشها هناك والتي امتدت من ١٩١٣ حتى ١٩٢٤ ولقد استوحى عجنون ابطاله من بين حطام جاليتسيا ، حتى بعد استقراره في فلسطين ويتمثل ذلك في رواية « الأمس الأول » . وهذا دليل واضح على ان الحياة اليهودية في جاليتسيا وما رافقها من تطورات خاصة في المجالات الدينية والفكريه ، كانت من بين العناصر الرئيسية في ثقافته وفكره ، والتي تبلورت بالتالي في أعماله الأدبية . وقد اعتبرها كورتسفيل عنصرا مهما في « مناقشة نظرة عجنون الى الظواهر التاريخية والى التقاليد وعالم السلطة » . ففي جاليتسيا ظهر كتّاب وأدباء عبريون كبار في سياق تطور الأدب العبري فيها ، في عهد القيصر فرانتس يوسف الذي كان محبوبا لدى اليهود . كما تأثر بالاديب يوسف حاييم برنر (١٨٨١ ـ ١٩٢١) وسمحا بين تسيون (١٨٧٠ ـ ١٩٣٢) الذي نشر في سنة ١٩٠٦ اول قصة عبرية لعجنون في صحيفة « هاعومير » .

مؤلفات عجنون

كانت الطبعة الاولى من اعمال عجنون ، المجموعة في أربعة مجلدات (١٩٣١) تضم قصصا مختارة نشرت حتى منتصف سنة ١٩٢٩، وكذلك الطبعة الثانية من قصة « زفاف العروس » (١٩٣٧) التي ادخل عليها اضافات حتى صارت رواية طويلة ، وقد اشتهرت هذه الملحمة الشعبية بأنها ركن من أركان الأدب العبري الحديث . ثم صدرت له مجموعة قصص « بيشوفا اوبناحت ـ بهدوء » (١٩٣٥ ، ومجموعتان من القصص الاسطورية « ياميم

نورائيم - أيام مخيفـة » (١٩٣٨ و١٩٤٨) . ومقتطفـات ادبية مختـارة من تقـاليد الأعياد الرئيسية « سوفير فيسبور - أديب وقصة » (١٩٣٨) حول الكتب والكتّاب . وكانـت قد صدرت له قصة « سبوربا شوط ـ قصة شعبية » (١٩٣٥) وهي قصة ترسم الصراع بين الجيل الجديد والجيل القديم في مدينة بوتشاتش في جاليتسيا . ونشرت مجموعة قصص « سيفرهاما عسيم ـ كتـاب الاعمـال » . في سنــة ١٩٣٢ ، ثم تبعهــا « بــات شليما ـ رغيف كامــل » (١٩٥٦) . وقد ذهل القراء من الطابع الشبيه بالكابوس ، السائد في هذه الاعمال القصصية القصيرة التي « عبرت بصورة فنية عن اضطراب الكاتب وهو يقف على العتبة الفاصلة ما بين العالم القديم والعالم الجديد » كما تتمثل بازالة الحدود بين الواقع والخيال والبيئة المربكة ، في قصص « بانيم احيروت ـ وجوه اخرى» و «عافار إيرتس يسرائيل ـ تراب ارض اسرائيل» ومن «بياعر أو باعير ـ في الغابة والمدينة» وقد جمعت هذه القصص سنة ١٩٤١ في مجموعة «ايلو في ايلو ـ هؤلاء وأولئك». وظهرت بالاضافة الى ذلك ، في الثـلاثينيات قصص أصبحـت نوى «الأمس الأول» ربي جرونام ياقوم بوركان (١٩٣١) «تحيلاتو شيل يتسحاق ـ بداية يتسحاق» (١٩٣٤) و «بالاك» (١٩٣٥)، وقد صدرت «الأمس الأول» في ١٩٤٥ . وتتحدث الرواية عن قصة مدينتين يافا التي ترمز الى الاستيطان العلماني الجديد في فلسطين، والقدس التي تمثل البلاد المقدسة التقليدية ، ويتسحاق كومر بطل الرواية ، انسان ممزق بين حضارتين، غير قادر على الاندماج في أي منهما. وقصة الكلب «بالاك» الذي يمثل الشطر الثاني من شخصية كومر وهي كما قلنا سابقا من نوع القصص المروية على لسان الحيوان. وتدور الرواية عموما حول الاستيطان اليهودي في فلسطين في مرحلة الهجرة الثانية (١٩٠٤ ـ ١٩١٤). كما نشرت روايـة «ضيف المساء» بشكل متسلسل في صحيفة هآرتس من ١٨ اكتوبـر ١٩٣٨ وحتـى ٧ أبـريل ١٩٣٩ ، ثم صدرت بعد ذلك في قصصه المجموعة (١٩٣٩ و١٩٦٨). وهي تحكي قصة كاتب قصصي مجهول قام بزيارة مدينته في جاليتسيا بعد غياب سنوات عدة فيشاهد خرابها . وهي تعكس وقوع امور عديدة غيرت تغييرا حادا من طبيعة الحقيقة اليهـودية. ورغـم أن النـواة

(*) « بالاك » هو اسم ملك موآب بالاك بن صفور وله دلالته في رواية «الأمس الأول» ذلك انه عندما كان اليهود تائهين في الصحراء وصلوا الى حدوده ،فطلب من بلعام ان يلعنهم، ولكن النقمة انقلبت الى نعمة ، كما جاء ذلك في العهد القديم ، في سفر العدد في الاصحاحين ٢٢ و٢٣ «ولما رأى بالاك بن صفور ما فعل اسرائيل بالاموريين . . . » .

الاساسية لهذه الرواية كانت زيارة عجنون القصيرة لمدينة بوتشاتش في سنة ١٩٣٠ . الا ان هذه الرواية تصور فقدان الامل والضياع الروحي للعالم اليهودي في تلك الحقبة في اوروبا وفي فلسطين. وتقدم الرواية صورة مرعبة للمدينة (بوتشاتش) التي ترد في الرواية تحت اسم شيبوش فمعابدها خاوية وانسانها يتمزق، ومجتمعها يحتضر، ومع ان احداث الثلاثينات هي التي حفزت عجنون على كتابة هذه الرواية فانه لمن المهم ان نلاحظ انه حتى في كتاباته خلال شبابه، تصور هذه المدينة كمدينة اموات، وفي بعض الاحيان يشبه أسلوب القصة في هذه الرواية «سيفرها ماعسيم»، حيث يسجل فقدان الامل بتصويرات تحدث صدمة لدى القارىء.

وفي ١٩٥٣ اصدر الطبعة الثانية لاعماله المجموعة في سبعة مجلدات ، وظهر المجلد الثامن « هاإيشا فيها عيتسيم - المرأة والاشجار » في سنة ١٩٦٢ . ورغم هذا فقد اغفل الكثير من قصصه ومن بينها « شيرا » وهي قصة تصور المجتمع الاكاديمي في القدس . ومع نشر الطبعة الاخيرة تلك ، أصبح من الممكن للمرة الأولى تقييم مجال كتاباته : الحكايات الشعبية والروايات والقصص الوجودية . وبعد ظهور طبعة سنة ١٩٥٣ نشر عجنون حوالي ٦ قصص قصيرة ، كل عام ، بشكل اساسي في صحيفة « هآرتس » ومعظم هذه القصص تبحث في موضوع مدينة بوتشاتش . ونشر في كتب منفصلة « أتيم رائيتم » وهي مجموعة من الأحكام الحاخامية المتعلقة بالوحي في سيناء (١٩٥٩) وكتاب « سيفريهم شيل هاتسيديقيم - كتب الصديقين» وهي قصص عن كتب الربي «باعال شيم طوف» وتلاميذه (١٩٦١).

وقد جمعت مؤلفات عجنون في تسعة مجلدات اصدرتها دار شوكين للنشر ، ثمانية منها صدرت قبل وفاته وتضم ٣٦٠٠ صفحة من القطع المتوسط . وصدر المجلد التاسع في سنة ١٩٧٩ ، اي بعد تسع سنوات من وفاته ، ويضم ١٩٩ صفحة بالقياس ذاته . وتضم المجلدات التسعة نحو ٤٦ قصة ورواية ، وهي على النحو التالي :

١) المجلد الأول (٤٧٢ صفحة) رواية « زفاف العروس »

٢) المجلد الثاني (٥٥٣ صفحة) ويضم تسع روايات وقصص .

٣) المجلد الثالث (٤٩٢ صفحة) ويضم ثمان قصص .

٤) المجلد الرابع (٤٥٠ صفحة) ويضم رواية « أورياح ناطا لالون - ضيف المساء » وهي

الرواية التي تصور أفول وفناء الحياة اليهودية في جاليتسيا .

٥) المجلد الخامس (٦١٢ صفحة) ويضم رواية « تيمول شيلشوم - الأمس الأول » وهي اطول روايات عجنون وتتناول موضوع فترة الهجرة اليهودية الثانية (١٩٠٤ - ١٩١٤) في فلسطين .

٦) المجلد السادس (٢٩٤) ويضم ست قصص .

٧) المجلد السابع (٣٩٦ صفحة) ويضم عشر قصص .

٧) الملجد الثامن (٣٤٠) ويضم ثمان قصص .

٩) المجلد التاسع (١٩٩ صفحة) يضم قصة واحدة هي « كوروت باتينو » وقد صدر عن دار شوكين للنشر من سنة ١٩٧٩ بعد تسع سنوات من وفاة عجنون .

نبذة عن بعض قصص وروايات عجنون

قد يكون من المفيد ان نورد نبذة عن بعض أعمال شموئيل يوسف عجنون الادبية ، من قصص قصيرة وروايات .

١ ـ « آجادات هاسوفير ـ حكاية ناسخ التوراة »

قصة حب رفائيل « ناسخ التوراة » وزوجته مريم . ذلك الحب الذي قصرت الكارثة أيامه وحكمه القدر بمصير مأساوي .

فلقد كان حب رفائيل ومريم حبا مكتملا ، لكن مريم كانت عاقرا وطلبت من زوجها ان ينسخ التوراة من أجلهما ، ليستدرا رحمة ربهما عله يمنحهما ذرية وذات يوم وافت المنية مريم . ولما انتهى رفائيل من نسخ التوراة ، راح يرقص في غرفته مع النسخة الجديدة للتوراة ، ويدندن باللحن الذي أعاد الى ذاكرته عيد « سمحات توراة » « عيد فرحة التوراة » .(*) الذي تعرف فيه على الفتاة مريم ، التي أحرقت طرف معطفه بالشمعة التي كانت تحمل في يدها ، دون أن يدري أن هذه الفتاة ستصبح زوجته . ثم مات رفائيل وهو في حالة الترنح الانجذابي ، ونقلت رفاته الى فلسطين مع نسخة التوراة ، وبسط عليه فستان زفاف زوجته . وقد أهدى عجنون هذه القصة الى زوجته استر .

٢ ـ « أو رياح ناطالالون ـ ضيف المساء »

رواية طويلة من، ثمانين فصلا (٤٥٠ صفحة) ، تدور أحداثها حول أفول وخراب البلدة اليهودية في جاليتسيا ، وهي احدى مقاطعات بولونيا ، حيث يعود الكاتب الى بلده

(*) عيد « فرحة التوراة » ، هو اليوم الثامن من عيد المظال ، ويحتفلون فيه بختام قراءة التوراة .

شبوش (وهي بوتشاتش) مسقط رأسه بعد فترة قضاها في فلسطين . بينما كانت البلدة في حالة خراب شبه تام ، ويتملكه الحنين الى اطلالها . ولقد شكلت انطباعات عجنون عما حدث لبلدته خلفية اعتمد عليها في كتابه هذه الرواية، التي تصور تدهور البلـدة اليهـودية المادي والروحي .

ورواية « ضيف المساء » هي بمثابة يوميات مليئة برموز الخراب وشرح لجذور المأساة . اما شخصيات البلدة ، في الرواية ، فهم من بقى من سكانها منذ أيام ازدهارها . والواقـع اليهودي ، كما تصوره الرواية ، هو واقع دمار ، وانهيار اقتصادي ، ومآسي وكارثة ، هجرة وفرار ، وعاهات جسدية ، ومرض ، والحاد وانحلال خلقي .

وأهم الرموز المستخدمة في الرواية ، مفتاح معبـد البلـدة (شبـوش) الذي يخلو من رواده . فقد سلم هذا المفتاح الى الكاتب الذي يحل ضيفا على البلدة ، لكنه يضيع منـه . ويصنع مفتاحا آخر بدلا عنه ويهديه الى طفل صغير ، نجل راحيل ويروحام حوفش . وعند عودة الكاتب الى القدس يعثر على المفتاح الاول وسط حاجياته .

ويستخدم عجنون رمز المفتاح في هذه الرواية في تناوله لمسألة « التلاحم » اليهودي في المهجر وفي « ارض اسرائيل » .

٣ - « بديمي ياميها - في ريعان شبابها »

قصة اسطورية مكتوبة باسلوب توراتي ، يغلب عليها الطابع الرومانسي الرمـزي ، الذي يرتكز على الاعتقاد السائد في معظم قصص الحب لدى عجنون ، بأن الحب هو قدر لا يجوز أن يحيد المرء عنه . فاذا لم يتحقق هذا القدر في الجيل الأول ، فانه ينتقـل الى الجيل الثاني ، ويلقي على عاتقه مسؤولية خلاص الحب المظلوم . فلا صلاح للحب الا بتنفيذ اوامره الخفية ، حتى وان كانت تتعارض مع المنطق السليم او مع البديهيات الاجتماعية .

تحكي القصة ما كان من امر ليئا ، الفتاة العليلة ، التي زوجها والدها من مينتس التاجر الغني الذي كان قادرا على تحمل نفقات علاجها ، ولم يزوجاها من عقافيا ، ذلك الطالب الفقير الذي أحبت . ولقد تسبب هذا الخطأ المصيري الذي ارتكبه والدا ليئا في وفاتها في ريعان شبابها .

ولقد حاول عقافيا ان يوضح لوالدي ليئا ، ان سر علاجها يكمن في تحقيق حبها الحقيقي ، ولكن اباها لم يسمع لكلامه . وتمر الايام ، ولا تجد ليئا علاجا لحبها المظلوم ، لا في حب زوجها الطيب ولا في حبها لابنتها ترتسا . وكانت حياتها احتضاراً . ماتت ليئا ، وبقيت ابنتها ترتسا ، التي سترفع هذا الظلم بحبها لعقافيا . فعلى عكس امها لم تخضع لظروف الواقع وقواعد المنطق الجامد ، بل تمردت وتزوجت عقافيا ، حبيب امها . وعلى الرغم من فارق السن ، ومن الفقر ، وجدت ترتسا سعادة في حياتها معه .

٤ ـ « بين شيتي عاريم ـ بين مدينتين »

موضوع هذه القصة ، جو الحرب العالمية الاولى في بلدة ألمانية نائية ، تتكون من قسمين ، كتسناو المدينة وكتسناو المصيف .

فعلى امتداد سنوات طويلة ، كان يخرج ابناء كتسناو المدينة في ايام السبت للتنزه في كتسناو المصيف . حتى جاء ايزيدور شالطياهر ، الذي اكتشف ان المسافة بين المدينتين اكبر من المسافة المسموح بالذهاب اليها يوم السبت . ومنذ ذلك الحين كف سكان كتسناو المدينة عن التنزه في كتسناو المصيف ، ولم تستطع الشقيقتان ليزا ومرجريت ، التي تقيم احداهما في المدينة ذاتها والاخرى في المصيف ، ان تلتقيا الا لبرهة في الغابة التي تفصل بين المدينتين .

وترمز القصة الى الخراب الذي خلفته الحرب العالمية الأولى ، وما سببته من مشاكل ومعاناة ليهود ألمانيا .

٥ ـ « بيلفاف يا ميم ـ في عرض البحر »

تعرض القصة هجرة أول مجموعة من الحسيديم الى فلسطين . وتضم هذه المجموعة تسعة أشخاص من بوتشاتش ، مسقط رأس عجنون ، وقد انضم إليهم ، لاستكمال العدد اللازم للجماعة في أداء الصلاة ، ضيف فقير اسمه حنانيا ، وهو شخصية غريبة على شاكلة الرمزية العجنونية .

تصور القصة في جو صوفي رمزي ، لحظات الوداع بين المهاجرين ومدينتهم بوتشاتش ، والصعوبات التي لاقوها في استيطانهم في فلسطين . غير أنهم يعتبرون ما مر بهم

عمل من « أعمال الشيطان » او « آلام المسيح » .

وبطل القصة ، حنانيا ، الشخصية الغريبة ، هو رمز التجوال والمعاناة والاضطهاد ، ومع هذا فانه يجسد النقاء والفضائل والتطلع الى الخلاص .

٦ ـ « ها أدونيت في هاروخيل ـ السيدة والبائع المتجول »

تحكي قصة بائع يهودي متجول ، قاده طريقه بالصدفة الى احدى الغابات حيث يوجد فيها بيت وحيد . وحاول ان يبيع بضاعته لصاحبة البيت ، ثم غادر المكان ، ولكنه عاد اليه مرة اخرى ، لأنه لم يستطع مواصلة السير في طريقه بسبب الامطار ، وتوافق السيدة صاحبة البيت ، على استضافته . وشيئا فشيئا اخذ يتقرب كل منهما من الآخر ، الى درجة الحياة المشتركة . غير أن جو البيت المفزع وطبيعة السيدة الابتزازية تخيف البائع المتجول ، الذي يحاول الهرب ، ولكنه لا ينجح في ذلك . وفي النهاية ، وبينما هو خارج البيت لتلاوة آيات من التوراة تبدأ بـ «اسمع يا اسرائيل». لأنه لا يجوز تلاوتها في داخل البيت بسبب وجود ايقونات مسيحية فيه، تدخل السيدة لذبحه فلا تجده فتجرح نفسها وتموت. ويقوم البائع بدفنها في الثلج، وذهب في سبيل حاله ليبيع بضاعته.

٧ ـ « هخنسات كالا ـ زفاف العروس »

رواية اسطورية فولكلورية طويلة عن يهود جاليتسيا في النصف الاول من القرن الثامن عشر . تجمع بين التصوير الواقعي والتهكمي وبين عناصر اسطورية وأمثلة شعبية ، تتعدى أكثر من مرة حدود الخيال .

بطل الرواية هو الربي يوديل حسيد ، الذي يتجول بين طوائف جاليتسيا ليجمع نقودا لتزويج بناته الثلاث . وتقدم هذه الجولة الى القارىء العديد من الشخصيات والاماكن ، وأنماط حياة وأمزجة ، ويزخر كل هذا بشروح ومادة فولكلورية واثنوجرافية وفيرة . يغلب على هذه الرواية ، مثل الكثير من اعمال عجنون الأدبية ، طابع كتب الحسيديم . والشيء الملفت للنظر في هذه الرواية هو انه حتى الطبيعة والحيوانات يهودية . فمثلا زوج الاحصنة « مشكانى » و « ناروتسا » يتحدثان فيما بينهما عن مقالات الحاخامين اليهود ، والفأر

والدجاجة هما متفقهان في التوراة .

كما أن بنية الرواية تعيد الى الأذهان نمط رواية دون كيشوت لسير فانتس(*) ورحلات بنيامين الثالث لمندلي موخير سفاريم(*) .

٨ - « هاروفيه في جروشاتو - الطبيب ومطلقته »

تعتبر واحدة من أجمل قصص عجنون ، وتحكي قصة طبيب تزوج ممرضة من المستشفى الذي كان يعمل فيه . ومنذ اليوم الذي صارحته فيه أنها كانت على علاقة برجل آخر قبل ان ترتبط به ، تملكه الهم .

فبقدر حبه لها كانت معاناة وآلامه . وأخذ يضايقها ، حاول أن يخنق جنون الغيرة ، الذي ملك عليه نفسه ، لكن دون جدوى . وقادت الصدفة ذلك الرجل الذي كانت زوجة الطبيب على علاقة به قبل زواجهما ، الى المستشفى مما يؤدي الى زيادة توتر العلاقات وزيادة جنون الغيرة لدى الطبيب . ثم يقع الطلاق بينهما . لكن الطبيب ، الزوج ، لم يستطع . حتى بعد طلاقه من زوجته ، ان يتخلص من حبه لها ومن غيرته عليها . فهو يحلم بها ويحن اليها مما نغص عليه حياته .

وتتميز القصة بالاسلوب الرصين والدقة في تصوير مشاعر أبطالـه من خلال التعمـق النفسي فيها .

٩ - « في هايا هاعقوب لا ميشور - واستقام المعوج »

تعتبر هذه الرواية من أول وأشهر روايات عجنون . وقد كتبها في السنوات الاولى التي قضاها في فلسطين . نشرت لأول مرة ، في صحيفة « هابوعيل هاتسعير » ، ثم نشرها يوسف حاييم برنر بعد ذلك (١٩١٢) في طبعة خاصة . ويغلب على الرواية اسلوب كتب الصديقين

(*) « دون كيشوت » رواية اسبانية ألفها سيرفانتس بين ١٦٠٤ - ١٦١٤، وهي من آثار الأدب العالمي ، بطلها دون كيشوت الفارس يرافقه سانشو بانسا خادمه الامين ، حامل سلاحه وصاحب الرأي السديد . تدعو المقابلة بين الفارس وخادمه الى كثير من الاعتبارات المفيدة والمضحكة .

(*) مندلي موخير سفاريم : هو شالوم ابراموفيتش ، وقد تناول انتاجه الفني وصفا دقيقا للجيتو اليهودي في روسيا ، ويمتاز بمحاكاة الاسلوب النثري للمشنا والمدراش .

والحسيديم التي تتناول شرح الجوانب الاخلاقية والعقيدية .

بطل الرواية منشا حاييم وزوجته كرايندل طشارنى يعانيان وضعا اقتصاديا سيئا . ولما استفحل الامر خرج منشا حاييم يستجدي الناس في البلدان التي يعيش فيها اليهود ، حاملا في يده خطاب توصية من حاخام المدنية . لكن التسول يؤدي الى تدهور حالته اكثر فأكثر . وفي خلال تجواله يبيع خطاب التوصية الى متسول آخر ، ويصل الى حالة انهيار تام . ثم مات المتسول الذي اشترى خطاب التوصية من منشا حاييم . واعتقد الناس في المكان الذي وجد فيه ميتا انه منشا حاييم ، حسب خطاب التوصية الذي عثر عليه في جيبه . واوفدوا مبعوثين الى بوتشاتش لابلاغ كرايندل طشارني ان زوجها قد مات وأنها في حل من قيود الحصول على الطلاق .

وتزوجت ارملة منشا حاييم من شخص آخر ، في حين ان زوجها الحي يتجول كمتسول ويحن الى مدينته والى زوجته . وعندما وصل الى بوتشاتش ، وعلم ان زوجته تزوجت بآخر وهي سعيدة بنصيبها ، لم يكشف عن شخصيته لكي لا يعكر سعادتها ، ويتركها تعيش هي وزوجها في اثم كبير .

يعتزل منشا حاييم الناس ويقيم في المقبرة بين شواهد القبور ، صائما حتى يموت . ويقوم حارس المقبرة ، الذي كان مطلعا على حالة منشا حاييم ، بنقل الشاهد الذي وضع على قبر المتسول الذي شخص عن طريق الخطأ انه منشا حاييم ، الى قبره ، وبذلك تنتهي حياة الشخص الذي تدهور الى الحضيض ثم ارتفع من جديد تائبا ومضحيا .

وتتكون هذه الرواية من أربعة فصول يبدأ كل فصل منها بمقدمة مقفاة ، تصف بشكل بسيط ، وتهكمي ، ما سيحدث في خلال الفصل . وتعتبر هذه الرواية واحدة من روايات عجنون التي ترجمت الى لغات كثيرة .

١٠ ـ « عجونوت ـ نساء مهجورات »

أول قصة لشموئيل يوسف عجنون ، نشرت في صحيفة « هاعومير» ، في السنة التي هاجر فيها الى فلسطين ، اي في سنة ١٩٠٩ ، وقد وقعها باسم عجنون ، ومنذ ذلك الوقت أصبح هذا الاسم لقبه الادبي ، ثم اسم اسرته الرسمي ابتداء من سنة ١٩٢٤ .

موضوع القصة هو الحب الذي لم يتحقق ، كما هو الحال في معظم روايات عجنون . قصة حب دينا ابنة الضابط أحيعيزر من القدس ، وبن اورى ، حرفي من عامة الشعب . لكن دينا زوجت من رجل آخر . ويجد بن اورى متنفسا لحبه في حرفته . حيث يشتغل في استكمال تابوت العهد من أجل دينا . وتتملك دينا الغيرة من تابوت العهد الذي يعطيه بن اورى كل حبه ، ويصرف نظره عنها ، مما يجعلها تدفع التابوت وتلقي به من النافذة . وهي لا تستطيع ان تبادل زوجها الحب ، فقلبها متعلق بين اورى الـذي أحبتـه ، ولـكن حبهـا لا يتحقق .

١١ ـ « عاد هينا ـ الى هنا »

قصة طويلة ، تصور زوال عالم الامس ، عالم يهود ألمانيا المادي والثقافي، في الحرب العالمية الاولى.

فالراوي ، بطل القصة ، يتجول بين مساكن ومدن مختلفة في المانيا ، ويحكي في كل مكان من هذه الامكنة قصة الخراب والأفول. ويقوده خطاب من أرملة الدكتور ليفي، يتعلق بموضوع مكتبة زوجها ، بطل القصة ، الى منزل الارملة المريضة « لقد جاء ووجدها مريضة بعد أن انتابها اليأس ، وعاد من عندها تعيسا . لكنه لم يجد مكانا ينام فيه . . . واشفق عليه المكان . . . واعاده الى ارض اسرائيل » .

١٢ ـ « عاد عولام ـ الى الابد »

تحكي القصة ما جرى مع عديئيل عمزا ، الـذي يبحـث في تاريخ مدينـة جوملـدتيا وسقوطها في ايدي الجوطيين. وبعد سنوات، يبدي نصير سخي للادباء والفنانين، استعداده لنشر مؤلفه العلمي، ولكن عديئيل يضيع هذه الفرصة التي سنحت له، فقط من أجل امكانية تحقيق مخطوطة قديمة توجد في مصح للمصابين بالجذام، وهي تحكي تاريخ سقوط جوملديتا في ايدي الجوطيين. وتحدثه عن هذه المخطوطـة، الممرضـة عيدا عيدن التـي تعتنـي بالمصابـين بالجذام.

ثم يعتزل عمزا الحياة ويعتكف في مصح المصابين بالجذام يبحث ويحقق ويتعمق في المخطوطة القديمة « لم يترك عمله ولـم يتحرك من مكانه وبقي هناك الى الأبد » .

١٣ ـ « بات شليا ـ رغيف كامل »

موضوع هذه القصة ، هو العمل غير الناجح . فقد اعطى الدكتور يكوتيل نثمان للراوي حزمة رسائل لنقلها الى مكتب البريد وارسالها بالبريد المضمون . غير أن الراوي لا يستطيع تنفيذ هذه المهمة ، سواء بسبب عوائق وعراقيل مختلفة او بسبب النسيان الذي يسببه له الناس او الظروف . وفي كل مرة ينوي فيها تنفيذ ما وعد به ، ويصل حتى باب مكتب البريد ، يتأجل العمل الذي جاء من أجله ، ولا ينفذه .

ويرى بعض النقاد ان هذه القصة تنحو منحى قصص فرانس كفكا ، بسبب التشابه الظاهري في الاوضاع وردود الفعل في قصص معينة لدى الكاتبين ، عجنون وكفكا .

١٤ ـ « شفوعات إيمونيم ـ القسم »

على خلاف معظم قصص عجنون ، تتحدث قصة « القسم » عن حب تغلب على متاعب الزمان والمكان وتحقق في النهاية . حيث التقى ، بطريق الصدفة ، يعقوب وشوشانا في طفولتهما وأقسم كل منهما على الوفاء والاخلاص للآخر . وبمرور الزمن ومع تباعد الاماكن ، يتصارع هذا القسم مع النسيان ومع الاغراءات المختلفة . ولكنه لاينتهك. وهذا القسم هو رمز الحب الصادق ، يربط المحبين بحبهما الاول الذي هو قدر الانسان . والرمز الرئيسي في هذه القصة ، هو الطحالب البحرية التي تظهر على امتداد سياق القصة كلها . ذلك ان القسم تم بجانب بركة انتشل منها يعقوب طحالب بحرية . وعندما كبر يعقوب ، وأصبح دكتور ريخنيتس تخصص في ابحاث النباتات البحرية . وارتسم له حبه في صورة طحلب بحري يجب عليه أن ينتشله من الاعماق .

الباب الثالث

عجنون ومشاكل الاستيطان في فترة الهجرة الثانية

من خلال رواية "الأمس الأول"

الفصل الأول

عرض تحليلي لرواية "الأمس الأول" وأهم أحداثها

تتكون الرواية من ٦١٢ صفحة من القطع المتوسط، صدرت سنة ١٩٤٥ عن دار شوكين للنشر. وتشتمل على استهلال وأربعة اجزاء. وهي تعرض للاستيطان اليهودي في فلسطين في فترة الهجرة الثانية (١٩٠٤ ـ ١٩١٤)، التي كان شموئيل يوسف عجنون في عداد من جاءوا في اطارها.

يتناول الاستهلال حياة بطل الرواية يتسحاق كومر في بلدته في جاليتسيا، وهي مقاطعة تقع الى أقصى الجنوب من بولندا، والتي كانت جزءا من الامبراطورية النمساوية الهنغارية في الفترة التي دارت فيها احداث الرواية، وتحديدا في الفترة التي يؤرخ بها لموجة الهجرة اليهودية الثانية الى فلسطين ١٩٠٤ ـ ١٩١٤.

« ترك يتسحاق كومر كسائر اخوتنا رجال خلاصنا أبناء الهجرة الثانية، أرضه ووطنه ومدينته وهاجر الى أرض اسرائيل لكي يبنيها ويبني نفسه فيها. ذلك أنه منذ عزم صاحبنا يتسحاق على الهجرة لم يمض يوم دون أن يفكر فيها ».

بهذه العبارة بدأ عجنون رواية « الأمس الأول »، ثم اسهب بعد ذلك في الحديث عن « أرض اسرائيل » مشبها اياها بواحة تحف بها وبسكانها بركة الرب، وتحيط بها الكروم والبساتين الزيتون والاشجار والازهار. ثم سرعان ما يعود الى يتسحاق الغارق في خيالات بعيدة، والذي تصل به شطحات الخيال في الصورة المثالية التي يرسمها او يصورها لنفسه ولحياة الناس في فلسطين حيث يتصورهم يعيشون في سعادة لا نظير لها ولا تضارعها سوى

السعادة التي يشعر بها أناس خرجوا لتوهم من ضائقة شديدة الى نعيم مقيم .

ويعود بنا عجنون الى الفترة التي سبقت هجرة يتسحاق ، حيث كان يتفرغ لبيع شهادات « الشقيل »(*) وطوابع «هاكيرن هاكيميت - الصندوق القومي اليهودي » وقد حاول ابوه شمعون كومر ان يثنيه عن ذلك ويجعله يتفرغ للعمل في حانوته . وما أن عمل يتسحاق في حانوت والده حتى « تحول الحانوت كله الى فرع للصهيونية » . (ص ٧) ولأن يتسحاق غارق في حساب ما حصّله لحساب المنظمة الصهيونية العالمية والكيرن كايميت فهو لم يعد يهتم بالزبائن ، مما جعلهم يتجهون الى حوانيت أخرى . ويتملك والده الحزن والأسى ، وذلك ان ما كان يتوقعه من مساعدة يتسحاق له في تربية اخوته بعد وفاة امهم لم يتحقق . وليس هذا فحسب بل انه تسبب في ابتعاد الزبائن عن حانوته ، ولما لم يجد فائدة في الجدال مع يتسحاق واصلاح حاله كما يتصور ، خشي ان يؤثر على بقية اخوته . واخذ يفكر في الامر ثم وافق على أن يتركه يذهب الى حيث يريد ، اي أن يهاجر إلى فلسطين . ولم يخف شمعون كومر سخريته من تفكير ابنه في السفر الى فلسطين ، وأخذ يردد انه يوافق على سفره لكي يرى « بأم عينيه ان كل موضوع «أرض اسرائيل » هو محض اختلاق من صنع الصهاينة ثم يتخلى عن التفكير فيه » . (ص٩) وهنا اشارة الى الانتقادات التي وجهت الى الصهيونية السياسية(**)ـ غير ان يتسحاق، لا يأبه بهذا فالمهم أنه حصل على موافقة والده على السفر .

ولا ينسى عجنون ان يذكر هنا تأكيدا لمنحاه الديني بأن اليهودي متمسك بتعاليم اليهودية الى درجة أنه من الاسباب التي دفعت شمعون كومر الى الموافقة على سفر ابنه يتسحاق هو خوفه من دخوله الخدمة العسكرية ، « ومعنى الخدمة في الجيش انتهاك حرمة السبت وأكل الاطعمة المحرمة » (ص ١٠) وأعد شمعون لابنه عدة السفر . ثم يستقل يتسحاق القطار قاصدا مدينة تريستا ، ومن هناك يبحر الى فلسطين التي ينحصر كل تفكيره فيها ، وينسى كل ما يجري من حوله في القطار وكأنه في عالم آخر . ويصل القطار الى لامبرج عاصمة

(*) الشقيل هي شهادات تمنح لكل يهودي يدفع رسوم العضوية في المنظمة الصهيونية العالمية لمدة سنتين .

(**) الصهيونية السياسية ، يطلق هذا الاسم على النمط الذي اتبعه هيرتسل ومؤيدوه بعد الخلافات التي نشبت في المؤتمر الصهيوني الثاني الذي عقد في بازل ، خلال ٢٨ ـ ٣١ اغسطس ١٨٩٨ . فقد كان رأي هيرتسل ومؤيديه انه يتوجب على الحركة الصهيونية ، اولا وقبل اي شيء آخر ، ان تسعى الى الحصول على ضمانات سياسية واعتراف علني من قبل دولة او مجموعة من الدول بسيادة المنظمة الصهيونية على منطقة ما وحقها في اقامة دولة لليهود فيها ، وبعد ذلك فقط تبدأ عملية نقل اليهود وتوطينهم فيها.

جاليتسيا ، التي يسكنها كبار الصهيونيين ، ويقرر يتسحاق ان يتوقف في المدينـة لكي يرى « هؤلاء الزعماء ويحصل على مباركتهم قبل هجرته الى فلسطين». (ص ١٣)

يلتقي يتسحاق بهؤلاء الزعماء الصهيونيين في المقهى الذي اعتدوا ارتياده ، فيسرد عليهم حكايته ونيته في الهجرة الى فلسطين . ويستخدم عجنون هنا كلمة « فلسطين » للمرة الاولى ، اذ تسود في روايته عبارة « أرض اسرائيل » ، ولكنه سرعان ما يستدرك قائلا ان « الصهيونيين ألفوا في تلك الأيام اطلاق اسم فلسطين على أرض اسرائيل» . (ص ١٧) ويحمل يتسحاق من هؤلاء الزعماء رسائل توصية الى زملائهم في فلسطين لكي يساعدوه ويقربوه اليهم . « وكم كانت سعادة يتسحاق بهذه الرسائل ، وكأنها سند مالي في يده » . (ص ١٧)

ثم يستقل القطار مرة أخرى من لامبرج ، وبينما يطوي القطار المدن والقرى ، لا يهتم يتسحاق « باسماء تلك المدن لأن كل تفكيره منصرف الى مدن ومستعمرات ارض اسرائيل » .

ومرة أخرى يذكرنا عجنون بأن اليهود يتمسكون بتعاليم دينهم ، حيث يتنادى الركاب اليهود في القطار (ص ١٩) لاداء صلاة العصر فهم ، على الرغم من تباين وجهات سفرهم « تتجه وجوههم في تلك اللحظة الى القدس ، وقلوبهم الى ابيهم الذي في السماء » .

ثم يصل القطار الى بلدة طرنوف ، ويذكر عجنون اسم تلك البلـدة بالـذات ، لأن الذين هاجروا منها أقاموا مستعمرة «محنايم» في فلسطين ، رغم انها خربـت ، وتملك اليأس والقنوط سكانها . ويتوقف القطار ايضا في مدينة كراكو وفيها قبر الربي موشيه ايسريس وقبور باقي رجالات اليهود. وفيها صدرت صحيفـة «هامـاغيد»(*) وتصـدر صحيفـة هامتسـبيه . وعجنون لا يذكر هنا سوى اسماء البلدان التي سكنها يهود او توجد فيها آثار يهودية أو صحف أو ما شابه ذلك .

وأخيرا يصل القطار الى فيينا ، ويغادر يتسحاق محطة السكك الحديدية ، وتراوده وهو يسير في شوارع فيينا افكار كثيرة فيذكر هيرتسل ، ويتخيل انه ربما وقف في هذا المكان الذي يقف فيه « ويتذكر الامر الذي ينساه كثيرون » وهو انه لولا ظهور هيرتسل « لكنا قد اضعنا ايامنا في المنفى ولما هاجرنا الى ارض اسرائيل » (ص ٢٣) .

(*) صحيفة « هاماغيد - المبشر ») (١٨٥٦ - ١٩٠٣) اول صحيفة اسبوعية باللغة العبرية صدرت في لبك بالمانيا ثم انتقلت فيما بعد الى برلين ومنها الى كراكو .

ومن فيينا يستقل يتسحاق القطار الى تريستي ويصلها وهي آخر محطة في رحلته بطريق البر . ومنها يبدأ سفره بحرا . يتوجه يتسحاق الى المرفأ ويشتري تذكرة سفر الى فلسطين ويعود الى السفينة التي ستقله الى هناك والتي ستبحر في اليوم التالي . ويقضي ليلته في السفينة بينما ترواده الأفكار ينام وحيدا لاول مرة بعد ان ترك والده واخوته . وكيف ان الناس في مدينته سينقسمون بين حاسد له على سفره الى فلسطين وبين آسف لذلك . وتخيل انه وصل الى فلسطين فعلا وحمله خياله الى ما فيها من حقول وكروم ، ووجد هناك بئرا في احد الحقول وقطعان اغنام تربض حولها بينما يجثم على فتحة البئر حجر كبير يعجز عن دحرجته شخص او شخصان ، وهناك فتيات من المستعمرة المجاورة جئن يسقين قطعانهن ، ويقوم يتسحاق ، في الخيال طبعا ، بدحرجة الحجر من فوق فتحة البئر وتسقي الفتيات قطعانهن ، ويرجعن الى المستعمرة ، وتعلو الدهشة وجوه كل الناس في المستعمرة ويسألون الفتيات كيف استطعن ان يعدن اليوم بمثل هذه السرعة . فتروي الفتيات ما كان من امر يتسحاق ، وكيف ان شابا من بولونيا دحرج الحجر عن البئر وكأنه يرفع غطاء من فوق طبق، ويطلبون منهن دعوته لتناول الطعام مع اهل المستعمرة . وهكذا ذهبت الفتيات وجئن به وسط مظاهر الحفاوة الكبيرة ويتزوج يتسحاق من احداهن بعد ايام قلائل . (ص ٢٨) .

يريد عجنون هنا ، بالطبع ، ان يصور بطل روايته بالنبي موسى ويبدو واضحا من كل ذلك ، ان عجنون يريد أن يجعل من بطله يتسحاق صورة للنبي موسى ، وقصته في أرض مدين مع بنات يثرون والتي وردت في سفر الخروج (٢ : ١٦) .

ثم يترك عجنون العنان لخيال يتسحاق فيتخيل المشهد في قالب آخر ، فيقول ان العرب الذين كانوا بجانب البئر هم الذين يمنعون الفتيات من ملء جرارهن ، وتصادف قدوم يتسحاق الى هناك فطرد العرب وملأت الفتيات الجرار ، ثم يتكرر المشهد السابق نفسه ، مع فارق واحد وهو أن يتسحاق انقذ الفتيات هذه المرة من يد العرب .

وتخيل حدوث هذه الواقعة الاخيرة هي بداية تحامل ، ان لم يكن حقد ، عجنون على العرب وهو سيتكرر كثيرا في عرضه احداث الرواية .

يصحو يتسحاق من خيالاته ، ويبدأ يفكر في نفسه وكيف كان يكرس حياته من أجل الصهيونية بينما يسخر منه بعض الناس ، وها هو الآن مهاجر الى « أرض اسرائيل » ويسخر

منهم ، دون أن يرى لهم ولكلامهم أهمية ما داموا لا يخرجونه الى حيز التنفيذ . وها هو الفارق بينهم وبين سائر « ابناء المدينة » . فهؤلاء يبددون حياتهم في المنفى ويفعل اولئك الشيء نفسه ، وهم جميعا لا يريدون تغير مكانهم الى ان « يأتي المسيح المخلص » (ص ٢٩) وفي العبارات التي يستخدمها عجنون هنا انتقاد شديد للصهيونيين غير العمليين(*) .

ويعرض يتسحاق اسماء بعض هؤلاء الأشخاص . فرؤبين يكون اول الحاضرين في كل حفل يقام ، ويقرأ الصحف قبل اي شخص آخر ، وعندما يطلب منه يتسحاق التبرع من أجل فلاحي مستعمرة محنايم لا يدفع بروتا واحدة ، ذلك أن صهيونيته تزول عند حدود المال. وهناك أشخاص آخرون على شاكلته مثل هيرتس فالف وأغلبية الصهيونيين في المدينة من النمط نفسه ، انهم « يستشهدون بأدلة من الجمارا على أن هواء أرض اسرائيل علاج وشفاء ، ولكنهم عندما يسافرون هم انفسهم للعلاج يسافرون الى كارلسباد وسائر الاماكن الاخرى ، خارج ارض اسرائيل » . كما أن الشباب الصهيونيين ، الطلاب الذين كنا « نأمل ان ينشروا روح الحياة الصهيونية ، نجدهم مستعدين لتأجيل اية جلسة صهيونية والتفرغ لنزهة مع فتاة . وفي خضم كل هذا لا ينسى يتسحاق ، كما يريد عجنون حقا ، ان يؤدي صلاة الفجر ويطيل في ممارسته الصلاة لتعويض ما لم يؤده من الصلوات في اوقاتها . (ص ٣٠) .

وتبحر السفينة بيتسحاق الى فلسطين ، ويلتقي على ظهرها برجل وامرأة عجوزين ويتبادل واياهم التحية ، ويسأل العجوز يتسحاق عن وجهته فيجيبه يتسحاق : « أنا مسافر الى ارض اسرائيل » ويتساءل العجوز في استغراب : وماذا يفعل شاب للسفر الى « أرض اسرائيل » ويرد يتسحاق بأنه ذاهب لكي يحرث الأرض . وتزداد دهشة العجوز ويتساءل : اليست ارض اسرائيل المقامة كلها من الكنس والمدارس الدينية مخصصة للصلاة ؟ وعلى لسان بطله يتسحاق ينتقد عجنون المستوطنين القدامى الذين جاؤوا لزيادة عدد القبور ، وينتقد كذلك الذين يعيشون على أموال الحلوكا ـ التي اشرنا اليها في فصل الاستيطان اليهودي في فلسطين في مقدمة البحث ـ والذين يأتون من كل مكان الى القدس لكي يدرسوا التوراة وهم

(*) المقصود بالصهيونيين غير العمليين الصهيونيون السياسيون دعاة الخط السياسي في العمل الصهيوني . اما الصهيونيون العمليون فكانوا يطالبون بتشجيع الاستيطان العملي في فلسطين مهما كانت الظروف ثم السعي في الوقت نفسه الى الحصول على ضمانات دولية لاقامة دولة يهودية في فلسطين ، وقد عرف هذا الخط باسم « الصهيونية العملية » .

بلا عمل ، ويجرون « من قبر الى قبر حتى يشيخوا ويموتوا ويضيفـوا قبـورا جديدة » (ص ٣٣) .

غير أن الخلاف بين يتسحاق والعجوز لا يدوم طويلا ، فيعاودان الحديث . ويسـأل العجوز هل ليتسحاق أقارب في فلسطين ، فيرد عليه يتسحاق قائلا ومن « يحتاج اليهم ؟ كل اليهود اخوة ، خصوصا « في أرض اسرائيل » . كذلك فان كل رجال اليشوف هم اقاربه وان لم تكن تجمعهم قرابة اسرية . فالقرابة القلبية تؤلف بينهم ، وهل هناك ما يقرب بين القلوب كما تفعل الفكرة المشتركة . ذلك أن « كل افكار يتسحاق شبيهة بافكارهم التي تدور حول حراثة الارض واعادة بنائها وانهاضهـا من خرابهـا » . ومـا علاقـة حراثـة الأرض بالشعائـر الدينية ؟وفهم العجوز ان يتسحاق ينتسب الى «الصهيونيين الذين يريدون نزع قدسية ارض - اسرائيل وجعلها كسائر البلدان » . (ص ٣٣) وراح يبدي غضبـه من يتسحـاق .«كعادة المسنين اليهود في ذلك الجيل ، الذين اعتبروا اننا جئنا نحول العالم ، معاذ الله الى هراطقة». (ص ٣٣) وراح يناقش يتسحاق الذي تساءل : « هل أناقش عجوزا ذاهبا لاضافة قبر في ارض اسرائيل » ؟ ولما كان العجوز يتحدث اليه بالبراهين ، راح يتسحاق يرد عليه بأدلة من التوراة ، ولم « يفترقا الا وهما اشبه بعدوين » (ص ٣٣) هذا الموقف يعكس الصراع الذي دار في مرحلة الهجرة الثانية بين المستوطـنين اليهـود والجـدد والسـكان اليهـود القدامـى في فلسطين ، الذين اعتبروهـم كارثة ستحل بهم ، وان مفاهيمهم خطر عليهـم . حيث يرمـز الرجل العجوز الى السكان القدامى ويرمز يتسحاق الى المستوطنين الجدد الذين جاؤا في موجة الهجرة الثانية . ثـم تصل السفينة ، بعد عشرة أيام من ابحارها الى يافا « بوابة فلسطين » . (ص ٣٨) وتنتهي بذلك مقدمة الرواية ، التي رافقت يتسحاق منذ وجوده في جاليتسيا وحتى وصوله الى فلسطين .

الجزء الأول :

يصـل يتسحـاق الى فلسطـين ويقف « على الأرض التـي تاق طوال أيام حياتــه الى رؤيتها » . (ص ٤٠) حيث رست السفينة التي اقلته في ميناء يافا .

ولا ينسى عجنون ان يذكر هنا مدى الحاف البحارة الذين نقلـوا يتسحـاق بالقـارب

الصغير من السفينة الى الشاطىء ، طلبا للنقود . وبعد ان حصلوا على أجرهم طلبوا بقشيشا وأن هؤلاء البحارة من العرب ، وهذا هو بيت القصيد بالنسبة له .

وفي اليوم التالي ، بدأ يتسحاق رحلة البحث عن عمل في المستوطنات المجاورة . ويلتقي في يافا ، وهو يحاول الذهاب الى مستوطنة بيتح تكفا او ريشون ليتسيون ، ببعض الشبان في المقاهي ، ويخبره احدهم انهم لا يجدون عملا لان « الأفندية» (ص ٤٤) في المستوطنات يسلمون العمل للعرب . وحتى المدرسة العبرية التي تبني بأموال متبرع يهودي وبمساعدة لجنة « احباء صهيون » يتولى العمل فيها غير اليهود ، لأن المقاولين يفضلونهم بسبب رخص اجورهم . وهنا يشير عجنون الى المشاكل التي واجهت المهاجرين في فترة الهجرة الثانية ، حيث ان المستوطنين القدامى كانوا يفضلون العمال العرب ويرفضون تشغيل المهاجرين الجدد ، مما أدى في حينه الى مشاكل كثيرة والى رفع شعار «العمل العبري» و «احتلال العمل» ويقصد بـ « الافندية » موظفي مؤسسات الاستيطان ، خصوصاً موظفي مؤسسات البارون روتشيلد ، الذين جعلوا من انفسهم « اوصياء على اليشوف ؛ يجلسون في المكاتب ويحررون المذكرات في الوقت الذي نعاني فيه الامرين ، ونجابه كل المشاكل»(ص ٤٣) . وفي نهاية المطاف يصل يتسحاق الى احدى المستوطنات. وكم « كانت فرحته وهو يرى بيوت اليهود في مستوطنتهم ، تحف بها حقول وكروم واشجار زيتون وبيارات » (ص ٤٦) .

يطرق يتسحاق أبواب أكثر من بيت في المستوطنة باحثا عن عمل ، ولكن دون جدوى فلقد أوصدت الأبواب دونه ، وأدرك أن لا أمل له هنا . فالعمال العرب « يكادون يغطون المستوطنة بكثرة عددهم ، وكأن الارض انشقت فجأة فخرجوا من تحتها » ، ويبدأ الخوف يتملك يتسحاق وكأنه « تدحرج الى سوق للجوييم . فما أكثر الغبار الذي يخلفونه وراءهم » (ص ٤٩) وهذه اشارة واضحة الى المشاكل التي واجهت المهاجرين الجدد خلال فترة الهجرة الثانية .

ويلتقي يتسحاق اثناء بحثه عن عمل ، برابينوفيتش وهو مهاجر من روسيا الذي يعرفه بدوره على رفيق له اسمه « حافير ليئيد يوركشين » ويقول ان تسميته بهذا الاسم « حافير ليئيد ـ رفيق الشدة » تعود الى أن « رفاقه يجلونه في كل مكان يذهبون اليه بحثا عن عمل ولا يجلون العمل » . (ص ٥٢) .

فالعرب لا يتركون لهم عملا ، والمكان الوحيد الذي تركه لهم العرب هو القبو الذي تصنع فيه الخمور . وفي هذا السياق يتحدث يورشكين عن العمل وعن الفلاحين والعمال ويذكر واقعة مفادها ان بعض الفلاحين كانوا يزمعون احضار عمال من مصر « وكأنه لا يكفي انهم أغرقوا المستوطنة بعمال عرب ، بل ارادوا ان يضيفوا اليهم مصريين فيعرضوا بذلك اليشوف للخطر من جراء وجود اغراب من الخارج » . (٥٣) .

يعود عجنون مجددا الى التحامل على العرب ، حيث يذكر (ص ٥٥) ان ما يزعج يتسحاق اثناء نومه هو «الحمير التي جاءت مع العرب والدجاج الذي جلبته النساء العربيات معهنّ الى السوق». وكأن العرب مصدر كل ازعاج، وهم الذين يقفون في طريق المهاجرين الجدد في الحصول على عمل، يعتاشون عليه.

وقد اصطحب رابينوفيتش يتسحاق الى السوق الذي يؤمه الفلاحون لاستئجار عمال . وجاء العرب «جماعات جماعات يثيرون ضجة وكأنهم اعداء جاؤوا يحاصرون مدينة ».

ويصل مدى تحامل عجنون على العرب الى حد القول بأن « الذباب والبعوض يطن يحوم حول الغمص الاخضر في عيون العرب » (ص ٥٦) .

ويعود رابينوفيتش ويتسحاق ورفاقهما بدون عمل ، حيث أن الفلاحين اختاروا معظم عمالهم من العرب ، ثم يتناقشون في وضع المستوطنات والعمال واستخدام العمال العرب بدلا من المهاجرين اليهود الجدد ومدى ما يشكله هذا من خطر على اليهود عموما حسب رأيهم وفي كيفية جعل الفلاحين يدركون مدى «الشر الذي يسببونه لانفسهم ولكل اليهود برفضهم تشغيل العمال العبريين واحترامهم للعرب واحتقارهم لليهود». (ص ٥٩).

وهنا يتولى عجنون دور الراوي ، فيقول : اذا نحن ناقشنا اعمال الفلاحين ، فعلينا ان نفترض ان العمال قد تحدثوا بغضب عن هذه التصرفات : فلسان حالهم يقول : لقد جئنا لكي نبني البلاد ، وفي النهاية لا يسمحون لنا بالعيش ، جريا منهم وراء ربح وهمي ، ذلك ان أصحاب العمل يخطئون في الاعتقاد بأن اجر العامل العبري مرتفع في حين أن اجر العامل العربي متدنٍّ . وهم لا يدركون ان كل ما يحصل عليه العامل العبري من اجر انما يعود الى

أيديهم . فهو يستأجر غرفة في المستوطنة ويشتري احتياجاته من حوانيتهم ، في حين أن محمد وأحمد (أي العمال العرب) يحصلون على اجرهم من المستوطنة ويصرفونه في مدن العرب ، وأي بروتا تخرج من ايدي اليهود لا تعود اليهم » . (ص ٦٠) .

غير أن عجنون يستدرك قائلا ان العمال ، رغم ذلك ، لم يتحدثوا بغضب بل تحدثوا كأشخاص محبين ، ينصحون رفاقهم لكي يعودوا الى طريق الصواب ، وذلك من أجل مصلحة المجموع .

وتتوالى الايام ، وما يحدث ليتسحاق ورفاقه اليوم يتكرر غدا ، وهكذا دواليك . فاينما ذهبوا لا يجدون عملا . يتجول يتسحاق « بين الحقول والكروم ، هذه تثمر عنبا وتلك قمحا ، ولكن هذه وتلك مليئة بالعرب » . (ص ٦١) ويتجول صاحب الحقل او الكرم او من ينوب عنه بينهم ممتطيا دابته ، « يزعق فيهم ويمازحهم . وهم يتقبلون زعيقه بود ويشاركونه الضحك والمزاح ، وهم يتوقفون عن العمل لاداء الصلاة وتناول الطعام . ويطيلون في اداء الصلاة وتناول الطعام . فالعرب يعرفون ان الأرض لن تهرب من تحت أقدامهم . اما صاحبنا يتسحاق والكلام لعجنون ، فهو بلا عمل ولا طعام ويتملكه الهم ، وقد اوهنت هذه الامور مجتمعة قواه وتسببت في مرضه » .

ويرمز عجنون هنا الى الظروف الصعبة التي واجهت المهاجرين في فترة الهجرة الثانية ، والتي ادت في النهاية الى عودة معظمهم الى البلاد التي جاءوا منها . وقد أشرنا الى ذلك في الحديث عن المشاكل التي واجهت المستوطنين اليهود في الباب الأول .

ويعود عجنون مجددا الى الغمز من قناة العرب ، فيقول ان رجال المستوطنات يفضلون العمال العرب لانهم « يكيفون آراءهم بحيث تتفق مع آراء أصحاب العمل » (ص ٢٦) .

ثم يحمل يتسحاق امتعته على كتفه ويرحل الى يافا ، وهناك يلتقي بعسقانوفيتس الذي هزت خطبه « أرض اسرائيل » كلها ، ووجده واقفا امام خريطة للبلاد ومعه مندوب لاحدى الجمعيات الصهيونية - في « المنفى » يستخدم عجنون هنا كلمة « المنفى » لا كلمة المهجر ، ولهذا دلالته بالطبع ، يحمل في طياته دعوى لمغادرة المنفى والهجرة الى فلسطين - ويشرح له ما هي الاراضي التي يجدر به أن يأخذها وماذا يفعل فيها ، وكأن « كل أرض اسرائيل في حيازته ، يستطيع توزيعها كلها على من يشاء» . (ص ٦٣) . ويسلمه يتسحاق الرسائل التي حملها من الزعماء الصهيونيين في جاليتسيا ولكن عسقانوفيتس يأخذها منه دون أن يسأله شيئا ،

او يقول له شيئا . ومنذ تلك الواقعة لم يذهب يتسحاق الى زعيم محرف . ويرمي عجنون هنا انتقاد هؤلاء الزعماء الصهيونيين الذين لا يفعلون شيئا سوى القاء الخطب وإضفاء هالة حول انفسهم ، في حين انهم لا يقدمون حتى النصح للمهاجرين الجدد الذين يدعون انهم يعملون من أجل هجرتهم الى فلسطين .

ثم يحصل يتسحاق على عمل في حديقة البارون لافوش . وكم كانت فرحته بهذا العمل . حتى لقد وصل به الامر الى حد الاعتقاد بأن صاحب العمل من اولئك الذين يحرضون على الالحاد ، حيث « يعالجون الجسد ويسلبون العقل » . (ص ٦٦) ولكنه يتغلب على هذه الافكار باداء الصلاة . وهنا يريد عجنون الايحاء بأن الحفاظ على شعائر اليهودية يعين اليهود على تحقيق اهدافهم ، وما عدا ذلك لا يعدو كونه مظاهر جوفاء لا تصمد امام انواء الزمن. يسرد عجنون قصة لافوش الذي فضل متع الجسد على متع الروح واغواه المحرضون على ترك الدين . ولكنه يعتبر نفسه يهوديا ويأخذ بيد اليهود، فقد «رأى ضائقة يتسحاق فأخذه وقدم اليه العون». (ص ٦٨).

ويلتقي يتسحاق بيوحنان ليخطفوس الذي يمارس نفس العمل الذي يزاوله يتسحاق ، وهو اعمال الطلاء (البياض) . وتتحسن احوال يتسحاق المعيشية ويعتاد على مناخ يافا . وهنا يسهب عجنون « في وصف المأكولات من فواكه وخضر تتميز بها زراعة فلسطين ، والتي ما كان يتسحاق ليتذوقها في مدينة جاليتسيا اللهم الا مرة واحدة في السنة». وينتقل عجنون الى الحديث عن « أرض اسرائيل » . فهي عنده تنقسم الى يشوف قديم ويشوف جديد . ورجال اليشوف القديم يتصرفون على نحو يخالف رجال اليشوف الجديد ، الذي يمثله يتسحاق . والذين لا يحافظون على الفرائض اليهودية ، لا يذهبون الى الكنس ولا يؤدون الصلاة ولا يحافظون على حرمة السبت

ويلتقي يتسحاق بـ سونيا صديقة رابينوفيتش الذي قرر السفر الى الخارج لكي يصبح تاجر ملابس كبيرا . ولا ينسى عجنون ان يذكرنا بأن يافا مدينة قديمة العهد بناها يافث بن نوح واطلق اسمه عليها (ص ٩٨) مستعرضا تاريخ المدينة التي تعاقبت عليها شعوب كثيرة، حتى اخذها الرب من أيديهم و «اعطانا اياها نحن ابناء ابراهيم حبيبه ، نسل يتسحاق وحيله، عشيرة يعقوب ابنه البكر» (ص ٩٨).

ونعود الى سونيا فنجد انها ترمز في الرواية الى الصهيونية الجديدة . وهي تلتقي بيتسحاق مرة اخرى بعد سفر رابينوفيتش وتحدثه عن سائر كبار رجالات اليشوف والعمل والعمال والصهيونية وهنا يقطع عجنون استمرارية الحبكة من ناحية الخلط بين الازمنة والأحداث ، حيث يعود الى ما كان عليه موقف يتسحاق في جاليتسيا بالنسبة للربط بين الصهيونية والاشتراكية اللذين يعتبرهما الشيء ونقيضه.

وتتوطد الصداقة بين سونيا ويتسحاق وتدعوه الى منزلها وهناك يرى صورة معلقة على جدار غرفتها وتخبره بانها صورة « رفيقنا بريلي الذي قتله العرب » (ص ١١٥) . ومرة أخرى لا يكف عجنون عن ذكر اية حادثة للعرب دخل فيها ، اذا صح هذا .

ومن طريق سونيا يتعرف يتسحاق الى قريب لها اسمه يهوناتان اورجلبرند . ويتغير موقف سونيا فجأة من يتسحاق . ويسرد عجنون تاريخ حياة سونيا وكيف هاجرت الى فلسطين لكي تكمل دراستها في وسط عبري ، بناء على رغبة والدها الصهيوني القديم ولكنها لم تحقق رغبته ، بل اتجهت الى تعلم اللغة الالمانية ، في حين تتوطد العلاقة بين يتسحاق واورجلبرد . ويدخل عجنون هنا في مواعظ مسهبة تنطوي على دعوة اليهود الى المحافظة على التوراة وأحكامها ، فالخير كل الخير لهم ان يفعلوا ذلك . (ص ١٦٥) .

زار يتسحاق واورجلبرد مستوطنة بيتح تكفا اكثر من مرة وهناك استعاد يتسحاق ذكرياته الاولى لدى وصوله الى فلسطين ، ورأى كيف ان المهاجرين الذين جاؤوا معه ، وأصروا على العمل في المستوطنات ، ولم يذهبوا الى المدينة ، قد زرعوا الارض وحققوا مبدأ « احتلال العمل والأرض » . (١٧٢) وقد جمعت الظروف يتسحاق مع الربي مناحيمكي ، ودار بينهما جدل حول مصطلح « دين العمل » الذي تحدث عنه يتسحاق واسهب مناحيمكي في الحديث عن أن « المهم ليس الأفكار التي تتردد عن البلاد وعن العمل ، بل يكفي الانسان ان يحظى بالسكن في أرض ـ اسرائيل » . وان « الامة الاسرائيلية » مصدرها « أرض اسرائيل » ولما كانت البلاد خربة ومقفرة ومن الصعب السكن في مكان خرب ، فان من الواجب اصلاح المكان ليصلح للسكن ، على أن يقوم اليهود انفسهم بهذا العمل ، لأن « الغرباء لن يقوموا بهذا وهم سبب خراب البلد » (ص ١٧٧) .

أي ان مناحيمكي ينظر الى المسألة من وجهة دينية لا من وجهة فكرية كالتي حملها بعض

رجال الهجرة الثانية .

يترك يستحاق مناحيمكي ويتوجه الى نادي العمال للاستماع الى احدى المحاضرات التي اعقبها نقاش حول مسألة اللغات في فلسطين في تلك الفترة ، وضرورة التشديد على استخدام اللغة العبرية في الحديث ، وكان بعضهم يحرص على ذلك بحيث لا ينطق بكلمة غير عبرية ، وأحد هؤلاء نفتالي زامير الذي غرق في بحيرة طبرية محاولا انقاذ عربي يوشك على الغرق فيها (ص ١٧٨) والغرض من ايراد هذه الواقعة واضح ، حيث يريد على الأرجح ، ان يثبت ان اليهود يتصرفون بنزعة انسانية بالنسبة للعرب ، الذين اسهب عجنون في ترديد وقائع محاولا بها الايهام بسوء معاملتهم لليهود .

ولدى عودة يتسحاق الى يافا التقى بصديقة سونيا بانينا ودار بينهما حديث عن المستوطنات وعن نادي العمال ، وكيف ان بعض «الرفاق» قرروا الابتعاد عنه لانه شيد بأموال الادارة الصهيونية ، حيث يعتبرون اي مؤسسة لم يقم العمال ببنائها بأنفسهم ، ملوثة بتراب الحلوكا ، ويجب على العامل الحقيقي الابتعاد عنها . (ص ١٨١) .

ويقرر يتسحاق ، خصوصا بعد قطيعته مع سونيا ، السفر الى القدس ، التي شجعته على السفر اليها ، وتنتابه الحيرة : هل يذهب الى القدس ام يبقى في يافا ؟ ثم يحزم امره ويسافر الى القدس ، بعد ان ودع سونيا بعد لقاء كان بمثابة صلح بينهما .

الجزء الثاني :

نزل يتسحاق لدى وصوله الى القدس في فندق تفيلينسكي ، وهو مثل « بيوت العرب الاغنياء الذين يتزوجون نساء كثيرات ويخصصون جناحا لكل واحدة منهن » . (ص ١٩١) والاشارة لا تحتاج الى تعليق ، لانها تندرج ضمن نظرة عجنون الى العرب ووراء الاكمة ما وراءها ، كما يقال .

خرج يتسحاق للبحث عن غرفة يسكنها في المدينة ، ولكن دون جدوى ، لماذا ؟ لأن الطوائف المسيحية مثل الأرمن والروس اشترت مساحات من الاراضي وأقامت مساكن

لأتباعها ! اما اليهود فلا يملكون مساكن . بل يستأجرونها من العرب ، مما يدفعهم الى التوجه الى خارج المدينة وشراء أرض واقامة سبعة بيوت اطلقوا عليها اسم نحلات شفعا وهو اول حي يهودي خارج اسوار القدس (ص ١٩٩) ، اعقبه بعد سبع أو ثمان سنوات بناء حي ميئاه شعاريم ، الذي ضم مئة بيت . ويعثر يتسحاق على غرفة في نحلات شفعا ، في بيت شخص يطلقون عليه اسم(*) ، هامو شهاد لان صاحبه ارتد عن اليهودية . وكيف تأتي ليتسحاق العثور على الغرفة ؟ الجواب بسيط ، وهو أن المتدينين اليهود كانوا يمتنعون عن السكن لدى «مرتد» (ص ٢٠١) ويتوجه يتسحاق الى حي ميئاه شعاريم لشراء حاجيات خاصة به ، وهنا ينتقد عجنون الحي وسكانه وقذاراتهم ، وكيف انهم غارقون في ظلام روحي وفكري .

استقر يتسحاق في القدس ، وتعرف على الرسام شمشون بلويكوف من ابناء جاليتسيا ، الذي شرح له مدى حبه للقدس التي «لا تتكشف مميزاتها الا لمحبيها ، ولا تمر فيها ساعة دون ان ترى مثلا على الحياة الازلية » (ص ١٢٤)

وان اهم ما يحرص عليه بلويكوف الى جانب الرسم ، هو زيارة قبر الملك داود في عيد « الاسابيع » ، ومدى حبه لداود ، الملك العملاق الذي كان مشغولا طوال حياته بالحروب ضد جوليات الفلستي .

اشتهر يتسحاق في القدس بأنه عامل طلاء ممتاز ، وعمل لدى القناصل والباشوات وفي المساجد (ص ٢٢٠) غير أنه ليس طموحا ويقوم بعمله في صمت تام . ولا بد هنا من الاشارة الى ان المهنة التي اختارها عجنون ليتسحاق ، وهي مهنة الطلاء ، ترمز الى كونه انتقل مما جاء من اجله وهو حرث الأرض لكي تزهر وتثمر ، الى عالم طلاء مهمته الترقيع او تشويه الطبيعة ، وهذا سبب مأساته . اضافة الى محاولة عجنون اظهار البطل في صورة شخص بسيط غير ثرثار يؤدي عمله في صمت .

وبينما كان يتسحاق يردد اغنية «لو أفدها تكفاتينو ـ لم نفقد الأمل» سأله احد زملائه في العمل: «هل انت صهيوني؟» فسأله بدوره: «لماذا، فأجابه: سمعت ان

(*) هامو شهاد: اسم مفعول من فعل هيشميد بالعبرية ، بمعنى دمر او أباد وتأتي ايضا من الفعل المضعف شميد بمعنى أجبر على الردة وترك الدين اليهودي ، واستخدام هذه الكلمة هنا له دلالته .

الصهيونيين معتادون على ان يغنوا دوما « لـم نفقـد الأمـل بعـد » وانهـم يريدون التعجيل بالخلاص عن طريق كل انواع المعاصي ، لماذا ؟ ان المخلص لا يأتي الا في جيل كله ابرياء او كله مذنبون، وارتكاب المعاصي، اسهل من اداء الفروض، وعلى ذلك يرتكبون المعاصي (ص ٢٢٢). ويسمع يتسحاق ولا يرد «فقد مضت ايام حماسه للترويج للصهيونية». واضحى «يشبه الى حد ما رجال القدس في مظهره الخارجي، وان شئت قل من داخل نفسه» وتوصل الى «حد التسليم بالواقع». (ص ٢٢٣).

لـم يكن يتسحاق يترك اثرا كبيرا في الناس ، فهو « لا يمتاز بحسن المظهر ولا حسـن الحديث ، لا يثير الاهتمام ، متوسط القامة ، عريض اعلى الوجه ضيق اسفله ، وعينـاه لا تشعان بريقا ومشيته بطيئة » . وهنا يريد عجنون ان يقول : من أنت يا يتسحـاق من بـين الشخصيات الموجودة في القدس ؟ » (ص ٢٢٣) .

لـم يشعر يتسحاق لا بجيرانه ولا بضيوفهم ، فهو يعود من عمله ويلقي بنفسه فوق فراشه «كحمال يلقي حمله من فوق كاهله او كحمل ألقاه حمّال » وبعد ان يتناول طعامه وشرابه ، يتناول كتابا ليقرأ فيه ، ان قوى على ذلك . وهنا يدور صراع بين الجسد والروح . فالجسد يريد الراحة والروح تريد الثقافة . والعرف السائد في العالم ، كما يقول عجنون ، هو ان القوي يهزم الضعيف . اما بالنسبة ليتسحاق كومر فان العكس هو الذي حدث اي ان « الجسد المرهق هو الذي هزم الروح » (ص ٢٢٥) .

بينما تمر الأيام على يتسحاق ، تذكر سونيا ووالده واخوته والامال التي راودته على ظهر السفينة المتجهة الى فلسطين ، وكيف ان « هذه الامال قد تبددت ، فحتى النقود التي اقترضها من ابيه من أجـل سفـره لـم يعدهـا اليه » . (ص ٢٢٨)

. »

وسلم يتسحاق بالواقع ، وتقبل ما يحدث له برضى ، لا يشتكي ولا يتذمر فلقد عود نفسه على تقلبات الايام ، فهو يعمل حين يجد العمل. وعندما يكون بلا عمل يذهب الى «بيت هعام» ليقرأ الصحف ويصغي الى المحاضرات في حال توافرها ، فليس كل ما يتمنـى المرء يدركه. (٢٢٩).

ولا بد هنا من الاشارة الى ان عجنون يوحي بالقول بأن يتسحاق رغم انه عاد الى القدس التي هي نقيض ليافا ، الا أن عودته جاءت متأخرة . ولذلك فهو مثل الالة ، اذا توفر لها الوقود دارت عجلاتها والا فانها قابعة في مكانها بلا حراك ، والمقصود بالحراك هنا المهمة التي جاء يتسحاق الى فلسطين من اجلها .

وينتقل عجنون الى الحديث عن الحلوكا وكيف ان معظم الناس يحصلون على نصيب منها ، وان كان بعض الشبان يحتقرونها رغم أن آباءهم يعتاشون منها . الجميع في القدس يتحدثون عن الحلوكا . فالشخص الذي يحصل على نصيب منها يشتكي ويبدي غضبه لانهم لا يعطونه الا ما يجعله معلقا بين الحياة والموت . ومن لا يحتاج الى الحلوكا يحتقر من يحصلون عليها والمسؤولين عنها في آن معا . ورغم ذلك فان للحلوكا حسناتها . « فقد انقذت الكثيرين من الموت جوعا (٢٣١) وساهمت في بناء احياء كثيرة» . فرجال القدس « أصحاب الحلوكا خاطروا بأنفسهم من أجل توطين القدس . فلولا انهم وسعوا حدود اسرائيل ، لكانت القدس محصورة بين الاسوار ولكانت كل تلك الاماكن قفراء » (ص ٢٣٢) .

ان عجنون يوظف كل شيء وكل كلمة من أجل خدمة ما يريد ، فرغم ما في الحلوكا من عيوب فان لها في نظره مميزات ، ولكنها ليست مجرد مميزات عادية ، بل انها في صالح اليهود واليهودية . ولا ينسى ان يتحدث مطولا عن دخول يوم السبت ، وكيف ان اليهود يستعدون لمجيئه ويحضرون كل مستلزماته (ص ٢٤٧) .

ثم وقع حدث كان له تأثير كبير على يتسحاق فلقد مات الرسام بلويكوف صديقه ، وبات يتسحاق بدون اصدقاء . ويختلي الى نفسه ويبدي استغرابه من هذا العالم المليء بالمعاناة والآلام ثم الموت بعدها . (ص ٢٥٤) واستطرادا يتذكر يتسحاق كل رفاقه الذين ماتوا .

راح يتسحاق ينظر « باستياء الى فرشاته ومهنة الطلاء التي اضطر الى أن يستبدل بها المعزقة والمحراث » ، وتذكر كل ما مر به منذ سفره من جاليتسيا مرورا بيافا وسونيا وقدومه الى القدس . (ص ٢٥٧) وهنا تكمن مأساة يتسحاق ، حسبما اراد عجنون . لقد جاء ليزرع الأرض ولكنه تحول الى الطلاء اي الترقيع واخفاء العيوب ، وهناك بون شاسع بين الامرين .

ان يتسحاق لم يكن يختلف عن بقية زملائه من حيث الحفاظ على الشعائر الدينية ، « ماذا نقول ، وماذا نضيف . كلنا ننشد الخير ، ولكن الخير الذي ننشده ليس هو الخير

الحقيقي». (ص ٢٦٣) يقول عجنون هنا «ان هذا الأمر يحتاج الى شرح وسأحاول شرحه».

« عندما كنا نتعلم التوراة في شبابنا كنا نعرف ان كل ما هو مدون فيها قائم الى الأبد . وكان كل ما يتوق اليه كل واحد من شعبنا هو ان يأخذ بالتعاليم والأعمال الخيرة المذكورة في التوراة . وما ان سقطت في أيدينا كتب أخرى ووجدنا فيها امورا لم نفترضها ، تسلل الشك الى قلوبنا . وبما اننا دخلنا عالم الشك فقد بدأنا نتراخى في اتباع التعاليم . . . وبعد ان هاجرنا الى أرض اسرائيل تخلفنا عن تعاليم التوراة » . (ص ٢٦٣) .

« لقد سيطرت هذه الافكار على جيل يتسحاق . وعلى الرغم من أن يتسحاق لم يشتغل بالبديهيات فقد خالف الشرائع والتعاليم » (ص ، ٢٦٤) .

على أية حال الف يتسحاق القدس والفته ايضا . وأصبح يعرف كل من فيها . وبينما كان يعمل في منزل احد الاغنياء في القدس ، اقترب منه كلب قصير الاذنين حاد الأنف ، ذيله هزيل وفروته متقلبة فهي تارة بيضاء وأخرى صفراء وثالثة دكناء ، وامسك يتسحاق بفرشاته وكتب على فروة الكلب بضعة حروف تشكل كلمة « كلب » . وربت يتسحاق على ظهر الكلب وقال من الآن فصاعدا لن يخطئك الناس ، بل سيعرفون انك كلب ، ولن تنسى ايضا انك كذلك » . (ص ٢٧٤) .

ولكن الكلب ظل واقفا امام يتسحاق وكأنه يستجدي المزيد من الكتابة ، فكان له ما اراد . فقد كتب يتسحاق بفرشاته على فروة الكلب عبارة « كلب مسعور » بالعبرية : «كيليف مشوجاع » (ص ، ٢٧٦) .

والكلب هنا مرتبط بمصير يتسحاق ، او هو الأنا الثانية ليتسحاق ، الممزق بين القديم والجديد .

ويقول عجنون «لكنا لا نعرف ما اذا كان يتسحاق قصد من البداية ما كتبه على فروة الكلب ام ان هذه عملية تمت في وقتها» . . . (ص، ٢٧٥). عموما ، بعد ان حصل ما حصل ، زجر يتسحاق الكلب وركله بقدمه ، «فسال منه الدم ونبح نباحا مكتوما ثم راح يعدو» (ص ٢٧٦).

أخذ الكلب يعدو ، لا يدري الى أين ، وحيثما اتجه يصطدم بشيء يسبب له ألما .

واخيرا وصل الى ميئاه شعاريم . ولدى وصوله وبينما هو ينشد الراحة والسكينة ، اهتز الحي كله وبدأ جميع المارة من رجال ونساء وأطفال يتراكضون في هلع ، وكان الكلب يعتقد انهم يفعلون ذلك. لسماع عظة يلقيها الربي جرونام ياقوم بورقان(*) الذي تشد عظاته جميع سكان القدس (ص ٢٢٧) ولكنه كان مخطئا. فالامر يتعلق به هو. ذلك ان كل من يراه يطلق لرجليه العنان صائحا في ذعر كلب مسعور، كلب مسعور. واختبأ الرجال والنساء والأطفال في بيوتهم واغلقوا ابوابها، وخلا حي ميئاه شعاريم ولم يبق سوى ذلك الكلب الذي ذهب ايضا الى جحره.

وفي صباح اليوم التالي ، خرج من جحره ، وسرعان ما خرج كل سكان الحي واخذوا يرجمونه بكل ما تصل اليه ايديهم ، وأخذ هو ينبح بصوت عال وكان لسان حاله يقول : ما هو الخطأ الذي ارتكبته ؟ ماذا تريدون مني ؟ وماذا اقترفت من شر في حقكم ؟ واستمر ينبح حتى هربوا واختبأوا ، ولم يكد يبدأ التفكير في كل ما رأته عيناه وسمعته اذناه حتى انهالت عليه الحجارة من كل صوب وعندها بدأ يعدو تاركا ميئاه شعاريم حتى « استقر به المقام في حي يسكنه الجوييم على ما يبدو » . (ص ٢٨٣) وليس من المعروف اين حل . هل لدى اليونانيين الارثوذكس ام لدى اليونانيين الكاثوليك أم الأرمن . ولكن المعروف انه لم يترك مكانا لم يذهب اليه ، « كأولئك المرتدين عن الدين اليهودي الذين ينساقون وراء كل من يعطيهم أكثر » .

ويبدو ان الكلب هنا هو رمز الفكر المتحرر ، الذي يتعارض بالضرورة مع افكار سكان ميئاه شعاريم المغالين في تدينهم ، مما يدفعهم الى مطاردته والتخلص منه .

عاش الكلب بين « الجوييم » ولكنه لم يجد الهدوء والراحة بسبب الحيرة التي كانت تسيطر عليه ، وتراوده تساؤلات : « هل يمكن ان يتحول اليهود الرحماء ابناء الرحماء ، فجأة ، الى قساة ، ويتحول المسلمون الى رحماء ، هكذا كان يفكر ، ولكن طبيعته الكلبية لم تساعده على الوقوف على كنه هذه الامور » . (ص ٢٨٤) .

(*) حتى الاسم الذي اختاره عجنون للربي جرونام أي كلمتي ياقوم بورقان له دلالته . ذلك ان مصطلح ياقوم بورقان يعني « فلينجنا الله » ، وهو فاتحة كل صلاة من الصلاتين الاراميتين اللتين ترددان يوم السبت بعد قراءة التوراة من أجل سلامة المشتغلين بالتوراة وسلامة جمهور المصلين .

ثم عاد عجنون الى الحديث عن يتسحاق بعد أن فلسف احساسات الكلب ، بعد أن أصبح أسمه بالاك وهو الذي جاء من قراءة مدير مدرسة تابعة لجمعية « الأليانس » كلمة كلب بالعبرية من الشمال الى اليمين كاللغة الفرنسية (ص ٢٩١) .

ويقول ان سكان القدس فقهاء في الاسفار الخمسة الأولى من التوراة ويعرفون انه كان هناك شرير اسمه بالاك ويطلقون اسمه على كلابهم (ص ٢٩١) كما أن كلمة بالاك في العبرية تعني قطع ، جزأ ، قسم . وهناك اصطلاح هولميد اوتو بلاك ويعني لقّنه درسا ، او عاقبة عقابا ملائما(*) وعجنون يوظف الاسم هنا وكافة معانيه للايحاء بما يريد في ابراز العقاب الذي لحق بيتسحاق ، وبالتالي بالكلب بالاك من جراء التخلي عن المهمة التي جاء من اجلها ومع انه يريد أن يعود الى الماضي ، الا ان عودته جاءت متأخرة .

ونعود الى يتسحاق الذي تعرف على الربي « بايش » وابنته شفرا التي سنتبين انها نقيض لسونيا التي التقى بها في يافا . ويبدي الربي بايش غضبه من يتسحاق لانه يرتدي ملابس قصيرة ويحلق لحيته . وهنا يبرز عجنون الصراع بين القديم والجديد ، القديم متمثلا في الربي بايش والجديد متمثلا في يتسحاق .

ثم ينتقل عجنون الى الحديث مرة اخرى عن الكلب بالاك ، الذي أصبح مطاردا من قبل اليهود بسبب خطأ لم تقترفه يداه ، ويقول ان الخاطئين من بني اسرائيل مثلهم مثل الكلاب . قد يتوبون وقد لا يتوبون ، وحتى لو تابوا فان توبتهم لا ترجع الى رغبة ذاتية ، بل خوفا من حساب يوم القيامة . غير أن بالاك يقرر من تلقاء نفسه العودة الى ميئاه شعاريم . والرمز هنا واضح فميئاه شعاريم يرمز الى اليهودية . وقد اراد عجنون ان يقول إن اليهودي الذي يخالف تعاليم اليهودية مثله مثل الكلب الذي يهيم على وجهه لا يعرف الى اين يتجه ولا يجد مفرا في النهاية من العودة الى الشريعة اليهودية للخلاص من الأزمة النفسية التي تنغص عليه حياته .

وهو في طريقه الى ميئاه شعاريم تسيطر عليه مشاعر الخوف والتردد ، يرى بالاك الربي جرونام يقوم بورقان الذي كان يجر وراءه عباءته الطويلة ، وسرعان ما يختبىء الكلب في

(*) كما ان بالاك كما أسلفنا ، هو اسم ملك موآب ، بالاك بن صفور الذي طلب من بلعام ان يلعن اليهود ، ولكن اللعنة انقلبت الى نعمة ، كما جاء في سفر العدد ٢٢ ـ ٢٣ .

اطرافها دون ان يشعر به احد ، وما أن رأى سكان الحي الربي جرونام قادما حتى اخذوا يركضون في اتجاهه لان « الجميع يتوقون الى مواعظه » . وطلبوا منه ان يلقي موعظة فيستجيب لهم . كل ذلك بينما الكلب بالاك مختبيء داخل عباءته ، وقد احسن السيطرة على اعصابه كي لا يشعر به أحد . وبدأ الناس يتساءلون عن مضمون موعظة الربي جرونام ، ذلك « ان المعاناة كانت من نصيب الفقراء والارامل والأيتام ، ولا داعي للقول بأن القيمين على توزيع الحلوكا ، يمنحون الذي يملك الكثير نصيبا زائدا . اما من لا يملك شيئا فلا يعطونه حتى القليل المستحق له » . (ص ٣٠٤) .

يعبر عجنون هنا عن الانتقادات التي كانت توجه آنذاك الى الحلوكا ومن يقومون بتوزيعها ، خاصة من جانب رجال الهجرة الثانية ، الذين رفضوا القبول بها واعتبروها مثبطة للهمم وانهاتثني الناس عن العمل وتشجع على التواكل . ومن ناحية اخرى يرمز عجنون بما حدث للكلب بالاك مع الربي جرونام ، الى أن الدين اليهودي هو الملاذ الوحيد لكل يهودي ، وان من يتنكر ليهوديته سيكون مصيره التشرد والضياع ، فالعودة الى حضن اليهودية ، ممثلا في عباءة الربي جرونام ، هي عودة الى الامن والامان .

ولا ينسى عجنون هنا ، كما أسلفنا ، ان يصور ان العربي عقبة ومصدر ازعاج حتى بالنسبة للربي الذي يعظ الناس . فبينما يعظ الربي جورنام الناس ، يقف شخص عربي امام احد الحوانيت ليشتري اناء فخاريا ، « بحيث يختلط صوت الاواني الفخارية بصوت الربي جرونام » . (ص ٣٦٠) .

ثم يترك بالاك الربي جرونام يعظ الناس محذرا اياهم من عقاب الآخرة ، داعيا اياهم الى التقيد بتعاليم الدين ، ويصادف في طريقه الربي بايش الذي خرج في ظلام الليل الدامس لكي يعلق الاعلانات التي تدعو الناس الى مقاطعة الأشخاص الذين يخالفون الشريعة . ويؤدي نباح الكلب الى تعثر الربي بايش وسقوطه مع فانوسه على الأرض ، مما جعله يشعر بالخجل والأسى ، وأصيب الربي بايش بالشلل من جراء ذلك . ويسهب عجنون في ذكر فضائل الربي بايش ومآثره . والرمز الحدثي هنا واضح ، فحتى نباح بالاك اصبح حجر عثرة في طريق الدين والمتدينين رغم انه يحتمي بهم ، ولكن عودته اليهم جاءت متأخرة ، وهذا مقدمة لما سيحدث ايضا ليتسحاق .

ولما كان الربي بايش قد أصبح طريح الفراش بسبب ما اصابه اخذ يتسحاق يعوده في منزله مرتين او ثلاث مرات اسبوعيا . ولما كثر تردد يتسحاق على منزله اخذت الجارات يرقبنه ويغمزن من قناة شفرا ابنته ، وعندما كان يجلس في الدار كانت نظرات شفرا ووالدتها تبدو كأنها تطالبه بمغادرة الدار ، علاوة على أن استقبالهما اياه اصبح فاترا .

وشعر يتسحاق بالوحدة والفراغ ، وتذكر يافا وسونيا وقرر السفر الى يافا ليلتقي بسونيا ويبت امره معها ، من حيث قبولها او عدم قبولها اياه زوجا لها (ص ٣٣٦) . ويلتقي يتسحاق شفرا ، مصادفة ، خارج منزلها ويخبرها عن رغبته في السفر الى يافا ، مما سبب لها الارتباك والخجل ، فلم تصل العلاقة بينهما بعد الى درجة ابداء رأيها في أمور تخصه شخصيا حتى وان كان هو راغبا في ذلك . وتساءلت في سريرة نفسها ماذا يحدث اذا سافر الى هناك ؟ ولكنها لم تجد الجواب . ثم وجهت السؤال الى يتسحاق بصيغة أخرى : الا يحز في نفسه ان يترك القدس ؟ ولكنها لم تنتظر الجواب ، خشية ان يعتقد انها ستكون آسفة على رحيله . واسرعت بالابتعاد عنه عائدة الى منزلها .

تملك يتسحاق الاسى لانه لم يتمكن من ان يسر لها بكل ما يكنه في قلبه ، وبدأ يركض وراءها لعله يلحق بها لكي يجيب على سؤالها ولكنها كانت قد ابتعدت ولم يتمكن من اللحاق بها . وبينما هو في طريقه يصادفه الكلب بالاك الذي اخذ ينبح لدى رؤيته يتسحاق مما قطع تفكير يتسحاق في شفرا وما حدث بينهما .

قام يتسحاق ، بعد ذلك بأيام ، بزيارة الربي الطر الذي جاء من جاليتسيا وسكن القدس . وكان الربي الطر يحسن استقبال يتسحاق ويكن له الود منذ صغره . وحدثه الربي عن شؤون بلدتهما ، في جاليتسيا ، مما اثار لدى يتسحاق ذكريات ايام مضت . ولما فرغ يتسحاق من زيارة الربي الطر توجه الى حائط المبكي للصلاة لراحة نفس امه ، الذي صادف في ذلك اليوم ذكرى وفاتها .

عاد يتسحاق مجددا الى التفكير في السفر الى يافا . وتأهب للسفر وأعد له عدته . حيث وجد مستأجرا للغرفة التي يسكنها وجهز ما سيحتاج اليه في يافا . وبينما الحال كذلك ، أخذ يفكر في شفرا التي سيتركها بسبب سونيا ، وفي سونيا التي تركته ورغم ذلك فقد وجد من الضروري ان يتحادث معها ، فطالما انه لم يبت امره معها ، ليس من حقه ان يعتبر نفسه حرا

في هذا الشأن . انه ذاهب الى سونيا لكي يطلب يدها ويعرف رأيها ، فاما ان تقبل به زوجا لها ويكون له ما اراد من قبل او ترفضه فيصرف النظر عن مسألة الزواج بها ، وعندها سيكون لكل حادث حديث ، اي العودة الى شفرا لكي يحاول معها من جديد .

الجزء الثالث :

استقل يتسحاق عربة تجرها الخيول الى يافا ، ويسهب عجنون كعادته ، في وصف هذه الرحلة من القدس الى يافا ابتداء من الحوذي والعربة والخيول ومن الطريق وتعرجاتها وأحاديث الركاب بعضهم مع البعض .

وصل يتسحاق الى يافا وتوجه مباشرة الى منزل سونيا ، وقد جاء يطلب الزواج منها . واستقبلته وكأنه شخص غريب ، ودار بينهما حديث ، واخبرته ان كثيرين يريدون الاقتران بها ، الا انها تريد ان تكون حرة ، «ولن احمل على كاهلي عبء الزواج ، بعد ان ازحت عنه عبء الأب والأم» .(ص ٣٦٥) وكان هذا جوابا كافيا بالنسبة لما جاء يتسحاق من أجله من القدس .

والتقى يتسحاق بعسقا نوفيتش في صحبة سونيا ، وقد راح يتحدث عن « المكتب الفلسطيني » وقال ان « دافيد ولفسون لم ينشئه الا لكي يثبت انه لا يمكن عمل شيء في ارض اسرائيل » . (ص ٣٦٨) وهنا تعكس الرواية ما كان يتردد من انتقادات للزعماء الصهيونيين السياسيين . والتقى الشاعر حمدات ويعقوب ملخوف صاحب الفندق الذي يحرص على اداء الشعائر الدينية وهو من انصار « حباد »(*) . وتتحدث الرواية ايضا عن الواقع المؤلم الذي اصطدم به العمال والمستوطنون الجدد . ولا ينسى عجنون ان يرجع قسما من هذا الى العرب الذين كان المستوطنون القدامى يفضلونهم على المهاجرين الجدد ، ويلتقي يتسحاق ايضا بالأديب يوسف حاييم ـ برنر الذي يدعو الى نبذ الحلوكا وحراثه الأرض .

وعاد يتسحاق الى التفكير في شفرا ، رمز التدين ، وفي العودة الى القدس . وهنا تنتقل

(*) حباد : الحروف الاولى من حوخما، بيناني داعت بالعبرية وهو لقب يطلق على فئة من حركة الحسيدوت اسسها الحاخام شنيئور زالمان ميلادي (١٧٤٧ ـ ١٨١٢) وهدفها المزج بين الحسيدوت والمعرفة والتفقه في الدين .

الرواية الى الحديث عن العمال والمستوطنات ونشاطات « المكتب الفلسطيني في هذا المجال وتأسيس بعض المستوطنات بجهود ارتور رؤبين مدير هذا المكتب . وفي سياق ذلك التقى يتسحاق اهارون جوردون صاحب « دين العمل » .

وانتقلت الرواية فجأة الى القدس ، الى منزل الربي بايش ، وسردت الافكار التي غرقت فيها شفرا ووالدتها . فالاولى تفكر في يتسحاق وفي غيابه ، والثانية تفكر في حال الانسان وكيف انه يقترب من نهايته مع كل يوم يمر عليه « فهو اليوم لم يعد كما كان بالامس وغدا لن يكون مثل الامس . بالامس كان كحديقة غضة ، اما اليوم فقد يبست حتى عصاه التي يتوكأ عليها . . . انه يسير اليوم على قديمه وغدا سيحملونه على الاكتاف » . (ص ٤٢٠) .

ثم عادت ، من خلال قطع استمرارية الحبكة الروائية الى يافا للحديث عن كيفية الشروع في بناء مدينة تل ابيب ، التي كانت حيا من احياء يافا . حيث اجتمع نحو ستين شخصا وكونوا جمعية اطلقوا عليها اسم أحوزات بايت . وقد تباينت الآراء في كيفية تنفيذ هذا المشروع . ذلك ان البعض طالب ببناء حي داخل المدينة يكون قريبا من اعمالهم . وطالب آخرون ببناء حي خارج المدينة يكون ذا طابع يهودي خالص . وقد انتصر في النهاية أصحاب الرأي الاخير . ثم بدأوا العمل وحصلوا على قروض من الصندوق القومي « هاكيرين هاكيميت » . وهكذا وضعت نواة مدينة تل أبيب .

وانتقلت احداث الرواية مرة اخرى الى الكلب بالاك الذي اصبح مطاردا من الناس والصحف في الاحياء اليهودية . وتصل اخباره الى يافا ، وتتردد شائعة مفادها ان كل ما يقال في قضية بالاك موجه ضد الاوصياء على شؤون التعليم في القدس او اولئك الذين يجرون وراء اسيادهم الحكام والقناصل » . (ص ٤٦٠) .

وتتحدث الرواية عما سمي في حينه بحرب اللغات ، اي الصراع على استخدام اللغة العبرية بدلا من اللغات الاوروبية التي كانت سائدة في مؤسسات التعليم اليهودية آنذاك في فلسطين . وقد شغلت هذه الحرب الناس مما جعلهم يصرفون انظارهم عن الكلب بالاك . غير أن ذلك لم يدم طويلا ، فسرعان ما عادت القدس الى خلافاتها وخصوماتها والى الخلاف الكبير بين جميع الطوائف حول قضيته . حيث قال الحاخامون الاشكناز أن بالاك ما هو الا

« تطور لذلك الهرطقي الذي يكفر بالتوراة كلها ولكنـه يعتـرف باللغـة المقدسـة ، بينما قال الحاخامون السفارديون انه الثعلب المعروف الذي يخرج من اقدس مكان في بيت المقدس » (ص ٤٦٢) .

وتعدت قضية بالاك حدود فلسطين وإستفادت الحركة الحسيدية من الرفض الذي جوبه به ، كما شغلت العلماء والباحثين ، الذين اتخذوه مجالا لابحاثهم ، والفنانين الذين اتخذوه « موديلا » لهم . (ص ٤٦٣) .

وتحدثت الرواية مطولا عن صفات الكلب بالاك وأصله ، وكيف أن احد اجداده وهو الكلب توفال كان زعيما لمجموعة من الكلاب في القدس وقدموا خدمات ممتازة للحاخامـين اليهود في حربهم ضد العلمنة واقامة مدارس غير يهودية . (ص ٤٧١) .

ولكن منذ اليوم الذي نفي فيه بالاك من ميئاه شعاريم وأخذ ينتقل من مكان الى آخر ومن طائفة الى أخرى تملكته روح مختلفة . وتزعزعت عقيدة آبائه لديه وتنكر لقوة البشر ، وهو يتنكر لقوة الانسان عندما لا يكون هناك من يواجهه ، ولكن عندما يرى انسان وعصاه في يده يغير رأيه ويبدأ في مداهنته والتملق له. (ص ٤٧٤) ، وأصبح مطاردا من قبل الجميع اليهود وغير اليهود : (ص ٤٧٦) .

الجزء الرابع :

سافر يتسحاق الى القدس مستقلا القطار هذه المرة ، تاركا سونيا وراءه في يافا ، ولم يبق امامه الا ان يتوجه الى ام شفرا ويطلب يد ابنتها . وهنا عادت الرواية مجددا الى التحامل على العرب . فالحاخام نفتالي « يسكن لدى عربي شرير يكدر جيرانه اليهود كل يوم» (ص ٤٨٨)، «مثل السقائين العرب يرفعون اسعارهم عندما يرون القدس ظمأى للماء » (ص ٤٨٨) .

لما وصل يتسحاق الى القدس توجه الى منزل الربي بايش وطلب من رفقـا يد ابنتهـا شفرا ، ووافقت رفقا على زواج ابنتها من يتسحاق ، وتم عقد القران ، وحضر الحفل الربي حاييم رفائيل الذي حدث يتسحاق عن القدس وكيف انه هاجر اليها لكي يدفن في ترابها . (ص ٥٥٣) وهذه اشارة الى أن الهجرة الى فلسطين كانت في البداية لاغراض دينية .

ومرت بفلسطين آنذاك فترة جفاف قاسية وعم الغلاء ولم يعد للناس الا الدعاء الى الله

في المعابد والكنس لكي ينزل المطر ، وترجع الرواية ذلك الى كثرة ذنوب اليهود (ص ، ٥٦) وها هو الربي حرونام يلقي مواعظه في ميثاه شعاريم ، ومال قلب يتسحاق الى تلك المواعظ لانه يحب سماع آيات التوراة « على خلاف ابناء جيله الذين ابتعدوا عن تعاليم الآباء ؟ » (ص ، ٥٦٠) .

ثم ماذا بشأن بالاك انه يتوق الى مكان تتوفر له فيه الراحة ، ولكن حظه يطارده اينما كان فتارة يشهرون في وجهه العصى واخرى يرجمونه بالحجارة ، وثالثة يواجهونه بالشتائم . وحتى يتسحاق عامل الطلاء الذي اراد ان يخبره بسبب مطاردة الناس اياه ، ركله برجله . ان بالاك يبحث عن الحقيقة ولكن دون جدوى . وعليه يقرر العودة الى ميثاه شعاريم مهما تكن الاسباب . فرغم انه كان في حالة مرضية من ناحية طعامه في منزل ريخارد فاجنر ، الا انه « سئم الاطعمة المحرمة وتاق للحم المحلل ، رغم ان التوراة حللت له لحم الفرائس والجيف ، وقاده هذا التوق الى العودة الى اليهود » . (ص ٥٦٢) .

وفيما كان في طريقه الى ميثاه شعاريم « رأى نحلة تحوم ، فقفز على ظلها تطبيقا للمثل القائل «من جاء ليقتلك بادر الى قتله » خوفا من ان تلسعه .ولكن النحلة احست بالامر رضحكت وقالت : « تبا لك ايها الكلب الضال لن السعك ، وظلي لن يعطيك عسلا»

فحتى النحلة تبدي استخفافها بـ بالاك ولا تتيح له الاستفادة حتى من ظلها مهما يكن ضيقا .

واتجه بالاك إلى ميثاه شعاريم، وتصف الرواية ما يراوده من أفكار، ومنها احتمال الامساك به، وجعله يدير حجر الرحى ليطحنون قمحهم، لكن لحسن حظه كانت هناك طاحونة تعمل بواسطة الهواء، وقد اقامها موشيه مونتيفيوري مؤخرا وقوبلت بمعارضة من جانب حاخامي القدس الذين «يخافون كل شيء جديد يمكن ان يؤدي الى الكفر» (ص ٥٧٠).

وعاد عجنون مجددا الى ما يسميه « بقسوة العرب » حتى في طحن القمح ، مشيرا الى انه رغم حصولهم على أجور مرتفعة مقابل طحن القمح ، لم يكن ينتج عن هذا الطحن سوى القليل من الطحين . (ص ، ٥٧١) تاركا للقارىء استنتاج سبب ذلك ، حيث يعني ضمنا انهم يسرقون القمح والا فلماذا يكون الطحين اقل من القمح ؟ وليس هذا فحسب ، بل انهم « حقدوا على الطاحونة التي اقامها مونتيفيوري وحاولوا تخريبها» (ص ٥٧١) .

وتستطرد الرواية في سرد الافكار التي اخذت تراود بالاك بشأن ميثاه شعاريم ، ويلتقي شيطانه في صورة أمرأة ، ويدور بينهما حوار طويل عن الحياة والموت ، وراح يفكر في ذلك الامر الذي يشغل كل الباحثين على مر الاجيال . من نحن ! وما معنى حياتنا ! وهل تستحق متعة برهة من الزمن كل تلك الآلام والمعاناة والمشاكل التي تحل بنا . ويدخل بالاك في فلسفة كلبية حول جوهر الحياة والموت . وانتبابته الكآبة وتمنى الموت . ولكن الموت لا يأتي ، عادة ، حين نتمناه ، وانما يأتي حين لا نتوقعه (ص ٥٧٥) ، وكاد يصاب بالجنون من كثرة التفكير . ولكنه لا يوافق الفلاسفة على رأيهم القائل بأن الجنون من الكآبة وليس من الشياطين .

وعلى ذكر الموت والحياة ، ادرك الكلب عظمة الانسان الذي يقبض على كل شيء ، والذي يرتبط الامل باستمرار وجوده « اذا ما وجد الانسان وجد الامل ، فاذا مات ضاع الامل » (ص ٥٧٨) .

وأسهبت الرواية في وصف تأملات بالاك وهو في طريقه الى ميثاه شعاريم ، ولم تترك شاردة ولا واردة الا وذكرتها بدءا بكواكب السماء وانتهاء بحجارة الطريق .

وأخيرا « دخل بالاك الى ميثاه شعاريم سائرا في جنبات الطريق ، سائلا لعابه ، وعيناه محمرتان بلون الدم . ينبح ولكن صوته لا يسمع ، واخذ يطهر جوفه من الاطعمة المحرمة فيه » . (ص ، ٥٨٣) . وتتوافق عودة يتسحاق الى القدس مع عودة الكلب بالاك الى حي ميثاه شعاريم .

وهنا عاد عجنون مجددا الى الغمز من قناة العرب ، فيصف جلوس الكلب بالاك بأنه مثل جلوس العرب ، مع انه من ذوات الاربع ، وليس مثل الانسان مهما كان عرقه ودينه ، (ص ، ٥٨٤) .

ولما دخل بالاك الى ميثاه شعاريم كان الناس مشغولين بالاستماع الى الربي جرونام . وتدخلنا الرواية في وصف مستفيض ، وعجنون بارع حقا في هذا المضمار ، حيث ادق التفاصيل وكل التعابير الجسدية التي تظهر لدى الخطيب وهو يتحدث الى مستمعيه :

يتطاير كلامه كالسهام، وتأجج عيناه وكأنهما شعلتان ، ويتردد صدى صوته من أقصى ميثاه شعاريم الى اقصاها ، وكلما صدرت عنه آهة او تحسر بادله المستمعون نفس التعبير ، وهو يتمايل يمنه ويسره ويغمض عينيه ويفتحهما ، ويبسط يديه ويعيدهما ، ويضرب بيده على

صدره . (ص ٥٨٤) .

وقال الحاخام جرونام في خطبته « الا يجدر بهذا الجيل ان يتعلم قليلا من مآثر حاخامينا المقدسين وان يحافظ على الشرائع ويصنع الخير » (ص ٤٨٥) ونتبين هنا ما تهدف اليه الرواية من الدعوة الى الحفاظ على التراث اليهودي القديم ، ومهاجمتها محاولة افراغ المضمون اليهودي الذي تعتبره الضمانة لخيرهم . « أما ابناء هذا الجيل ، والمقصود بالطبع رجال الهجرة الثانية ، فهم مثل الكلب المسعور ، بل هم اسوأ منه ، لانهم يعتقدون انهم حاخاميون كبار وفلاسفة ، في حين ان الكلب المسعور افضل منهم لانه يعلن عن نفسه بأنه مسعور » . (ص ٥٨٦) .

وبينما الحال كذلك ، امتقع لون وجه الحاخام جرونام ، وكان يبدو ان لحيته قد اصابها الشيء نفسه . وفتح فمه محاولا الصراخ ولكن فكيه تسمرا وفقد القدرة على الكلام ، وجحظت عيناه ، ونظر الى الناس الذين يخطب فيهم وهم لم يدركوا بعد ان المثل الذي اورده عن تشبيه صورة الجيل بصورة الكلب قد أصبح ماثلا امامه ، فها هو الكلب بالاك قابع امامه ، وفجأة اخذ يصيح :الكلب المسعور ،الكلب المسعور ، وانتاب الناس الهلع ، وبدأوا يتراكضون الى حيث يريدون والى حيث لا يريدون ، ولكنهم عادوا الى نفس المكان الذي انطلقوا منه بسبب التدافع وشدة الزحام ، ووقفوا دون حراك الا ان اعينهم تنظر هنا وهناك ، بينما يرتسم فيها الهلع والخوف ، ذهل بالاك وانتابه الاستغراب ، الى درجة انه نسي ان ينبح ، ادهشه انهم لا يفعلون به شيئا ، فلو رفع احدهم عليه عصاه لولى الادبار ، وبما انهم لا يفعلون ذلك ، اذ هم يخافونه ، هكذا كان احساس بالاك وشعر بالزهو واخذ ينظر اليهم نظرة استعلاء ، ثم رفع صوته بالنباح فبدأوا يهربون .

وكان صوت نباحه غريبا في تلك الساعة ، فقد « ارتجت فزعا منه حتى الاجنة في بطون امهاتها » (ص ٥٨٩) .

وها هو يتسحاق واقف ولم يكن يرى شيئا ، حتى سمع الناس يقولون الكلب ، الكلب ، محذرين من الاقتراب منه ، ثم رأى يتسحاق بالاك وقال بدهشة من قال لكم انه مسعور ، اليس مكتوبا ذلك على فروته ، اجابه احدهم ثم اخبرهم يتسحاق انه الذي كتب هذه الحروف على فروة الكلب وقص عليهم ما كان من امر بالاك معه ، وهو يشعر بالخجل الشديد

كلما سمع بالمشاكل التي سببها الكلب ، وانتابه الاسى ، وكأنه « انسان اذنب وينتظر عقابه » (ص ٥٩٠) .

وتبدد خوف الناس ويتسحاق بالطبع ، من بالاك ولكن الكلب لم يحول نظره عن يتسحاق سبب كل ما تعرض له من مشاكل ، وبدأت تراوده الافكار بشأن الثأر منه ، بعد أن تبين له ان معرفة الحقيقة تذهب الخوف ، وهو الباحث عن الحقيقة ، معتقدا بانه اذا عض يتسحاق ، « ستمطر الحقيقة من جسده ودمه كأمطار الخير» (ص ٥٩٣) .

نسي بالاك برهة رغبته في الثأر من يتسحاق ، ولكنه احس بالكآبة ، وازكمت رائحة يتسحاق ، عامل الطلاء ، انفه ، وبدأت امعاؤه تدور في داخله كالرحى ، ولما هم يتسحاق بالذهاب الى عروسه شفرا ، « قفز عليه بالاك وغرز فيه انيابه وعضه ثم ولى الادبار» (ص ٥٩٥) وتجمع الناس حول يتسحاق ونقلوه الى منزله . وعندما انتهى المطاف بـ بالاك في مكان ما ، بدأ يتحسر لان الايام التي قضاها في البحث عن الحقيقة ذهبت سدى ، ولا حقيقة ولا من يحزنون . (ص ٥٩٦) .

أخذ الالم يشتد على يتسحاق وبدأ يحس به في كل اجزاء جسمه ، وأصيب بهزال شديد من جراء انتشار سم الكلب ، ولم تأل شفرا ووالدتها جهدا في العناية بيتسحاق ، وكان بعض الناس يعودونه ويواسونها . لماذا حدث كل هذا ليتسحاق ، يرد عجنون على هذا السؤال على لسان افرايم الذي يعمل في ترميم المنازل حيث يقول :«هذا قضاء الله ولا معقب لحكمه . وهناك جواب واحد على الأسئلة التي تطرح في العالم ، وهو ان ما يحل بنا هو نتيجة اعمالنا السيئة » . (ص ، ٦٠٣) .

ويدخل عجنون كراوية فيقول : « الآن ، ايها الرفاق الطيبون ، عندما نتأمل في الأحداث التي مرت بيتسحاق نقف مشدوهين وفزعين ، فيتسحاق هذا ليس اسوأ من سائر البشر ، فلماذا عوقب الى هذه الدرجة ، ألانه استفز الكلب ؟ انه لم يقصد سوى الدعابة . هذا بالاضافة الى ان نهاية يتسحاق غير متسقة مع بدايته ، حيث كان يود ، وفقا لنوعيته وتأهيله ، ان يفلح الارض ليعيش على الزراعة ، أو أن يعمل على أن يلحق به والده واخوته واخواته . . . » (ص ٦٠٤)

نعود الى يتسحاق الذي ساءت حالته واوثقوه بالحبال ، كما كان مألوفا آنذاك في مثل حالته ، وادخلوه في غرفة منفردة واحكموا غلق بابها ونوافذها عليه ، يقدمون اليه الماء والطعام ، ولكنه لا يمس هذا ولا ذاك بسبب ما حل به من هزال شديد ، يجلس وحيدا في غرفة مظلمة وينتحب بمرارة .

سمّ الكلب يسري في كل أعضاء جسمه ، وفي نهاية الامر « أصيبت عضلات لسانه وعينيه بالشلل ولفظ أنفاسه المتألمة واسلم روحه الى بارىء الارواح » (ص ٦٠٥) .

اختفى الكلب بالاك عن الانظار ، بيد أن عضاته تشهد على أنه حي .وبما انه تذوق طعم لحم الانسان لم يكف عن ممارسة ذلك . اصاب كثيرين ، وكان كثيرون يذكرونه والفزع ينتابهم .

وفي اليوم الذي وري فيه جسد يتسحاق الثري تلبدت السماء بالغيوم . وحجبت السحب نور الشمس وهبت الريح حاملة معها البرق والرعد . . . وفي اليوم التالي هطل المطر ، ولم يتوقف ليلا ولا نهارا لمدة ستة او سبعة أيام . ثم اشرقت الشمس وبدأت الارض تزهر بعد أن ارتوت بالمياه . . . »

ويختتم عجنون الرواية كما بدأها بمخاطبة رجال الهجرة الثانية : « وانتم يا اخوتنا وروادنا من كنيرت ، ومن مرحافيا ، ومن عين جانيم ، وفي ام جونى ، خرجتم الى عملكم في الحقول والبساتين ، ذلك العمل الذي حرم منه صاحبنا يتسحاق ، فهو لم يحظ بالعمل في حراثة الأرض وزراعتها ، ولكنه حظي كجده الربي يوديل حسيد ، وكبقية بعض الصدّيقين والصالحين ، بقبر دفن فيه في الارض المقدسة . وليحزن كل المحزونين على هذا المعذب الذي مات ميتة سيئة . اما نحن فلنقصّ اعمال اخوتنا واخواتنا ابناء الله الحي ، شعب الله الذين يفلحون ارض اسرائيل » . (ص ٦٠٧) .

يمكن أن نتبين من خلال هذا العرض الموجز للرواية ، ان « الأمس الأول » ليست انعكاسا لمصير يتسحاق كومر فحسب بل هي انعكاس لمصير رجال الهجرة الثانية ولصورة اليشوف اليهودي القديم والجديد في تلك الفترة (١٩٠٤ ـ ١٩١٤) .

فعجنون يعالج في الرواية المواجهة بين القديم والجديد ، وتحدث هذه المواجهة ، داخل

شخص ، وهو يتسحاق كومر ، باعتباره أحد افراد الهجرة الثانية ، وهي الفترة التي هاجر فيها عجنون الى فلسطين ، فالعبارة التي بدأت بها الرواية ، والتي نقلنا نصها العبري في مقدمة هذا العرض ، توحي ـ والعبارات الموحية سمة من سمات اسلوب عجنون الادبي ـ الى أن يتسحاق هاجر الى فلسطين بهدف البعث الروحي ، الا ان حركة احداث الرواية تثبت عكس ذلك . ويستخدم عجنون في الحبكة الروائية في « الأمس الأول » الرموز لمهاجمة من وما يريد بطريقة غير مباشرة وباسلوب هادىء . فالمهاجرون اليهود يصبحون علمانيين بعد استقرارهم في فلسطين ، بحيث لا تعدو الهجرة اليها أكثر من انتقال في المنفى الى بلد جديد . وعلى الرغم من الدعوة الى التدين الا ان هناك انتقادا لاذعا للمغالاة والتطرف فيه ، ومثال ذلك مهاجمة الرواية لحي ميئاه شعاريم « الغارق في ظلام روحي وفكري » . فسكان هذا الحي يرتعدون من الكلب بالاك عندما يدخل الحي ، ويبدو ان بالاك هو الأنا الثانية ليتسحاق كومر وهي مكبوته في محاولة كومر العودة الى التدين ، الى القدس الى شفرا ويرمز بالاك الى العلمانية ، ولكن سكان ميئاه شعاريم لا يستطيعون مجابهة هذه العلمانية فهم يخافونها ويهربون منها .

وبطل الرواية يتسحاق ، والذي يعتبر بالاك انعكاسا لشخصيته ، شخص بسيط لا يجيد الحديث ، وبسبب عجزه عن التعبير عن أزمته يستخدم عجنون الرموز لالقاء الضوء على وضعه وواقع حاله . كما أنه عرضة للتأثيرات الخارجية فهو متردد بين يافا والقدس ، سونيا وشفرا ، فهو يمثل صورة جيل . انه تابع وليس قائدا ، الأحداث هي التي تقرر خطواته لا هو . لقد ذهب يتسحاق الى فلسطين لكي يحقق صهيونيته ، ولكن تغيرت حياته هناك ، فقد تكشف له زيف المثل النبيلة للصهيونية في نظره ، وعندما رأى الصهيونيين يستخدمون الصهيونية في مآربهم الخاصة وكوسيلة للظهور ، انقلب وضعه هو أيضا ، فلقد جاء ليفلح الارض ويجعل الطبيعة مزهرة وخضراء وها هو يتحول الى دهّان ، يقوم بطلي المنازل القديمة ، انه يشوه الطبيعة ، فبدلا من ان يتجه الى المستوطنات والى القدس ، يتوجه الى يافا ، مبتعدا عن وجهته الحقيقية ، وفجأة يحن الى القدس الى الماضي ، الى ميئاه شعاريم ، الى شفرا رمز التدين النقيض لسونيا رمز الصهيونية الجديدة والعلمانية . وفي ميئاه شعاريم يلتقي الكلب بالاك « الكلب المسعور » الذي يبحث عن اللغز الكبير والمخيف الذي غير طبيعته الكلبية والذي يتمثل في كلمتي « كلب مسعور » اللتين كتبهما يتسحاق بفرشاته على فروة الكلب ، ولذلك فانه مضطر الى الدخول في اعماق الانسان، ويبدو ان بالاك يرمز الى الهسكلاه ، الى

الفكر المتحرر ، وكل ما يجب استئصاله من يتسحاق في تحقيقه لمهمته الجديدة .

يبحث عن الحقيقة ، عن سبب مطاردة الانسان له ، وهنا تحدث المواجهة المحتومة بينهما ، وهي قاتلة حيث يعض الكلب يتسحاق واضعا بذلك نهاية لحياته . وهكذا لم ينجح يتسحاق في العودة الى الماضي لان عودته جاءت متأخرة ، في حين ان الكلب نجح اكثر منه في اكتشاف اساليب الانسان ، وان كان يفعل هذا بسذاجة وعفوية .

الخصائص الأدبية لاسلوب عجنون في الرواية

من خلال عرضنا لمعالجة الرواية لسرد الاحداث ، يمكن ان نلحظ بعض الخصائص والسمات الادبية لاسلوب عجنون ، ومن ابرزها الرمزية ، واستخدام الامثال والعبارات الموحية ، وقيامه بدور الراوي لتفسير احداث ومواقف ، وقطع استمرارية عنصر الزمن في الحبكة الروائية من خلال الانتقال الى ازمنة وأماكن مختلفة ، والرواية على لسان الحيوان ، والاسهاب في التصوير الوصفي لادق تفاصيل الحياة اليومية .

وسنورد فيما يلي كل سمة من هذه السمات منفردة مدللين عليها بما توصلنا اليه من خلال دراستنا لرواية « الأمس الأول » موضوع البحث .

١ ـ **الرمزية** : تتجسد هذه السمة بشكل بارز في الرواية حيث يحول عجنون كل فلسطين ، المسرح الرئيسي لاحداث الرواية ، الى رموز . فيتسحاق كومر ، بطل الرواية ، يرمز الى البسطاء من افراد الهجرة الثانية ، والى اليهود الذين تتنازعهم قيم الماضي وأحداث الحاضر ، أو حالة تمزقهم بين القديم والجديد . وترمز سونيا ويافا الى الصهيونية الجديدة ، الى العلمانية ، في حين ترمز شفرا والقدس الى نقيض ذلك ، الى التدين ، الى القديم ، الى قيم الماضي . والكلب بالاك يرمز الى الخطيئة ، الى الشر ، الى الهسكلاه والفكر المتحرر الذي لا يجد غضاضة في العيش بين « الجوييم » وتناول اطعمتهم ، ولكن كل ذلك يقوده الى الضياع الروحي ، وانه الأنا الثانية ليتسحاق ، فكلاهما ابتعد عن القدس ، عن ميئاه شعاريم ، كما ان اختيار عجنون مهنة الطلاء ليتسحاق ترمز الى انه تحول من حراثة الأرض وتنمية الطبيعة الى طلاء المنازل القديمة بألوان اصطناعية ، سرعان ما تصبح قديمة لانها لا تمثل الجوهر ، لا تمثل الطبيعة . وهو يشير بهذا الى زيف الدعاية الصهيونية وافلاس الايديولوجية الصهيونية في بدايتها .

٢ ـ **استخدام الأمثال والعبارات الموحية** : يكثر عجنون من استخدام الامثال للتعبير عن الواقع والظروف التي تعيش فيها شخصيات الرواية ومن هذه الامثال :

دعني وشأني .

ان الطيور على اشكالها تقع .

من يزرع الريح يحصد العاصفة.
كل ممنوع مرغوب.
الصحة تاج على رؤوس الاصحاء.
اذا عرف السبب بطل العجب.
قد يلتقي صديقان ولكن جبلين لا يلتقيان.
طوبى لمن يأكل من كد يده.
عسى ان تكرهوا شيئا وهو خير لكم.
نال مبتغاه.
من جاء ليقتلك بادر الى قتله.
كل كلب ببابه نباح.

وهناك امثلة كثيرة في الرواية لا يسمح المجال بايرادها جميعا ومن ابرز العبارات الموحية التي استخدمها عجنون في الرواية مهاجما «ادباء الهسكلاه حيث يقول:
وهنا جاء بعض حكماء الزمان وجعلونا نتمادى في أخطائنا بمقالاتهم وابحاثهم التي جاء فيها ان معظم الفروض والاوامر ليست سوى نتيجة للنفي....».

وكذلك مهاجمته الزعماء الصهيونيين الذين لا هم لهم سوى الاشياء المظهرية دون ان يعانوا شيئاً او يتكبدوا مشقة
يأتون لالتقاط صورة تذكارية معه وهو يسير وراء المحراث. (ص ٦٢).

٣ - قيام عجنون بدور الرواي: يقوم الكاتب بدور الراوي في تفسير الأحداث عندما يتحدث مثلا عن اصل الكلب بالاك او عن قصة مدينة يافا أو عن مصير يتسحاق في نهاية الرواية.

٤ - قطع استمرارية عنصر الزمن في الحبكة الروائية: وهناك امثلة كثيرة على ذلك، فبينما نجده يتحدث عن يتسحاق في يافا ينتقل فجأة الى جاليتسيا الى والده واخوته. وبينما هو في يافا ينتقل الى القدس، بينما هو مع سونيا يتذكر يتسحاق شفرا، ويعود الكاتب الى القدس الى منزل الربي بايش والد شفرا، والى حي ميئاه شعاريم، وبذلك يتخطى الأزمنة والأمكنة ويلغي الحاجز الذي يفصل بين أزمنة وأمكنة مختلفة.

٥ ـ **الرواية على لسان الحيوان** : وقد تمثل ذلك بوضوح في الكلب الذي تربطه علاقة مصيرية ببطل الرواية يتسحاق كومر . هذا الكلب الخيالي له وجهة نظر دينية (ص ٤٧١) . كما أنه له نظرة خاصة به بالنسبة لنشأة الكون (ص ٤٧٣) . ويطلعنا عجنون على نسب بالاك فأحد اجداده هو توفال الذي كان زعيم جماعة الكلاب في القدس ويحكم المنطقة الممتدة من باب يافا وحتى شارع بائعي الخضروات (ص ٤٧٠).

وتبرز صورة بالاك هنا بمعيارين كمجرد كلب تكمن اهميته في الانتقاد ، ولكن لكونه مرتبطا بمصير يتسحاق كومر يتحول الى رمز مخيف . فهو احيانا لا يمثل سوى ثقل هجائي ، واحيانا اخرى يتحول الى رمز يحاول التعبير عما لا يمكن التعبير عنه . وكان هذا هو دوره بالنسبة ليتسحاق .

٦ ـ **الأسهاب في التصوير الوصفي** : يسرد عجنون في الرواية ادق تفاصيل الظواهر اليومية ، وقد تمثل ذلك بوضوح في وصفه المسهب لرحلة يتسحاق بطل الرواية من جاليتسيا حتى وصوله الى فلسطين ، موظفا كل تسلسل الأحداث في خدمة ما يريد . وكأننا امام سجل كامل لسيرة حياة انسان ونشاطه اليومي منذ الوقت الذي يصحو فيه وحتى يأوى الى فراشه ، بل ويرافقه حتى في منامه ، أي فيما يتراءى له من احلام ، وهكذا دواليك . وفي فلسطين يصف عجنون أدق التفاصيل وأعمق أسرار الظواهر اليومية ولا شك في أنه اجاد هذا في سياق حركة أحداث الرواية . وحتى بالنسبة للكلب بالاك يصف تأملاته الفلسفية الكلبية والطرق التي يسلكها وما فيها من تعرجات ومنحنيات وما الى ذلك .

لما كان عجنون يعالج في معظم أعماله الأدبية ، ان لم نقل فيها كلها ، الواقع اليهودي ، بوصفه روائيا يعني بالاسطورة ، وما يحمله هذا الواقع في طياته من مفارقات طبقا للظروف المعاشة وانعكاساتها على حياة اليهود انفسهم ، فمن الصعب ان نلحظ قاسما مشتركا واحدا يجمع بين الشخصيات في أدبه . ذلك انها نتاج لهذا الواقع ، مهما أضفى عليها عجنون من تصويرات خيالية ، ومهما اسهب في الحديث عما يعرض لها من أحداث وتطورات . غير أن نقادا يرون أن الشمولية في حياة اليهود هي القاسم المشترك بين شخصيات روايات عجنون . وقد نرى ذلك بوضوح في رواية « الأمس الأول » ، حيث يجمع رباط معين يمكن ان نعتبره نتاج واقع الحياة اليهودية ، بين شخصياتها ، أو يحاول عجنون ان يجعلها كذلك .

فيتسحاق كومر يلتقي اشخاصا كثيرين في سياق الرواية يشده اليهم ، مهما تفاوتت درجات تدينهم او علمانيتهم هذا الامر الذي اراد عجنون ابرازه ، هو أن هناك اطارا معينا يجمع بين اليهود بهذه الصورة او تلك .

ويمكن تصنيف الشخصيات اليهودية في أدب عجنون في النقاط التالية ؛

ـ تعكس معظم الشخصيات في أعمال عجنون الأدبية واقع المدينة اليهـودية بكل ما فيها ، من مفارقات ، خصوصا مدن جاليتسيا مسقـط رأس عجنـون ، كما انهـا انعكاس لظروف اجتماعية واخلاقية في المجتمع اليهودي كما يتضح في رواية « زفاف العروس » .

ـ تمثل شخصياته نماذج بشرية متعددة ، فيشكلون معا وحدة متكاملة ، ومثال ذلك يتسحاق كومر الذي هو من نسل الربي يوديل حسيد بطل رواية « زفاف العروس » . وحتى الكلب بالاك يدخل في سلسلة خاصة به ، فجده كان الكلب توفال .

ـ يختار عجنون شخصيات فردية تمثل الحياة اليهودية ، وهي لا تسير على خط واحد ، فهناك المتدين المتعصب ، وهناك المعتـدل ومـن يقف موقفـا وسطـا ، وهـو بذلك يعـرض الشخصيات منطلقا من واقع حياتها ، ولكونه يحن الى هذا الواقع فانه يجيد وصفه .

ـ بساطة ابطال رواياته وميلهم الى الصمت الذي يمكن اعتباره تعبيرا عن حقيقتهم . فيتسحاق كومر مثلا انسان بسيط لا يجيد التعبير عن نفسه وعن الأزمة التي يعيش فيها ، ولكنه في حقيقته يمثل جيلا كاملا : هو جيل الهجرة الثانية .

ـ تمثل بعض الشخصيات مشكلة التقاليد والقيم الروحية عند الشعب اليهودي ومثال ذلك الربي بايش والد شفرا الذي يغالي في الحفاظ على التقاليد اليهودية .

ـ تعكس شخصياته اليهودية مشكلة الصراع بين الأجيال ؛ بين القديم والجديد ؛ بين العرف الجماعي والاتجاهات الفردية للجيل الجديد . وقد برز ذلك جليا في عرضه الصراع بين اليشوف اليهودي القديم في فلسطين وبين المهاجرين اليهود الجدد . وهو الامر الذي يتنازع يتسحاق في رواية « الأمس الأول » .

ـ معظم الابطال تقريبا في روايات عجنون يتحدثون ، كي يمارسوا التقاليد الـدينية اليهودية ويتذكروا ، ابطال العهد القديم . وعجنون يوظف خياله بشكل ملفت للنظر في هذا

الصدد ، لكي يحافظ على هذه الصورة لابطال رواياته .

ـ تعكس بعض شخصياته مسألة الدمج بين الموقف الديني والموقف السياسي . وقد برز ذلك بوضوح في معالجته موضوع الاستيطان اليهودي في فلسطين في فترة الهجرة الثانية في رواية « الأمس الأول » موضوع البحث .

الفصـــل الثـــاني

مشاكل الاستيطان في فترة الهجرة الثانية كما تعبر عنها رواية «الأمس الأول»

يمكن القول بأن فكرة الاستيطان ومشاكله ، هي المحور الرئيسي الذي تدور حوله أحداث رواية « الأمس الأول » ، فهي تحكي قصة احد افراد الهجرة الثانية ، يتسحاق كومر ، الذي هاجر الى فلسطين للاستيطان فيها ، عارضة لوضع الاستيطان والمستوطنين والمستوطنات هناك ، من خلال سرد لكل ما واجهه هناك من مشاكل وعقبات ، وانتقاد كل من تسبب في ظهورها وداعية الى تجسيد فكرة الاستيطان بمضمون ديني يهودي . والقول عن طريق الرمزية بأن كل من يبتعد عن تنفيذ مهمة الاستيطان على أرض الواقع وينحرف عن تعاليم اليهودية ستكون نهايته مأساوية ، ويتمثل ذلك بوضوح في النهاية التي آل اليها مصير يتسحاق كومر ، الذي لم يصمد في مواجهة تلك المشاكل والعقبات وتخلي عن المهمة التي هاجر من أجل تحقيقها ، وهي مهمة الاستيطان من خلال مضمون ديني يهودي ، ولذلك فانه مات نتيجة عضه كلب مسعور ، تسبب هو نفسه في جعله كذلك . وسنعرض فيما يلي المنحى الديني في فكرة الاستيطان ، ثم ابرز المشاكل التي واجهت المهاجرين كما تصورها الرواية .

١ ـ المنحى الديني في فكرة الاستيطان ومشاكله

لقد برز المنحى الديني في الرواية مترابطا مع مشاكل الاستيطان من خلال التركيز على ضرورة الحفاظ على الدين اليهودي وتعاليمه وشعائره ، والقول بأن كل الخير لليهود اذا هم

تمسكوا بدينهم وعملوا بأحكامه . فبطل الرواية يتسحاق كومر هاجر الى « ارض اسرائيل » للاستيطان فيها وبنائها ، ويظهر الترابط واضحا بين فكرة الهجرة بمضمونها الديني وما تمثله بالنسبة لليهود في فلسطين بالذات وبين فكرة الاستيطان التي تجسد المضمون على ارض الواقع . حيث تبدأ الرواية ، كما أسلفنا في العرض الذي قدمنا ، بعبارة « ترك يتسحاق كومر كسائر اخوتنا رجال خلاصنا ابناء الهجرة الثانية ، أرضه ووطنه ومدينته وهاجر الى ارض اسرائيل لكي يبنيها ويبني نفسه » . ففكرة الخلاص هي فكرة محض دينية في اليهودية جاءت مرتبطة بفكرة الاستيطان من خلال التشديد على هذا الترابط بينهما . ولقد ظهر بوضوح على امتداد احداث الرواية كلها ، الحرص على ابراز المنحى الديني والدعوة الى التمسك به والحفاظ عليه . ففي القطار الذي استقله يتسحاق من جاليتسيا في طريقه الى تريستا يتنادى الركاب اليهود لأداء صلاة العصر ، رغم تباين وجهات سفرهم ، ذلك لأن « وجوههم تتجه في تلك اللحظة الى القدس » (ص ، ١٩) .

والربط هنا بين القدس والصلاة له مغزاه ، بين القدس كمكان للاستيطان والصلاة كاحدى الشعائر الدينية . كما ان يتسحاق كومر ، بطل الرواية ، يردد كلما خلد الى النوم « كريئات شماع » (اسمع يا اسرائيل ، الرب الهنا الرب واحد . . .)(*) فآيات التوراة ترافقه حتى عندما يخلد الى النوم .

وتظهر الدعوة الى الحفاظ على التعاليم اليهودية مواكبة للدعوة الى الاستيطان في خلال الرواية التي تعالج موضوع الاستيطان ومشاكله . « فالخير كل الخير لليهود اذا هم حافظوا على التوراة » (ص ، ١٦٥) .

ويندرج في هذا الاطار حرص اليهود على تقديس حرمة يوم السبت ، فالجميع يستعدون لاستقباله (ص، ٢٤٦).

وفي موضوع آخر من الرواية يتمثل الترابط جليا بين فكرة الاستيطان والمنحى الديني «عندما رأى الحاخامون الاول اننا نفينا من أرضنا، خشوا من ذوباننا في الجوييم، وسنوا لنا

(*) سفر التثنيه ٦ : ٤ .

فرائض كثيرة، لتمييزنا عن كافة الشعوب، فطالما بقي اليهود على أرضهم ماذا يريد النبي منهم سوى القلب الطيب وصنع الخير». (ص ٢٦٤).

وتعكس الرواية ايضا اللعنة التي تحل بمن يتخلى عن المنحى الديني في فكرة الاستيطان ويتمثل ذلك فيما حدث حتى للكلب بالاك الذي غادر حي ميئاه شعاريم الذي يمثل اليهودية ، وليس اليهودية كمفهوم مطلق بل اليهودية في فلسطين تحديدا ، أي الاستيطان بمفهومه الديني اليهودي فلما ترك الحي هام على وجهه (ص ٢٨٣) . « لم يترك مكاناً لم يذهب اليه ، كالمرتدين عن اليهودية الذين ينساقون وراء كل من يجزل لهم العطاء » .

وتعتبر القدس في الرواية ، وفي معظم اعمال عجنون الادبية ، حلقة وصل بين فكرة الاستيطان والمنحى الديني ، فابتعاد يتسحاق عن القدس التي تمثل الاستيطان بمضمونه الديني هو سبب مأساته ، ومهما ابتعد عنها الا انه يعود اليها في النهاية ، وان كانت عودته متأخرة ، فمصيره مرتبط بها شاء أم أبى ، ونفس الشيء بالنسبة لاي يهودي (ص ٢٧٤) .

«القدس المدينة المقدسة الخارج منها كأنه يهوي في الجحيم » . القدس بمضمونها الديني قيمة عليا «فحتى في حالة خرابها يبعث جوها الحياة في النفوس» (ص، ١٩٩) .

و«قدسيتها يحس بها الجميع» (ص ٥٥٢).

كما تنتقد الرواية المحاولات الرامية الى افراغ موضوع الاستيطان في فلسطين من المضمون الديني فالمنحنى الديني صنو لفكرة الاستيطان بينهما صلة لا تنفك عراها فحتى المطر الضروري لاستمرار الاستيطان ووجوده لا ينزل الا من خلال الحفاظ على ممارسة الشعائر الدينية (ص ، ٤٧٤) .

وحتى الكلب بالاك ، يسعى الى الحفاظ على تعاليم الشريعة اليهودية (ص ٥٦٢) .

ويصل التمسك بالمنحى الديني الى درجة اعتبار ان «العالم ليس موجودا الا من أجل اليهود» (ص ٥٨٤)، «والمطر لا ينزل الا من اجلهم» (ص ٥٨٤).

ولا أدل على محاولة عجنون الربط بين الاستيطان اليهودي في فلسطين والمنحى الديني من ربطه صورة فلسطين في فكر يتسحاق قبل وصوله اليها ، بقصة من العهد القديم ، وهي

قصة النبي موسى في أرض مدين مع بنات يثرون (سفر الخروج (٢ : ١) : فقد كان يتسحاق مسافرا الى فلسطين وتخيل انه وصل الى فلسطين ووجد هناك بئرا في احد الحقول وفتيات جئن ليسقين قطعان اغنامهن ولكن يحول دون ذلك حجر كبير أعلى فتحة البئر لا يستطيع احد دحرجته ويتخيل انه دحرج الحجر من فوق فتحة البئر وتسقي الفتيات قطعانهن ويبلغن اهل مستعمرتهن بما كان من أمر يتسحاق فيطلب منهن دعوته لتناول الطعام مع أهل المستعمرة ثم يتزوج في النهاية احداهن (ص ، ٢٨) .

كما ان استخدام عجنون اسم « ارض اسرائيل » بدلا من فلسطين في سرد احداث الرواية له دلالته من ناحية الاستيطان بمضمونه الديني . وحتى عندما ذكر كلمة في فلسطين مرة واحدة ، استدرك قائلا ان « الصهيونيين ألفوا في تلك الايام اطلاق اسم فلسطين على أرض اسرائيل » (ص، ١٧).

وتدعو الرواية في هذا السياق الى الهجرة الى فلسطين من أجل الاستيطان والعمل فيها ، مبشرة بأن هناك دافعاً ذاتياً يدفع اليهودي الى الهجرة الى فلسطين ، فعندما « يهاجر اليهودي اليها يعرف ما يدفعه الى ذلك ، ولكنه عندما ينزح منها لا يعرف سبب ذلك » (ص ٩٢) .

كما أن الهجرة الى « ارض اسرائيل » ، بحسب ما جاء في الرواية ، هي واجب على كل يهودي « يجب على كل يهودي ان يسعى للهجرة الى ارض اسرائيل ليحظى بالسكنى فيها ، لان الامة الاسرائيلية مصدرها هناك » (ص ١٧٧) .

٢ ـ مشكلة الاستيطان بين المثالية والواقع في حياة يتسحاق كومر بطل رواية « الأمس الأول »

كانت فكرة الاستيطان ومشاكله ، كما اسلفنا ، هي المحور الرئيسي الذي دارت حوله احداث الرواية . فلقد تضمنت الرواية دعوات كثيرة تحث اليهود على الهجرة الى فلسطين والاستيطان فيها من خلال الحفاظ على المضمون اليهودي للاستيطان ، منتقدة اية نشاطات تؤدي الى الفصل بين الاستيطان ومضمونه الديني او تفرغه منه . وبدا ذلك كعقيدة متأصلة ، فالرواية من بدايتها الى نهايتها دعوة الى الاستيطان اليهودي ، ليس مجرد الاستيطان ، بل

الاستيطان اليهودي وتدعيمه وازالة العقبات من طريقه ومواجهة كل الصعوبات مهما عظمت وتحمل ما تفرضه هذه المواجهة من تبعات ، المهم تنفيذ المهمة الاستيطانية بمضمونها اليهودي فكل ما عداها يهون وتهون دونه المخاطر والمعاناة . كما تنتقد الرواية الزعماء الصهيونيين غير العمليين الذين يكتفون بالخطب الرنانة دون العمل الفعلي . وتدعو في سياق هذا الى العمل العبري في المستوطنات ، وتلقي باللائمة على السكان اليهود القدامى في فلسطين الذين فضلوا استخدام العمال العرب على المهاجرين اليهود الجدد . في العمل في المستوطنات التي كانت قائمة عند قدوم افراد الهجرة الثانية .

وقد عكست شخصية بطل الرواية يتسحاق كومر مشكلة الاستيطان كمثالية وواقع . حيث هاجر الى فلسطين من أجل الاستيطان فيها ، ولكنه لم يستطع تطبيق المثال على أرض الواقع ، لانه لم ينجح في مواجهة ما اعترضه من مشاكل وصعوبات ، ولأنه فقد حلقة الوصل بين فكرة الاستيطان ومضمونها الديني ، وأصبح يتأرجح بين يافا والقدس بين سونيا وشفرا ، وتخلى عن مهمة الاستيطان وزارعة الارض وتحول عنها الى مهنة الدهان ، عامل البياض ، الذي لا يعدو كونه يقوم بتغطية عيوب المباني القديمة وترقيعها بالالوان ، وليس في هذا أي خلق او ابتكار .

لقد اصطدمت المثالية بأرض الواقع ، وجابهته المشاكل وعجز يتسحاق عن ركوب الصعب ، تطبيقا للمثال الذي هاجر من أجله ، واختار السهل ولذلك تحطم المثال لما اصطدم بأرض الواقع ثم كانت نهاية يتسحاق المأساوية وعضه الكلب المسعور الذي جعله هو كذلك بسبب الحروف التي كتبها على فروة الكلب بفرشاته . وهذا يرمز الى عمق أزمة الهوية اليهودية التي ظهرت بعد وصول يتسحاق الى فلسطين وانتقام الكلب من يتسحاق هو الرمز ، فلقد فشل يتسحاق في التكيف مع الواقع وفشل في الربط بين الاستيطان الزراعي والهوية اليهودية . اي أنه لم يتجه الى الاستيطان وزراعة الأرض ولم يحافظ على الهوية اليهودية المتمثلة في الحفاظ على تعاليم اليهودية وتنفيذ مهمة الاستيطان . ان الكلب في الرواية هو انعكاس لشخصية يتسحاق ، فلقد ترك حي ميئاه شعاريم الذي يمثل التدين وعاش بين الجوييم أي ابتعد عن اليهودية مما نغص عليه حياته وعاش مطاردا نتيجة حروف كتبها يتسحاق بفرشاته على فروته وكانت سبب كل مشاكله ولذلك يعض يتسحاق ليثأر منه لقاء ما سببه له من متاعب ، اي أن يتسحاق ينتقم من نفسه. فالكلب هو الأنا الثانية ليتسحاق عامل الطلاء ،

الذي كانت رائحته تزكم انف الكلب وتجعل امعاءه تدور في داخله كالرحى طلبا للانتقام واستخدام كلمة عامل الطلاء هنا لها دلالتها ، لانها تشير الى تخلي يتسحاق عن مهمة الاستيطان وعدم صموده في مواجهة المشاكل وعجزه عن التكيف مع الواقع واهتزاز الصورة المثالية التي رسمها للاستيطان في فلسطين قبل وصوله اليها . انه لم يكن أسوأ من غيره بين رجال الهجرة الثانية فلماذا عوقب الى هذه الدرجة هل لانه استفز الكلب؟ ولكن مع كل نهايته المحزنة «حظى بقبر دفن فيه في الأرض المقدسة ، ولم يحظ بالعمل في حراثة الأرض وزراعتها» (ص ٦٠٠).

ولم يكن هذا ما يريده عجنون ليتسحاق ذلك انه انتقد على لسان بطل الرواية يتسحاق كومر نفسه المستوطنين اليهود القدامى في فلسطين الذين جاؤوا اليها لزيادة عدد القبور (ص ٣٣) .

عجنون كان يريد ليتسحاق ان يقوم بمهمة الاستيطان بمضمونها الديني أي الاستيطان اليهودي في فلسطين ولما لم يتحقق ذلك حدثت مأساة يتسحاق ، ذلك لأنه عجز عن مواجهة المشاكل التي اصطدام بها لدى وصوله الى فلسطين ، فلقد كانت الصورة التي رسمها في ذهنه لفلسطين كما كان يصورها اغلبية الزعماء الصهيونيين ان « هواءها علاج وشفاء » مستشهدين بما جاء في الجمارا(*) . (ص ٣٠) .

فلما وصل الى فلسطين ووقف « على الأرض التي تاق طوال حياته الى رؤيتها . . . » (ص ٤٠) .

« وها هو يعيش الآن في أرض اسرائيل ويتجول في احدى المستوطنات وما من احد يدعوه الى العمل معه في بيارته وفي حقله » (ص ، ١٦) .

وجابهته مشاكل الواقع لم يصمد امامها . واجهته مشكلة العمل في المستوطنات ولم ينجح في التغلب عليها ، او اختار السهل وتحول الى عامل بياض . وواجهته مشكلة الصراع

(*) الجمارا : هي الشروح والحواشي التي تحيط بالمشنا . وهي مدونة بالارامية المشوبة بقليل من العبرية . ذلك أن فقهاء اليهود في بابل وفلسطين اخذوا يعتمدون في القرنين الثالث والرابع الميلاديين على المشنا ، وهي مجموعة قوانين اليهود السياسية والحقوقية والمدنية والدينية ، ويتخذونها اساسا لشروحهم ، فبسطوا بعض القواعد وحاولوا تطبيقها في حالات افتراضية لم يعالجها الفقهاء من قبل . فالمشنا تتضمن القواعد والاحكام بغير نقاش غالبا . أما الجمارا فتوضح هذه القواعد بأمثلة وحكايات . وقد بدأ تدوين الجمارا في القرن الاول الميلادي وتم تدوينها في القرن الخامس .

بين القديم والجديد وبدلا من أن يتخذ موقفا منها وقع فريسة لها وأصبح ممزقا بين سونيا التي التقى بها في يافا والتي ترمز الى الصهيونية العلمانية وبين شفرا والقدس رمز اليهودية التقليدية ، سونيا تدعو الى التخلي عن عبء الأب والام (ص ، ٣٦٥- ٣٦٦) .

وشفرا ابنة الربي بايش الذي يدعو الى الحفاظ على التعاليم اليهودية ، والتقيد بأدق تفاصيلها والذي يبدي غضبه الشديد من يتسحاق ، لا لشيء الا لانه يرتدي ملابس قصيرة ، ولا يحتفظ بسوالف ولحية طويلة ، الى هذه الدرجة يصل التمسك بالتعاليم اليهودية لدى الربي بايش ، الذي يعتبر من يرتدي ملابس قصيرة بمثابة مجرم. وقع يتسحاق بين شقي الرحى ولم يستطع تخليص نفسه وكانت نهايته ، راح ضحية الصراع بين القديم والجديد. واضطر ان يستخدم الفرشاة ومهنة البياض ، بدلا من المعزقة والمحراث وبدأ ينظر اليهما باستياء (ص، ٢٥٧).

ولكن لم يجْدِهِ هذا نفعا . لقد دخل عالم الشك وبدأ يتراخى في اتباع تعاليم التوراة بعد ان هاجر الى « أرض اسرائيل » ، حيث سيطرت هذه الافكار على جيل يتسحاق (ص ٢٦٣ - ٢٦٤) .

كانت نهاية يتسحاق كومر نتيجة لعضة الكلب الذي هو انعكاس لشخصية البطل نفسه كما ذكرنا والذي ترك حي ميئاه شعاريم أي ترك اليهود وعاش بين الجوييم ، انه يرمز الى حياة اليهود في المنفى التي ليست في صالح اليهود ، حسب ما يرمز اليه عجنون ، بدليل انه يعض يتسحاق ويتسبب في موته . وقد يرمز الكلب ايضا الى الصهيونية من زاوية إفراغها الاستيطان من المضمون الديني ، أو بعبارة اصح عدم حرصها على المنحى الديني للاستيطان ، وبدلا من ان تأخذ بيد اليهود ، حسب ما يريد عجنون في الرواية ، تتسبب في مأساتهم ، التي يجسدها ما حدث ليتسحاق كومر بطل الرواية.

ويمكن أن نوجز مشكلة الاستيطان بالمثال والواقع في حياة يتسحاق كومر بطل الرواية بعبارة جاءت على لسان يتسحاق نفسه : « لقد هاجرت الى ارض اسرائيل لفلاحتها وحراستها ، وفي النهاية من أنا ، مجرد عامل طلاء كثير الانتساخ » (ص ، ١٧٦) .

وكذلك عبارة « على الرغم من أن يتسحاق لم يهاجر الى أرض اسرائيل من أجل التوراة والصلاة ، مثل ذلك العجوز الذي التقاه في السفينة وكسائر كل المسنين ، الا انه أسف لضعف ايمانه . فلولا ضعف ايمانه لما فعل ما فعل » (ص ، ١٧٤) .

٣ ـ مشكلة الصراع بين القديم والجديد

تعكس الرواية مشكلة الصراع بين القديم والجديد وقد ظهرت هذه المشكلة جلية لدى التقاء يتسحاق برجل وامرأة عجوزين وهو على ظهر السفينة في طريقه الى فلسطين . فالعجوز مسافر الى فلسطين للصلاة والعبادة ويتسحاق ذاهب إليها لحراثة الأرض وزراعتها . العجوز يرى أرض اسرائيل كنس ومدارس دينية (ص ، ٣٣) .

ويتسحاق يحمل افكار اخرى تدور حول « زراعة البلد واعادة بنائها وانهاضها من خرابها» (ص، ٣٣) . وهناك بون شاسع بين الفكرتين وبالتالي يدور الصراع بينهما . ولم « يفترق يتسحاق والعجوز الا وهما أشبه بعدوين » (ص ، ٣٣) . . فالعجوز فهم أن يتسحاق ، بعد الحوار الذي دار بينهما « ينتسب الى الصهيونيين الذين يريدون نزع قدسية ارض اسرائيل وجعلها كسائر البلدان» (ص ٣٢) .

كما يتمثل الصراع بين القديم والجديد في رفض المستوطنين القدامى في فلسطين تشغيل المهاجرين الجدد في فترة الهجرة الثانية « واعتبارهم اياهم عنصرا مخربا لاعمالهم » (ص ٩٣) .

كما أن ما كان من أمر يتسحاق مع سونيا يجسد الصراع بين القديم والجديد ، سونيا التي تريد ان تتحرر من كل عبء حتى لو كان عبء الوالدين ، ويتسحاق الذي يريد الاقتران بها لكي يرتبط كل منهما بالآخر . سونيا التي جاءت الى فلسطين لتكمل دراستها في وسط عبري ، بناء على رغبة والدها الصهيوني القديم ، لم تحقق رغبته ، بل اتجهت الى تعلم اللغة الالمانية (ص ، ١٥٥) .

ويقود الصراع بين القديم والجديد الى الفراق بين سونيا ويتسحاق لأن يتسحاق لم يتخذ موقفا في هذا الشأن كما اسلفنا انه يمثل الضياع والجيل المتردد الذي لم يحسم امره ويحدده وجهته بشكل قاطع .

وحتى الكلب بالاك يجسد الصراع بين القديم والجديد فجده هو الكلب توفال وأقاربه الآخرين قدموا خدمات ممتازة للحاخامين اليهود في حربهم ضد العلمنة ، أي ضد الجديد ، واقامة مدارس غير يهودية .

ويبرز الصراع بين القديم والجديد بشكل واضح في خطب ومواعظ الربي جرونام حيث

يشبه ابناء الجيل الجديد ، اي رجال الهجرة الثانية بالكلب المسعور ، بل هم اسوأ منه (ص ، ٥٨٦) .

٤ ـ مشكلة العمل العبري

تتجسد مشكلة العمل العبري في اوضح صورها في رفع شعاري العمل العبري واحتلال العمل الذي رفعه بعض رجال الهجرة الثانية وعلى رأسهم اهرون دافيد جوردون صاحب « دين العمل » . ذلك ان اولى المشاكل التي اصطدم بها المهاجرون الجدد هي مشكلة الحصول على عمل في المستوطنات اليهودية التي كانت قائمة في فلسطين . فلدى وصول يتسحاق الى يافا اخذ يفتش عن عمل ، ولكنه يلتقي بعض الشبان الذين يخبرونه بأنهم لا يجدون عملا وانهم توجهوا الى كل المستوطنات ولم يجدوا عملا (ص ١٤٤) . وهم يعانون الأمرين من جراء ذلك ويجابهون كل المشاكل (ص ٤٣) .

ويبحث يتسحاق ورفاقه عن عمل لكن دون جدوى ، فرجال المستوطنات يفضلون العمال العرب لخبرتهم ورخص اجورهم ، وها هو جوريشكين رفيق يتسحاق يخبره بأن « بعض الفلاحين اليهود كانوا يزمعون احضار عمال من مصر وكأنه لا يكفي انهم اغرقوا المستوطنة بعمال عرب ، بل ارادوا ان يضيفوا اليهم مصريين » (ص ، ٥٣) .

لقد اشتدت مشكلة العمل الى درجة ان يتسحاق لم يجد عملا وبقي دون طعام وتملكه الهم ، وقد أوهنت هذه الامور قواه وتسببت في مرضه (ص ، ٦١) .

وبرزت في هذا المجال الدعوة الى العمل العبري وشعار احتلال العمل . «فها هو رابينوفيتش رغم انه ترك المعزقة لم يتخل عن فكرة احتلال العمل » (ص ، ١٠٥) .

وها هو يتسحاق بطل الرواية يتحدث بحماس عن دين العمل الذي نادى به أهرون دافيد جوردون ؛ ص ١٧٦) .

كما « أن الاستيطان في أرض اسرائيل لا يتم بتوفر الاموال فقط بل بحب البلد وحب العمل » (ص ، ١٦٥) .

وتعزى الدعوة الى احتلال العمل الى سبب أقوى يمس حياة الناس ، وهو الطعام الذي

يقيم أود الانسان ، فالبلد لم يستقبلهم بترحاب وأصبح قاسيا في حياته (ص ، ٨٧) .

وكانت هناك صعوبة في الحصول على عمل وأجر وما يتبع ذلك من عدم القدرة على شراء الطعام (ص ، ٥٨٨) .

لقد جاء المهاجرون « لبناء البلد ولكنهم لا يدعونهم يعيشون من أجل ربح وهمي ، حيث يستخدمون العمال العرب لرخص اجورهم ويرفضون استخدام العمال اليهود » (ص ، ٦٠) .

ومع كل هذا ليس أمام اليهود من « مفر سوى ان يفلحوا الأرض ، وان يعملوا ليحصلوا على مصدر رزقهم منها في البلد » ، واذا لم يتحقق ذلك فسيكون في فلسطين « منفى جديد » (ص ، ٣٨٩) .

والا فان البلديل «هو منفى جديد» (ص، ٣٨٩) .

ويأتي انتقاد التراخي عن الاستيطان مواكبا للدعوة الى العمل « فالمحراث ليس مرغوبا وطلابه قلة » . (ص ، ٣٨٩) .

واولئك « الذين يعتبرون انفسهم مبعوثي الامة ومنقذي اسرائيل دون أن يقوموا بأي عمل . لا يعرفهم الشعب ولا يرغب في معرفتهم ولا تتبعهم سوى حفنة قليلة من متبلدي التفكير يسيرون وراءهم كبهيمة تسير في واد ، لم يتحرروا بعد من تنويم الماضي المجيد وينتظرون مستقبلا افضل بينما يقوم العرب بانجاز عملهم ويجلسون هم في بيوتهم مكرمين يحتسون الشاي والويسكي » (ص ، ٣٨٩) .

٥ ـ نظرة نقدية الى الصهيونية السياسية وزعمائها ومؤسساتها

تأتي النظرة النقدية الى الصهيونية السياسية وزعمائها من زاوية عدم قيامها بنشاط عملي في حقل الاستيطان اليهودي في فلسطين ، حيث تنتقد الرواية الزعماء الصهيونيين غير العمليين الذين لا هم لهم سوى القاء الخطب الرنانة ، دون القيام بأي نشاط فعلي من أجل تجسيد فكرة الاستيطان اليهودي واقامة ركائزه وتذليل الصعوبات التي تقف في طريقه :

« ما أهمية الصهيونيين وخطبهم ، اذا كانوا لا يخرجونها الى حيز التنفيذ ، وما هو

الفارق بينهم وبين سائر ابناء المدينة ، فهؤلاء واولئك يقضون ايامهم في المنفى ، وهؤلاء واولئك لا يريدون تغيير مكانهم حتى قدوم المسيح المنتظر » (ص ٢٩) .

ومن هؤلاء الزعماء عسقا نوفيتش الذي « اهتزت كل ارض اسرائيل من خطبه ، والذي يقف أمام خريطة للبلد [أي فلسطين] ويتحدث وكأن كل البلد في حوزته يوزعها كيف يشاء وعلى من يشاء » (ص ٦٣) .

ورؤوبين ليف يكون أول الحاضرين في كل حفل يقام ، وعندما يطلب منه يتسحاق التبرع من أجل فلاحي مستعمرة محنايم لم يدفع بروتا واحدة(*) ، ذلك أن صهيونيته تتوقف عند حدود المال . وهناك اشخاص آخرون على شاكلته مثل هيرش فالف أتمنوت وأغلبية الصهيونيين في المدينة من النمط نفسه ، انهم « يستشهدون بأدلة من الجمارا على أن هواء أرض اسرائيل علاج وشفاء ، ولكنهم عندما يسافرون هم أنفسهم للعلاج يسافرون الى كارلسباد وسائر الاماكن الاخرى في الخارج . كما أن الشباب الصهيونيين ، الطلاب الذين كنا « نأمل أن ينشروا روح الحياة الصهيونية نجدهم مستعدين لتأجيل أية جلسة صهيونية والتفرغ لنزهة مع فتاة » (ص ، ٢٩) .

وتهاجم الرواية زعماء اليشوف الصهيونيين في فلسطين لانهم لا يمدون يد العون للمهاجرين اليهود ، وها هو يتسحاق « يرفض الذهاب الى زعماء اليشوف ، رغم أن كبار رجالات جاليتسيا الصهيونيين حملوه رسائل تقدير لزملائهم في « أرض اسرائيل » ، ذلك لانه ادرك ان لا قيمة لهذه الرسائل (ص ، ٦٢) .

وكما تنتقد الرواية الصهيونيين من ناحية اهمالهم المضمون الديني للاستيطان « انهم يريدون التعجيل بالخلاص عن طريق كل انواع المعاصي ، لماذا ؟ أن المسيح المخلص لا يأتي الا في جيل كله ابرياء او كله مذنبون ، وارتكاب المعاصي اسهل من أداء الفروض ، وعلى ذلك يرتكبون المعاصي » (ص ، ٢٢٢) .

(*) البروتا : عملة صغيرة قيمتها ١/ ١٠٠٠ من الليرة الاسرائيلية ، صدرت سنة ١٩٤٨ وألغيت سنة ١٩٦٠! ، وكانت من ثماني وحدات : ١ ، ٥ ، ١٠ ، ٢٥ ، ٥٠ ، ١٠٠ ، ٢٥٠ ، و٥٠٠ . وجاء في دائرة المعارف اليهودية Judaica, Vol. 5. P. 729 ان هذه العملة استخدمت في عصر الحشمونيين في القرن الثاني قبل الميلاد وقد حلت محلها عملة اخرى منذ سنة ١٩٦٠ وهي الاجورا قيمتها $\frac{١}{١٠٠}$ من الليرة الاسرائيلية وهي من أربع وحدات ١ ، ٥ ، ١٠ و٢٥ . .

كما تهاجم الرواية المؤسسات الصهيونية وموظفيها « الذين جعلوا من انفسهم أوصياء على اليشوف اليهودي ، يجلسون في مكاتبهم ويسطرون المذكرات ، في الوقت الذي يعاني فيه المهاجرون والعمال الامرين » (ص، ٤٥).

وتنتقد الرواية المكتب الفلسطيني الذي افتتح في يافا في ابريل ١٩٠٨ التابع للمنظمة الصهيونية العالمية لشراء الأرض لليهود في فلسطين . فها هو عسقانوفيتش يتحدث مع يتسحاق كومر عن المكتب الفلسطيني وقال ان « دافيد ولفسون لم ينشئه الا لكي يثبت انه لا يمكن عمل شيء في ارض اسرائيل» (ص ، ٣٦٨) .

وتهاجم الرواية الدعاة الصهيونيين الذين لا يوفرون العمل للمهاجرين اليهود الذين جاؤوا الى فلسطين بعد أن سمعوا اشاعة روجها هؤلاء الدعاة الذين يتحملون مسؤولية ذلك : « اناس من البشر لا يعرف المرء لماذا جاؤوا وما الذي جاء بهم الى هنا . لقد سمعوا اشاعة ثم جاؤوا . وتقع مسؤولية ذلك على الدعاة الصهيونيين الذين يتجولون في مدن المهجر لاثارة حماس الاغنياء لكي يشتروا اراضي في « ارض اسرائيل » ولكنهم لا يتحمسون لذلك . ولا يتحمس له سوى الفقراء الذين ليس لديهم مصدر رزق ، ويعتقدون انهم اذا جاؤوا الى البلد سيقدمون الى كل واحد منهم مستعمرة ، ولكنهم لا يقدمون لهم مستعمرات ، اما بالنسبة للعمل فليسوا جميعا يستطيعون ذلك ، وحتى اولئك الذين لديهم استعداد للعمل لا يجدونه ويتملكهم الوهن » (ص ، ١٠٤ ـ ١٠٥) .

ولا بد من الاشارة هنا الى أن النظرة النقدية الى الزعماء الصهيونيين والمؤسسات الصهيونية في الرواية ليست مطلقة ، بل انها مرهونة بقدر ما يقدمه هؤلاء الزعماء وتلك المؤسسات من مساهمات من أجل تشجيع الهجرة اليهودية الى فلسطين والاستيطان بمضمونه اليهودي الصهيوني ، فكلما تراخوا عن هذين الهدفين زادت وتيرة الانتقادات ، اما اذا قدموا شيئا مهما كان ضئيلا فالمديح من نصيبهم ، فالرواية تكيل المديح لتيودور هيرتسل (١٨٦٠ - ١٩٠٤) مؤسس المنظمة الصهيونية العالمية بسبب الدور الذي قام به في سبيل تشجيع الهجرة اليهودية الى فلسطين وتنظيم النشاط الاستيطاني فيها . حيث تذكر الرواية انه عندما وصل يتسحاق الى فيينا ، وهو في طريقه الى فلسطين ، وبينما هو يتجول في شوارعها تراوده افكار فيذكر هيرتسل ويتخيل انه « ربما وقف في هذا المكان الذي يقف فيه ويتذكر الامر الذي ينساه

كثيرون وهو انه لولا ظهور هيرتسل لكناقد اضعناايامنا في المنفى ولما هاجرنا الى ارض اسرائيل » (ص ، ٢٣) .

٦ ـ مشكلة تعدد اللغات

تعرض الرواية لمشكلة تعدد اللغات في فلسطين في فترة الهجرة الثانية والمحاولات التي بذلت في تلك الفترة لاحلال اللغة العبرية محل اللغات الاجنبية التي كانت مستخدمة في المدارس اليهودية في فلسطين ، وهي المحاولات التي اطلق عليها في حينه مصطلح « حرب اللغات » . وضرورة التشديد على استخدام اللغة العبرية في الحديث بين اليهود . وتصف الرواية مدى تعدد اللغات المستخدمة في فلسطين في تلك الفترة : « العرب يتحدثون بلغة لا تسمعها ، واليهود منقسمون الى عدة قبائل تتحدث عدة لغات ، وكل قبيلة شعب بحد ذاته له لغة خاصة به ، اسفارديم واشكناز يمنيين ومغاربة » . . . (ص ، ٦١) .

وقد حرص بعض اليهود على عدم التحدث بلغة غير اللغة العبرية ، و « ألزموا انفسهم بألا ينطقوا بكلمة غير عبرية » (ص ، ١٧٨) .

كما تصف الرواية في موضع آخر مدى تعدد اللغات من خلال نظرة تهكمية ، فها هو الكلب بالاك « يسمع بنات صغيرات في احدى المدارس يتحدثن بلغة غير عبرية وعلى الرغم من « انه كان يعرف كمعظم كلاب القدس سبعين لغة لم يعرف هذه اللغة فلم تكن مستخدمة في البلد بعد لكنه فهم انها اللغة الانجليزية لان يهود انجلترا هم الذين اسسوا هذه المدرسة » . فيما ان اخواتهن قد تعلمن لغة جمعية الاليانس الفرنسية وجمعية عزرا الالمانية ، فليتعلمن هن هذه اللغة » : (ص ، ٣٠٢) .

وتستطرد الرواية في وصف مدى تعدد اللغات من خلال دعوة مبطنة الى استخدام اللغة العبرية كلغة واحدة ووحيدة وبدون ذلك ستحدث مشاكل لا حصر لها حتى بالنسبة للزواج والطلاق والحياة اليومية . (ص ، ٣٠٢-٣٠٣) .

كما تنتقد الرواية في هذا السياق « الاوصياء على شؤون التعليم في القدس .«الذين يجرون كالكلاب وراء اسيادهم الحكام والقناصل ، ويفرضون استخدام كل انواع اللغات الاجنبية في البلد»(ص ، ٤٦٠) .

« وبما ان آراء نظار المدارس والأوصياء على شؤون التعليم متباينة ، كذلك لغاتهم ، فرجال جمعية « الاليانس » يتحدثون الفرنسية . ورجال جمعية « عزرا » يتحدثون الالمانية ، ورجال افيلينا روتشيلد يتحدثون الانجليزية وهكذا يفرضون على تلاميذهم كل انواع اللغات ويدخلون البلد في ضجة . واذا لم يتوفر معلمون اسرائيليون يحضرون لهم معلمين غير يهود وحتى معادين ألدّاء للسامية يكنون الكراهية الشديدة لليهود وينفثون كراهيتهم كالسم . . . » (ص ، ٤٦٠) .

كما تتحدث الرواية عن المقالات التي نشرت في صحيفة « هابوعيل هاتسعير » والتي تهاجم بشدة جمعية « الاليانس الفرنسية » وجمعية عزرا وسائر المدارس الاخرى التي تستخدم كل واحدة منها لغة مختلفة . وكذلك المدارس الدينية « اليشيفوت » و « الحيدر » التي تحظر على تلاميذها التحدث باللغة العبرية « وتنزع لغتنا من لساننا » (ص ، ٤٦١) .

وتربط الرواية بين ما تسميه « الحرب من أجل اللغة العبرية وبين الحفاظ على تعاليم التوراة ، حيث « انتهز حاخامو القدس اثارة مسألة الحرب من اجل اللغة العبرية وبدأوا الحرب من اجل التوراة » (ص ، ٤٦١) .

وتتحدث الرواية كذلك عن « الحلوكا » وهي الاموال التي كانت ترد من اليهود في خارج فلسطين وتوزع على اليهود المقيمين فيها ، حيث كان يعتمد عليها معظم الناس في القدس كما كانت حديث الناس هناك (ص ، ٢٣١) .

وتنتقد الرواية من ينتظرون اموال « الحلوكا » ويركنون الى التواكل وهي ترمي بذلك الى خدمة فكرة الاستيطان اليهودي والعمل اليهودي (ص ، ٣٨٩) .

ومن ناحية أخرى تنتقد الرواية ، حي ميئاه شعاريم ،«الغارق في ظلام فكري وروحي ويعيش على الحلوكا ، فهو بمثابة مدينة داخل مدينة » ، ورغم هذا فان له فائدة ، فقد وفر مكانا لليهود يقيمون فيه (ص ، ٢٠٢) .

٧ ـ المشكلة العربية ونظرة عجنون الى العرب كما تعبر عنها رواية « الأمس الأول » وتعارضها مع النظرة الانسانية

يمكن أن نقول ان نظرة عجنون الى العرب في فلسطين من خلال احداث الرواية هي نظرة معادية ولا شك . فهو يتحامل عليهم بشكل واضح ويعتبرهم حجر عثرة في طريق الاستيطان اليهودي في فلسطين وخطرا على اليهود عموما ، وينسب اليهم كل ضرر يلحق باليهود ، ولا يترك مناسبة الا ويبحث فيها عن شيء يسيء الى العرب . وحتى نكون منصفين في عرضنا لهذه المسألة سنكتفي بايراد امثلة ، وما أكثرها ، من الرواية تثبت ما نقول من انه يصدر في كلامه عن نظرة عنصرية ضد العرب .

فلدى وصول يتسحاق كومر ، بطل الرواية ، الى فلسطين ، وفي ميناء يافا « يقابله الحمالون العرب ولا يكفون عن طلب النقود وبعدها البقشيش » ، وقد يقول قائل بأن هذا محتمل ، ونرد عليه بالقول ولكن لماذا يؤكد عجنون في الرواية على انهم ، أي الحمالين ، من العرب ، في حين ان الحمالين اليهود لم يفعلوا ما فعله العرب . وهذا ما تقوله الرواية (ص ، ٤٠) .

وعندما كان المهاجرون اليهود ، ومن بينهم يتسحاق كومر ، يبحثون عن عمل في احدى المستوطنات يجدون العرب في طريقهم ولا يتركون لهم ، أي العرب ، أي عمل . « فجأة تنشق الأرض عنهم ويثيرون الغبار ، بينما يغطون المستوطنة لكثرة عددهم » (ص ، ٤٩) .

وينظر عجنون دائما الى العرب على انهم مصدر ازعاج ، فهم يسببون الازعاج حتى ليتسحاق كومر المهاجر البسيط الذي جاء للاستيطان في فلسطين وما يستتبعه هذا من مشقة ، ولم يأت للاستجمام ، فما ان يخلد الى النوم حتى يزعجه العرب « بضجيجهم ونهيق حميرهم وأصوات ما تحمله النساء العربيات من دجاج في طريقهن الى السوق » (ص ، ٥٥) .

وعندما توجه يتسحاق ورفاقه الى السوق الذي يؤمه الفلاحون لاستئجار العمال ، يزاحمهم العرب ايضا « محدثين صخبا وكأنهم اعداء جاؤوا يحاصرون مدينة » (ص ، ٥٦) .

ولما التقى يتسحاق سونيا في منزلها في يافا يرى صورة معلقة في غرفتها هي صورة بريلي

الذي « قتل بأدي العرب » ، وهذا ما يريد عجنون تأكيده ، فالعرب قتلة في نظره ، أما لماذا قتله العرب فلا يورد لنا السبب . المهم عنده ان يثير الكراهية ضدهم خاصة وان « بريلي هذا كان محبوبا لدى جميع الرفاق » (ص ، ١١٥) .

كما أن العربي حسب كلام عجنون في الرواية انسان مزواج ، فهو يصف فندق تفيلينسكي في القدس مثل بيوت « العرب الاغنياء الذين يتزوجون نساء كثيرات ويخصصون جناحا لكل واحدة منهن » (ص ، ١٩١) .

هكذا يصل التعصب ضد العرب لدى عجنون ، فهو يحاول الاساءة اليهم وتشويه صورتهم مستخدما في ذلك كل ما يصل اليه خياله من صفات قد تكون فردية ولكنه يحاول جعلها عمومية لدى العرب .

ويركز عجنون على هذه النظرة الى درجة محاولة ابراز العرب في صورة ناكري الجميل فرغم كل ما يسببه العرب للمهاجرين اليهود من متاعب ، فان « اليهودي يضحي بحياته لانقاذ عربي كاد يغرق في بحيرة طبرية » (ص ، ١٧٨) .

ولمزيد من اثارة الكراهية ضد العرب يربط عجنون في الرواية هذه المسألة بموضوع ديني ، ومعروف ما للدين من تأثير من هذه الناحية ، فبينما كان الربي جرونام يقوم بورقان يلقي موعظته وكل الناس آذان مصغية يحدث أحد العرب ضجة وهو يقوم بشراء اناء فخاري (جرة) من أحد الحوانيت القريبة ، هكذا العربي دائما من وجهة نظر عجنون (ص ، ٣٠٦) .

ويصور عجنون العربي في صورة من يسعى دائما لقتل اليهودي ، وان كان اليهودي يتغلب عليه حسبما يقول في الرواية ، وما يقصده هنا لا يحتاج الى شرح . فها هو « ميخائيل هيلفرين يرقص حاملا خنجرا في يده خطفه من يد عربي انقض عليه ليقتله » : (ص ، ٤٠١) .

ومن ناحية اخرى ، وخدمة للهدف الذي يرمي اليه عجنون ، يصف عجنون العامل العربي بأنه ينصاع للاوامر وخنوع ، في حين ان العامل اليهودي لا يقبل سيادة احد ولا يتخلى عن آرائه (ص ، ٤٠٧) .

وينسى عجنون او يتناسى الاحياء اليهودية الفقيرة ومدى كثافتها السكانية ، وسكان

الجيتو اليهودي خصوصا في شرق اوروبا التي جاء منها ، ويوجه سهام انتقاده الى مساكن العرب في فلسطين « وتلوث هوائها ، الى درجة ان سكان يافا اشمئزوا منها » (ص ، ٤٣٧) .

ورغم ذلك فان العرب « يرفعون من سنة الى اخرى ايجار المساكن » (ص ، ٤٣٧) .

والعربي ، كما يصوره عجنون ، «شرير يضايق جيرانه اليهود يوميا ، ويمنع عنهم المياه » . لكن اليهودي ، حسب قول عجنون في الرواية ، « انسان طيب لا يدخل في نزاع مع العربي ، بل يبث شكواه الى الله . وفي ذات يوم يعثرون على العربي الذي منع المياه عن الربي نفتالي ميتا في بئر المياه » هكذا يريد عجنون ! (ص ، ٤٨٨) .

ويستطرد عجنون في ايراد الامثلة التي يريد من ورائها تشويه صورة العرب في فلسطين ، فهم يخربون ، حسب كلامه ، كل شيء ، حتى الطاحونة التي اقامها موشيه مونتفيوري في القدس للتخفيف على الناس ، وهو يذكر كلمة « الناس » هنا ، امعانا في الاساءة الى العرب ، فهو يقول ان الطاحونة لمصلحة الناس جميعا ، ولا يخص اليهود ، ومع ذلك فان العرب يعملون على تخريبها (ص ، ٤٧٠) .

ولماذا يعمل العرب على تخريبها « لأن العرب يحصلون من الناس على اجور مرتفعة نظير طحين القمح ورغم هذا فان الطحين اقل من القمح » ، اي أن العرب ، كما يريد عجنون ان يقول « يسرقون القمح » والا فأين يذهب ؟ (ص، ٤٧٠).

ولذلك «فانهم لما رأوا الطاحونة التي اقامها مونتفيوري حقدوا عليها وعملوا على تخريبها» (ص ، ٤٧١) .

ويصل الامر بعجنون في ازدرائه للعرب ومحاولة تحقيرهم الى حد وصف « جلوس الكلب بالاك» بأنه « مثل جلوس العرب » ، مع ان هناك فرقا بينا لا يحتاج الى شرح بين من يمشي على رجلين ومن يمشي على اربع (ص ، ٥٨٤) .

وهكذا فانه يمكن القول بأن الامثلة التي اوردنا ، تثبت بلا شك نظرة عجنون العنصرية ضد العرب ، مما يتنافى مع الدور الانساني الذي يفترض ان يؤديه الأدب الانساني الذي يستحق الحصول على جائزة نوبل التي حصل عليها عجنون سنة ١٩٦٦ ، مما يثير علامات استفهام كثيرة حول هذه الجائزة ومدى استحقاقه لها .

الخاتمة

لقد ناقشنا في هذا البحث موضوع الاستيطان اليهودي في فلسطين ، الـذي تناولتـه رواية « الأمس الأول » لشموئيل يوسف عجنون ، منذ ثمانينات القرن التاسع عشر وحتى نهاية فترة الهجرة الثانية في سنة ١٩١٤ . وعرضنـا في مقدمـة تاريخية بدايات هذا النشـط الاستيطاني ، وتحديدا منذ الهجرة الاولى التي يمتد تاريخها من ١٨٨٢ الى ١٩٠٣ ، والمراحل التي مرت بها الهجرات اليهودية الى فلسطين ، ومضمونها الديني في البداية ، ثم تحولها بعد ظهور الاتجاه الصهيوني الى فكرة سياسية استيطانية تهدف الى افراغ فلسطين من سكانها العرب الاصليين ، واحلال اليهود مكانهم . وأوردنا احصاءات عن عدد المهاجرين اليهود ، الذين جاؤوا في اطار الهجرات المختلفة ، وبدء الاستيطان اليهودي المنظم عن طريق اقامة المستوطنات كما عرضنا لموضوع الحلوكا ، وهي الاموال التي كانت ترد من اليهود في خارج فلسطين لمساعدة اليهود المقيمين فيها ونظام توزيعها .

وتناولنا موضوع الجمعيات والتنظيمات اليهودية والصهيونية التي تأسسـت في الخـارج لحث اليهود على الهجرة الى فلسطين ، ودعم هذه الهجرة وتشجيعها ، والتي كان ابرزها حركة « احباء صهيون » التي تأسست في روسيا وكان لها دور رئيسي في تحويل الهجرة اليهودية الى فلسطين الى هدف سياسي ـ استيطاني ، والدعوة الى تأسيس الجمعيات وجمع الاموال بقصد شراء الاراضي في فلسطين وتوطين اعضاء الحركة فيها ، ثم الصعوبات التي واجهت الهجرة اليهودية ، بعد ان ظهر هدف من يقفون وراءها ، والحظر الذي فرصته السلطات العثمانية ، والذي تم التغلب عليه عن طريق الدور الكبير الذي لعبه القناصل الاجانب ونظام الامتيازات والحماية في تسهيل عملية الاستيطان اليهودي في فلسطين ، حيث تدخلـوا لدى السلطـات العثمانية مرارا للسماح بهجرة اليهود ودخولهم الى فلسطين .

وتتبع البحث ايضا المشاكل التي واجهت المستوطنين اليهود ، خصوصـا من النـاحية

الاقتصادية والمالية ، والدور الذي قام به البارون ادمون روتشيلد ، وغيره من الزعماء اليهود والصهيونيين ، في محاولة حل هذه المشاكل ،والمساعدات التي قدموها الى المستوطنات اليهودية في فلسطين والانتقادات التي وجهت الى موظفي المؤسسات اليهودية التي كانت تشرف على بعض المستوطنات ، والتي ادت ، بالاضافة الى حالة الركود التي سادت اقتصاد المستوطنات ، الى موجة من النزوح من جانب المهاجرين اليهود في نهاية فترة الهجرة الأولى ، نتيجة سوء الاوضاع الاقتصادية الاجتماعية في المستوطنات . كما تتبعنا ايضا الوضع الثقافي في قلب تلك الفترة ومحاولات احياء اللغة العبرية ، وجهود اليعيزر بن يهودا في هذا المضمار . والصراع الذي دار بين المتمسكين بأسلوب الحياة التقليدي وبين الداعين الى حياة قومية علمانية وعلى رأسهم احاد هعام .

وأما الهجرة اليهودية الثانية (١٩٠٤ - ١٩١٤) فقد عرضنا لها باعتبارها موضوع رواية « الأمس الأول » ، وكونها وضعت الاسس التنظيمية في المجالات السياسية والاقتصادية والاجتماعية والثقافية ، التي تم تطويرها وشكلت نواة لمؤسسات دولة اسرائيل في سنة ١٩٤٨ . كما تتبعنا كل التطورات التي حدثت في تلك الفترة ، ابتداء من حركة الهجرة واحصاءاتها ومرورا بالصعوبات التي جابهت المهاجرين اليهود في فلسطين ، ودخول المنظمة الصهيونية طرفا فعالا في تشجيع الاستيطان اليهودي الصهيوني ، والمحالاوت التي بذلتها على الصعيد السياسي الدولي لتسهيل هجرة يهود الى فلسطين من خلال اعتراف دولي ودعم اقامة المستوطنات في كافة المجالات في اعداد الكوادر اللازمة لذلك . والاحزاب التي تأسست والتي ابرزها حزبا « بوعالي تسيون » و « هابوعيل هاتسعير » .

كما تضمن البحث عرضا للنشاط الاستيطاني الفعلي الذي تمثل في اقامة المستوطنات من خلال المقارنة والتمحيص بين المراجع الاصلية التي تناولت هذا الموضوع ، والاساليب التي اتبعت في هذا المضمار ، توخيا لمعرفة الحقيقة بهذا الخصوص . هذا بالاضافة الى ذكر الانماط الاستيطانية التي انشئت ، خصوصا في فترة الهجرة الثانية ، والدعوة الى احتلال العمل ورفع شعار العمل العبري ، والذي ادى الى مقاطعة استخدام العمال العرب في المستوطنات ، ثم الدعوة الى احتلال الأرض ، ومعارضة العرب في فلسطين الاستيطان اليهودي والتي ظهرت منذ تسعينات القرن التاسع عشر وتطورت واخذت طابعا جديا منذ تكالب المؤسسات الصهيونية على شراء الأراضي في فترة الهجرة الثانية .

وأوضحنا في هذا السياق ايضا الاسباب الكامنة وراء فكرة الدفاع الذاتي وتأسيس منظمة «هاشومير» وغيرها من منظمات الحراسة ، والتي بلغت ذروة تطويرها بانشاء منظمة « الهاجاناة » التي أصبحت نواة الجيش الاسرائيلي بعد قيام دولة اسرائيل في سنة ١٩٤٨ . كما أن معظم القوالب الاجتماعية والانماط التنظيمية التي نشأت على ايدي رجال الهجرة الثانية كانت بمثابة نقاط ارتكاز وأسس عمل لكل النشاط الاستيطاني . وأوردنا قائمة بأهم شخصيات الهجرة الثانية والتي لعبت دورا مهما حتى بعد قيام دولة اسرائيل .

وبالنسبة الى شموئيل يوسف عجنون ، مؤلف رواية « الأمس الأول » ، موضوع البحث ، درسنا حياته وأدبه ، متتبعين نشأته ومحيطه الاجتماعي والعوامل التي اثرت في تكوين شخصيته الأدبية ، ومكوناته الثقافية والفكرية ، والمصادر التي استمد منها خلفيته الأدبية ، والأدباء الذين تأثر بأعمالهم ، والمراحل التي مر بها في حياته ، ثم استقراره في فلسطين حتى وفاته . كما درسنا اسلوبه الأدبي من خلال بعض اعماله الأدبية ، وتأثره بالكتابات الدينية والأدباء اليهود في شرقي اوروبا والمانيا التي أقام فيها حتى سنة ١٩٢٤ . وما كان لتربيته الدينية والمناخ الذي ساد في اوساط المفكرين والكتاب اليهود في تلك الحقبة في شرقي ووسط اوروبا من انعكاسات تركت بصماتها جلية على أدب عجنون على امتداد حياته الأدبية . فقد اتخذ من الشعب اليهودي ومن مشاكله إطاراً يقدم من خلاله نماذجه وأنماطه الأدبية التي يعكس بها الحياة والتقاليد اليهودية في كل عصر ، فهو يمزج بين التراث اليهودي القديم وبين حياة اليهود الحديثة عبر تحليل دقيق لخبايا النفس اليهودية وأحاسيس الفرد اليهودي ومركباته النفسية . ويبرز ذلك في معظم اعماله الأدبية ، حيث يستوحي موضوعات من الحياة اليهودية على امتداد التاريخ ويضعها في قوالب جديدة . وأوضحنا اهم سمات اسلوبه الأدبي والتي تتمثل في الرمزية والاكثار من استخدام الامثال والعبارات والكلمات الموحية ، من خلال تصوير وصفي مسهب وخيال واسع .

وأثبتنا أن اسلوبه الأدبي يعكس موضوعات ذات خلفيات كثيرة ومتمايزة ، حيث كان يستمد خلفيات رواياته من بوتشاتش ، مسقط رأسه في جاليتسيا احدى مقاطعات بولندا . واليشوف اليهودي في فلسطين من بداية القرن العشرين ، والعالم المعقد في وسط وغربي اوروبا ، ثم القدس التي استقر فيها منذ سنة ١٩٢٤ وحتى مماته . ويجتمع في أدب عجنون تأثير الأدب الحسيدي ، نسبة الى الحركة الحسيدية التي أشرنا اليها سابقا . والمنحى « التقوي »

الذي نشأ في المانيا في القرن السابع عشر مع الأساليب النفسية والرمزية والواقعية في الأدبين الاسكندنافي والنمساوي - الهنغاري .

كما استخلصنا انه ينحو منحيين في كتاباته ، أولهما الاسلوب المستمد من المدراش ، وهو يمثل القصة الاخلاقية التقليدية التي تروى بالطريقة الحسيدية ، وتعود خلفيتها عموما الى المدينة اليهودية. وثانيهما المنحى الدنيوي الذي يتمثل في القصة التي تستخدم الاساليب النثرية المعاصرة، وتقدم لنا صورة سيوكولوجية من ضمن حبكة معاصرة معقدة ، ويتمثل هذا المنحى في رواية « الأمس الأول » موضوع البحث .

كما ناقشنا المشكلة الدينية في كتابات عجنون ، وهل يمكن اعتباره كاتباً دينيا ، وأثبتنا ان العقيدة الدينية ليست هي التي تحدد طابع أدبه . فالى جانب النظرة المتعاطفة جدا الى انماط الحياة اليهودية ، هناك مكان لنظرة اخرى . ويمكن أن نجد ذلك في انتقاد عجنون في رواية « الأمس الأول » لسكان حي ميئاه شعاريم في القدس المغالين في تدينهم ، وان كنا نجد في الرواية نفسها دعوة مستمرة الى الحفاظ على المناسك الدينية ، والقول بأن الابتعاد عن الدين اليهودي وقيمه يجلب الكوارث . وكذلك عرضنا لعناصر اخرى في أدب عجنون ، منها عنصر الصراع بين الاجيال، الصراع بين القديم والجديد ، وعنصر الزمن من زاوية الصراع بين الماضي والحاضر، ثم عنصر مدينة القدس وعلاقة الشعب اليهودي بها ، وهو الارتباط الذي يحرص عجنون على ابرازه باستمرار في معظم رواياته.

وأوردنا الملاحظات التي استخلصناها بالنسبة الى اسلوب عجنون الأدبي وأبرزها استخدام الاسلوب اليهودي والامثال بكثرة والادوار المختلفة التي يقوم بها الراوي في رواياته وقطع استمرارية الحبكة الروائية والخلط بين أزمنة الأحداث .

وبالنسبة الى مؤلفات عجنون استعرضناها بطبعاتها المختلفة والتي صدرت في تسع مجلدات ، عن دار شوكين للنشر ، ثمانية منها صدرت قبل وفاته وصدر المجلد التاسع سنة ١٩٧٩ ، وأوردنا اسماء القصص ونروايات التي تضمنها كل مجلد وعدد صفحاته .

أما رواية « الأمس الأول » فقد قدمنا عرضا موجزا لأهم احداثها مبرزين ما تهدف اليه رواية من خلال سرد الأحداث ثم دراسة تحليلية لها توخيا لتبيان الحقيقة عن فكرة الاستيطان شاكله كما عبرت عنهما الرواية جاء وكما جاءت في المقدمة التاريخية التي تصدرت هذا

البحث. وألقينا الضوء على أبرز السمات الأدبية لعجنون كما ظهرت في الرواية، وحل الغموض الذي يسببه، استخدام الرمزية والعبارات والكلمات الموحية. بالاضافة الى تسجيل الاستنتاجات التي استخلصناها، بصدد تصنيف الشخصيات اليهودية في أدب عجنون. الكثير من الغموض.

وأثبتنا أهمية الجانب الديني في فكرة الاستيطان موردين أمثلة ونماذج من رواية « الأمس الأول » تظهر بوضوح الارتباط العضوي بين المنحى الديني وفكرة الاستيطان لدى عجنون، كما عبر عنهما في الرواية عبر دعوته الصريحة الى الحفاظ على تعاليم اليهودية واضفاء طابعها على عملية الاستيطان اليهودي في فلسطين، واصراره على استخدام كلمة « ارض اسرائيل » بدلا من فلسطين على امتداد أحداث الرواية وما لهذا من مغزى ديني بالنسبة لليهود.

أما فكرة الاستيطان ومشاكله، كما تعبر عنها الرواية، فقد تتبعناها من خلال حياة بطل الرواية يتسحاق كومر، الذي جاء الى فلسطين بهدف الاستيطان فيها ولكنه اصطدم بواقع صعب لم يستطع مواجهته، ومن هنا جاءت نهايته المأساوية. وأثبتنا، بنماذج من الرواية، المشاكل التي واجهت المهاجرين في فترة الهجرة الثانية، سواء من جانب المستوطنين اليهود القدامى أو من ناحية الظروف الاقتصادية والاجتماعية التي كانت سائدة في فلسطين آنذاك، والانتقادات التي تضمنتها الروايه لكل من تسببوا بتلك المشاكل والدعوة الى العمل العبري واحتلال العمل والأرض خدمة للاستيطان اليهودي وتدعيما له.

وكما اثبتنا نظرة عجنون المعادية للعرب وتعصبه ضدهم من خلال ايراد أدلة من الرواية ونوظيفه كل مناسبة للاساءة اليهم ومحاولة تشويه صورة الانسان العربي في فلسطين، راميا بذلك الى ايجاد مبررات تخدم فكرة الاستيطان مما يمكننا من القول بأنه يصدر عن مشاعر صهيونية معادية للعرب. واذا نحن غفرنا له تعصبه الديني، كأمر واقع، على أساس التمييز بين اليهودية والصهيونية، وحق الكاتب في ان يتشيع لدينه، فان المفارقة التي تظل تفرض نفسها هي ان هناك اشكالا كبيرا تثيره باستمرار عملية منحه جائزة نوبل في الآداب في سنة ١٩٦٦ ـ وهي الجائزة التي ترتبط بخدمة السلام والانسانية ـ وما كتبه ضد العرب، مما يدخل في عباءة التعصب الديني والسياسي، وهذا أدخل في حيز التنكر للسلام والانسانية باعتراف العقل والمنطق وشرعة حقوق الانسان.

فما الذي اعطاه عجنون للانسانية والسلام؟

لقد وظف عجنون أدبه لخدمة الصهيونية والاستيطان اليهودي في فلسطين ، في مرحلة تعدّ بحق من أحرج المراحل التي شهدتها منطقتنا . وقد تبينا من خلال عرضنا لرواية « الأمس الأول » ، موضوع البحث ، انه يكرسها للحديث عن الهجرة اليهودية الى « أرض اسرائيل » وضد العرب الذين يصورهم شرا محضا . فاليهودي عنده قيمة عليا ، فوق القيم ، قدره ان يرجع الى « أرض اسرائيل » ليحيي فيها مآثر الأجداد ، واليهود عند بدء العالم ومنتهاه . انطلاقا من ذلك يوجه النقد للصهيونية ، لا باعتبارها حركة عنصرية معادية للسلام ، بل لانها تعمل على افراغ اليهودية من مضمونها في نظره ولأنها تبعد اليهودي عن قيمه الدينية والروحية ، كما يفهمها عجنون نفسه . ولا أدل على ذلك من جعله هيرتسل مرتبة ثالثة بعد النبي موسى والربي موشيه بن ميمون ، حيث يقول : « في الحقيقة هناك ثلاثة أشخاص هم الذين حسموا تاريخ اليهودية : سيدنا موسى وموسى بن ميمون وهيرتسل »(*)

أما العرب فهم ـ كما قلنا ـ شر محض . يقفون حجر عثرة في طريق الاستيطان اليهودي في « أرض اسرائيل » ، معتبرا اياهم منافسين للمهاجرين على مصادر العمل والعيش . ولا ينسى عجنون ان ينحو باللائمة ، كما أسلفنا ، على اليهود القدامى في فلسطين لتشغيلهم العرب بدلا من تشغيلهم المهاجرين اليهود الجدد .

واذا ما نظرنا الى أدب عجنون نفسه ، وجدنا ان هذا الأدب ، بطبيعته الأدبية الخاصة ورمزيته واعتماده شبه الكلي على نصوص توراتية قديمة ، يساهم بدوره في عدم انتقال اعماله الى لغات اخرى ، ومنها لغتنا العربية . فعجنون حريص على ان يضمن كتاباته نصوصا محافظة ينتزعها حرفيا من التراث اليهودي ، لا سيما العهد القديم وأدب الحسيديم ، ليضفي عليها خصوصية مبالغا فيها ، تبعده عن أن يكون أدبا عالميا . وهذا ينطبق كلية على كتاباته الموسومة بالحداثة . ففي هذه الكتابات المحدثة ينقل عجنون القديم في قالب جديد ، يبقيه مع ذلك معقدا او يكتنفه الكثير من الغموض .

واذا كان القارىء العربي لا يعرف شيئا تقريبا عن عجنون ، فان الامر نفسه ينطبق الى حد ما على القارىء الاوروبي او الاميركي ، نتيجة عدم ذيوع شهرة الكاتب كما أسلفنا ، لأنه

(*) بحانوتوشيل مار لوفلين (في محل السيد لوفلين) ، القدس ، تل أبيب ، شوكين ، ١٩٧٤ ، ص ١١٠ (باللغة العبرية) .

يكتب بلغة غير عالمية بمقاييس العصر . وبالاضافة الى نزعته العنصرية اللاانسانية ضد العرب في فلسطين ، والتي اظهرناها عبر ايراد أمثلة من روايته ، « الأمس الأول » فان كتابات عجنون ، اجمالا ، تعالج مشكلة اليهود بصورة انتقائية للوجه الانساني في مشكلتهم ، دون التعرض للمحيط الانساني العالمي الذي يرتبطون به ارتباطا جدليا ، بحيث كان بالامكان اعتبار أدبه عالميا لو حاول اكتشاف ابعاد المشكلة في أزمة الانسانية عموما. وعلى سبيل المثال، لم يلمح عجنون الى تأثير الاستيطان اليهودي على الشعب العربي المقيم في فلسطين، ولم يهز «انسانيته» شعار احتلال العمل على حساب العمال العرب، رغم ان أي انسان يستطيع ان يدرك بسرعة ان ما يعتبره عجنون، ايجابيا لليهود، هو في النتيجة سلبي للعرب. كل هذه الامور مجتمعة تؤدي بالضرورة الى التسلؤل: لماذا منحت جائزة نوبل الى عجنون بالذات؟ وتكشف لنا حقائق من شأنها ان تزعزع ثقتنا بالجائزة، على شهرتها وأهميتها، وتثير بالتالي شكوكا بالنسبة للقيمين عليها ومدى نزاهتهم وتجردهم، وتطرح تسلؤلات حول الاسس التي تعتمد في منحها.

ان جائزة نوبل تمنح للاكتشافات التي تؤدي الى تحسين الحياة الانسانية في مجال الطب والطبيعة والكيمياء وللاشخاص الذين قدموا مساهمات بارزة للادب والسلام .

ويمكننا ان نقول ، انطلاقا ، مما اثبتناه بالادلة والنماذج الواضحة من رواية « الأمس الأول » موضوع البحث ، ان عجنون نصب نفسه داعية لفكرة الاستيطان اليهودي في فلسطين ، بصورة مذهبية ثابتة مؤكدا على الحرص على مضمونها الديني اليهودي . واذا ما عرفنا ان الاستيطان اليهودي في فلسطين كان لا بد وان يقود الى طرد السكان العرب الاصليين من اراضيهم واقامة مستوطنات يهودية عليها ، ولا نعتقد ان عجنون كان يجهل ذلك ، فان « انسانية » عجنون في وجهها اليهودي ، هي مجحفة جدا في انعكاساتها على الشعب العربي المقيم في فلسطين . فاذا كانت القيمة الانسانية لأدب عجنون كامنة في معالجته لواقع اليهود البائس ، فان المنطق الانساني لا يقبل حل مشكلة بؤس شعب بايقاع الظلم على شعب آخر . وبغض النظر عن الخلفيات الدينية التي تستند اليها الصهيونية في ادعائها ملكية فلسطين ، فان عجنون واجه واقعا قائما هو ان ثمة شعبا آخر يقيم في فلسطين ، وسيتم الاستيطان اليهودي على حسابه . ولا نلمس في رواية عجنون « الأمس الأول » اية اشارة للعرب في فلسطين الا في مجال السخرية والتعصب ضدهم ، بدلا من محاولة تلمس الاضرار التي ستلحق

بهم نتيجة الاستيطان اليهودي . وهذا ما يتعارض مع ابسط القواعد الانسانية ويندرج في اطار ما أثرناه من تساؤلات حول المعايير التي منح عجنون جائزة نوبل على اساسها ، والتي يفترض ان تعطي للأفذاذ العالميين الذين يساهمون في رفعة الادب العالمي ويقدمون للبشرية عطاءات أدبية تخدم الانسانية والسلام .

ثبت المراجع

أولاً : باللغة العبرية

١ ـ إبن ـ شوشان ، تسفى ـ « تولدوت تنوعات هابو عاليم بأيرتس ـ يسرائيل ـ تاريخ حركة العمال في أرض ـ يسرائيل » ، تل أبيب : عام عوفيد ، ١٩٦٣ (٣أجزاء) ،

٢ ـ أهرونوفيتش ، يوسف « هاعام فيهآرتس ـ الشعب والبلد » ، تل أبيب : مركاز ترفوت فيحنوخ ، ١٩٧٠ .

٣ ـ إيزنشتدات شموئيل ، وآخرون ، ـ « هامفنيه هاحفراتي شيل يسرائيل ـ بنية اسرائيل الاجتماعية » ، القدس : اكدمون ، ١٩٦٦ .

٤ ـ إيز نشتدات ، شموئيل ـ « هاحفرا يسرائيليت ، ريكاع ، هيتباتحوت وباعايوت ـ المجتمع الاسرائيلي ، خلفية ، تطور ومشاكل » ، القدس : سيفريات ماغنس ، ١٩٦٧ .

٥ ـ إطينغر ، شموئيل « تولدوت عام يسرائيل بعيت هيحاداشاة ـ تاريخه اليهود في العصر الحديث » ، تل أبيب : دفير ، ١٩٦٩ .

٦ ـ « انشي هاعاليا هاشنيا ـ رجال الهجرة الثانية » ، تل أبيب : مركاز ترفوت فيحنوح ، ١٩٦٧ .

٧ ـ بن ـ تسفى ، يتسحاق ـ « إيرتس ـ يسرئيل فيشوفاه بيمى هاشيلطون هاعوتوماني ـ أرض ـ اسرائيل ومستوطنيها أيام الحكم العثماني » ، القدس : سفريات معاريف ، ١٩٦٨ ـ ١٩٦٩ .

٩ ـ براسلافسكي ، موشيه . « تنوعات هابوعاليم هأيرتس ـ يسرائيليت ـ حركة العمال في أرض ـ اسرائيل » ، تل ابيب : هاكيبوتس هاميئوحاد ، ١٩٦٦

٩ ـ غات ، بن ـ تسيون ، « هايشوف ها يهودي بأيرتس ـ يسرائيل ١٨٤٠ ـ ١٨٨١ ـ اليشوف اليهودي في أرض إسرائيل خلال سنوات ١٨٤٠ ـ ١٨٨١ » ، القدس : ياد يتسحاق بن ـ تسفى ، ١٩٧٢ .

١٠ ـ « شيفات تسيون ـ عودة صهيون » (رئيس التحرير : بن ـ تسيون دينور ـ دينبورغ) ، القدس : المكتبة الصهيونية ، ١٩٥٣

١١ ـ يوناتان ، شابيرا ، « أحدوت ـ هعفودا هاهسطوريت ـ احدوت ـ هعفودا التاريخية » ، تل أبيب : عام عوفيد ، ١٩٧٥ .

١٢ ـ كوهين ، أدير « هاسفروت ماعبفريت بشنوت هامدينا ـ الأدب العبري في سنوات الدولة » تل أبيب : أحيآساف ـ ١٩٧٣ .

١٣ ـ « كل كتقى شاي عجنون ـ أعمال عجنون الكاملة » ، القدس شوكين ، ١٩٧١ .

١٤ ـ « كتقى بار كتسلنسون ـ كتابات باركتسلنسون » ، تل أبيب : مابـاي ، ١٩٤٩ ، الجزء الحـادي عشر .

١٥ ـ لآزار ، دافيد ، « ماساومريفا ـ بيليطـونيم سيفـروتييم ـ مقـالات ومجـادلات أدبية » ، تل أبيب : هامنورا ، ١٩٧١ .

١٦ ـ لود ، تسقى ، « ميتسيئوت فيآدام باسيفروت هايرتس ـ يسرائيليت ـ الواقع والانسان في أدب أرض ـ اسرائيل » ، تل أبيب : دفير ، ١٩٧٠ .

١٧ ـ لاحوفير ، ب ، « تولدوت ها سيفروت ها عفريت هاحداشا ـ تاريخ الأدب العبري الحديث » ، تل أبيب : دفير ، ١٩٥٧ .

١٨ ـ « سيفر ها شومير ـ كتاب هاشومير » (رئيس التحرير : تيسحاف بن ـ تسقى) ، تل أبيب : دفير ، ١٩٥٧

١٩ ـ شاي ، عجنون ، « بيحانوتوشيل مار لوفلـين ـ في محـل السيد لوفلـين » ، القـدس ، تل أبيب : شوكين ، ١٩٧٤ .

٢٠ ـ شاي ، عجنون ، تيمول شيلشوم ـ الأمس الأول » ، القدس ، تل أبيب : شوكين ، ١٩٧٤ .

٢١ ـ كورتسفيل ، باروخ ، « سيفروتينو هاحاداشا ـ هيمشيخ أوماهيباخا ـ أدبنا الحـديث ـ إستمـرار أم ثورة » ، تل ابيب : شوكين ، ١٩٧١ .

٢٢ ـ كورتسقيل ، باروخ ، « ماسـوت عال سيبـوري عجنـون ـ مقـالات حول روايات عجنـون » ، القدس ، تل أبيب : شوكين ، ١٩٧٠ .

٢٣ ـ كلويزنر ، يسرائيل ، « حيفات تسيون برومانيا ـ حركة أحباء صهيون في رومانيا » ، القدس : المكتبة الصهيونية ، ١٩٥٨ .

٢٤ ـ كلويزنر ، يسرائيل « هاتنوعا ليتسيون بروسيا ـ الحركة الصهيونية في روسيا » ، ٣ أجزاء ، القدس المكتبة الصهيونية ، ١٩٦٢

٢٥ ـ كلويزنر ، يوسف ، « كيتسور تولدوت ها سيفروت ها عفـريت هاحاداشـا ـ موجـز تاريخ الأدب العبري الحديث » ، تل أبيب : شربراك ، ١٩٦٤ ـ

٢٦ ـ ريخف ، شلومو ، « ميفحار ميختافيم ـ مختارات » مرحافيا : هاكيبوتس هأرتسي ، ١٩٦٦ .

٢٧ ـ شيكد ، غرشون ، « غال حداش باسيفروتينو هاعفريت ـ موجة جديدة من أدبنا العبـري » ، تل أبيب : هاكيوتس ها مؤ وحاد ـ مكتبة العمال ، ١٩٧١ .

٢٨ ـ « سيفر تولـدوت هاهاغانـاة ـ كتـاب تاريخ الهاغانـاه » (رئيس التحـرير) بن ـ نسيون ـ دينـور ـ درينبورغ) ، تل أبيب : معراخوت ، الكتاب الأول ، الجزء الأول ، ١٩٥٤ .

٢٩ ـ ها نتسكلوبيديا ، هاعفريت ـ الموسوعة العبرية » ، القدس وتل أبيب : جمعية إصدار الموسوعات المحدودة ، ١٩٧٠ ، المجلدان السادس والسابع عشر .

٣٠ ـ هانتسكلوبيديا ، هاعفريت هاكلاليت ـ مسادا ـ الموسوعة العبـرية العامـة ـ مسادا » ، القـدس ، ١٩٦٦ ، الطبعة الرابعة ، الجزء الخامس .

٣١ ـ « غيشر » ، دورة فصلية ، تل أبيب : الادارة الاسرائيلية للمؤتمر اليهودي العالمي ، أبريل (نيسان) ١٩٧٣ ، الجزء الأول ، السنة التاسعة عشر .

٣٢ ـ « هآرتس » ، ملحق خاص ١٩٦٦/١٢/٩ ، تل أبيب .

٣٣ ـ « يديعوت أحرونوت » ، الملحق الأدبي ١٩٧٨/٢/١٠ ، تل أبيب ، ص ٣ .

٣٤ ـ « يديعوت أحرونوت » ، الملحق الأدبي ١٩٧٦/٢/١٣ ، تل أبيب ، ص ٢ .

ثانياً : باللغة الانجليزية

1) Bend Arnold , J . Nostalgia and Nightmare : A Study in the Fiction of S.Y. Agnon , Berkely and Los Angeles , 1968 .

2) Blocker , Joel . Israeli Stories , A Selection of the Best Contemporary Hebrew Writings , New York , Herzel Press , 1962 , p . 22 – 64 .

3) Sachar , Homard Morley . The Course of Modern Jewish History . Dell Publishing Co . Inc . New York , 1958 , Ninth Printing , P. 279 .

4) Smith , Gray V . (Ed) : Zionism , The Dream and The Reality – A Jewish Critique , New York; Barnes and Noble Books , 1974 .

5) Yudkin , Leon . Escape into Siege ,: A Survey of Israeli Literature Today , London , Boston , Routledge and Kegon Paul , 1974 .

6) Encyclopedia Britannica , London . William Benton , 1966 , Vol . I , P . 331 .

7) Encyclopidia Judaica , Jerusalem , Keter Publishing House Ltd ., 1970 , Vol . 2 , p. 376 .

8 (Encyclopedia Judaica , New York : Macmillan Company , 1971 , Vol . 8 .

9) The Encyclopedia of the Jewish Religion , New York , R. J Zvi Werhlansky and Geoggrey Wigoder , Holt Rinchart and Sinston Inc ., 1965 , P . 174 – 176 .

10) The Jewish Encyclopedia , New York 1901 , Ktab Publishing House Inc .

11) The New Standard Jewish Encyclopedia – 5th Edition – New York , Doubleday and Company Inc ., 1977 . p. 43 .

12) The Standard Jewish Encyclopedia Ed . Cecil Roth , London , 1966 , Vol . IV. p . 46 – 47 .

13) The Jerusalem Quarterly , No . 11 , Spring 1979 , Jerusalem , The Middle East Institue , p. 70 .

14) The Sociological Structure of Jewish Community of Palestine , New York , Quarterly Jewish Social Studies, No . 1 , January 1948 .

15) American Jewish Year Book , Vol . 68 (1967). New York: American Jewish Committee ; Philadelphia : Jewish Publication Society of America . p. 437 .

ثالثاً : باللغة العربية

١) الصحافة العربية في فلسطين ١٨٧٦ - ١٩٤٨ ،(اعداد يوسف خوري) بيروت ، مؤسسة الدراسات الفلسطينية ، ١٩٧٦ .

٢) المسيرى ، عبد الوهاب ، اليهودية والصهيونية واسرائيل ، (الطبعة الأولى) ، بيروت ، المؤسسة العربية للدراسات والنشر ، ١٩٧٥ .

٣) جريس ، صبري ، تاريخ الصهيونية ، الجزء الأول ١٨٦٢ - ١٩١٧ ، بيروت ، مركز الابحاث ، ١٩٧٧ .

٤) ربيع ، محمد محمود ، أزمة الفكر الصهيوني ، بيروت ، المؤسسة العربية للدراسات والنشر ، ١٩٧٩ .

٥) رزوق ، اسعد ، اسرائيل الكبرى : دراسة في الفكر التوسعي الصهيوني ، بيروت ، مركز الابحاث ، ١٩٦٨ .

٦) ظاظا ، حسن ، الفكر الديني الاسرائيلي : اطواره ومذاهبه ، القاهرة ، معهد البحوث والدراسات العربية ، ١٩٧١ .

٧) علي ، فؤاد حسنين ، الادب اليهودي المعاصر ، القاهرة ، معهد البحوث والدراسات العربية ، ١٩٧٢ .

فهرس